رواية

عمرو حسين

تاهيتي

الدار المصرية اللبنانية

رواية

تاهيتي

عمرو حسين

إهداء

إلى كل مَن شعر يومًا بالغُربة في وطنه

أو بين أهله، أو في بيته.. لسبب أو لآخر

أُهدي هذه الرواية.

أحداث هذه الرواية الهزلية مزيج من الخيال والواقع

الجزء الذي قد يبدو واقعيًا من نسج خيال المؤلف

وأما ما قد يبدو خياليًا فهو ما قد وقع بالفعل!

1

السبت 17 نوفمبر 1969

نيويورك

كانت عقارب ساعته الذهبية تشير للسادسة مساءً. سيصل متأخرًا للندوة. كعادته ظل يتفقد اللوحات الفنية الرائعة الموجودة بمعرضه. أَنْسَته اللوحات ذكرَ الندوة حتى التفت لساعته فانتفض مُسرعًا ليرتدي معطفه الثقيل. نظر للوحاته نظرة أخيرة كمُحب عاشق، مُحب يوشك أن يترك محبوبته على أمل العودة السريعة لاحقًا.

«ستيفن هان»، أشهر وأكبر تاجر وجامع للتُّحَف واللوحات الفنية الأصلية في نيويورك في ذلك الوقت. كان «هان» خبيرًا في أعمال «بابلو بيكاسو»، «إدجار ديجا» ، «بول سيزان»، «كلود مونييه» وعشرات الفنانين الآخرين. معرضه في طريق «ماديسون» الشهير بنيويورك كان بمثابة متحف يضم كنوزًا من الفنون. أفنى شبابه في العمل ما بين اقتناء وبيع اللوحات والتحف. ولطالما قضى أوقاتًا كثيرة ينظر للوحاته بالساعات كالمخمور المنتشي.

للوقـت. أو ربما لأنـه هو المتحدث الرئيسـي في هذه النـدوة. بل هو مَـن دعا أعضاء الجمعية وجامعي اللوحـات الفنية من كل بقاع العالم لحضورها لأهمية الموضوع. سـار «هان» مُسـرعًا وهو يُقلب الأفكار في رأسه.

وصـل «هـان» سـريعًا لمقر الجمعيـة. كان فـي الثامنـة والأربعين مـن عمره وقتهـا، إلا أنه قفز السـلالم الأمامية كرياضي في العشـرين مـن عمـره. اقتـرب أحـد العامليـن بالجمعية منـه وهو يسـاعده على خلـع معطفـه. أخبره أن القاعـة ممتلئة وأن الجميع فـي انتظاره. دخل سـريعًا وما إن صعد على المنصة الرئيسية حتى ارتجَّت جنبات القاعة بالتصفيق الحاد. انحنى «هان» يُحيي الحضور وبدأ بالاعتذار. الجميع يعلـم مدى حبه للفن وللوحات كبار الفنانيـن. ضحكوا حين أخبرهم أنه نسـي النـدوة والدنيا كلهـا وهو يتأمـل إحدى لوحات «بيكاسـو». والذي كان بالمناسبة صديقًا شخصيًا لـ«هان».

لـم يشـأ «هـان» أن يُطيـل فـي المقدمـة. أصـاب قلبَ الموضوع مباشـرة. هناك ظاهرة جديدة مخيفة تكررت كثيرًا في عام واحد. هذه الظاهرة هي سـرقة اللوحات والقِطَع الفنية من المعارض والمتاحف. حـدث ذلـك فـي كثير من المـدن، وتكـرر أكثر مـن مرة فـي نيويورك ذاتهـا في نفس العام. حكى «هـان» بلُكْنَته الفرنسـية المميزة كيف أن نيويـورك لم تشـهد مثل هذا العدد من السـرقات من قبـل. لقد حدثت مـن قبل سـرقات فنية كثيرة، لعل أبرزها وأشـهرها كانت سـرقة لوحة

«هان» من أصل مَجَري، قضى شبابه في باريس حيث درس الفنون. ورث جمع وتجارة اللوحات عن أبيه. بعدها بدأ بتدريس الفنون لطلبة السوربون حتى التقى بزوجته الأمريكية الجميلة «نانسي». فوقع في حُبها كلوحة سُريالية من لوحات «بيكاسو» التي طالما عشقها. فإذا به يترك أوروبا كلها ويعود معها إلى نيويورك. وهناك بدأ كتاجر بسيط ثم ما لبث أن تميز واشتهر. استطاع في سنوات قليلة أن يكون المرجع الأول في نيويورك للفنون والتُّحف، وبالطبع اللوحات. بلغت قيمة لوحات وتُحف «هان» عشرات الملايين من الدولارات، وهي قيمة كبيرة جدًّا بمقاييس الستينيات، إلا أن «هان» ظل ينظر لنفسه كجامعَ لوحات هاوٍ، ولم يرَ نفسه أبدًا تاجرًا محترفًا.

أخرج «هان» حلقة مفاتيحه وأغلق باب معرضه بالمفتاح. بعدها أغلق بابًا آخر فولاذيًّا كأبواب خزانات الأموال الضخمة. منذ عودته لنيويورك أدرك «هان» أن ثروته الحقيقية تتمثل في التحف واللوحات الفنية الأصلية والتي تحمل توقيعات كبار الفنانين. لهذا فقد ابتكر فكرة إغلاق المعرض بباب فولاذي ضخم لا يُفتح إلا بمفتاحه الأصلي.

أغلق الباب الفولاذي في ثقة ثم عاد لينظر من جديد في ساعته الذهبية التي أشارت لعشر دقائق مضت بعد السادسة. لقد تأخر بالفعل عن الندوة المنعقدة في مقر «الجمعية الأمريكية لتُجَّار وجامعي القِطَع الفنية». تلك الجمعية التي يعتبر «هان» أحد أهم مؤسسيها. مبنى الجمعية يقع على بُعد دقائق من معرض «هان». ربما لهذا لم يلتفت

الموناليزا من متحف اللوفر بباريس في أغسطس عام 1911. حتى أن الخبراء يُجمعون أن هذه السرقة كانت السبب الرئيسي في شهرة اللوحة التي تم استعادتها فيما بعد. المشكلة أن معدل تكرار مثل هذه الحوادث ازداد مؤخرًا. ما يجعل المشكلة أكثر تعقيدًا أن مَن يقومون بهذه السرقات على قدر كبير من الذكاء. وبمجرد السرقة فإن السارق يتخلص سريعًا من اللوحات عن طريق بيعها لوكيل أو لجامع لوحات حيث تختفي بعدها للأبد.

دارت مناقشات كثيرة حول الموضوع. أجمع الحاضرون على أن دوافع السرقة في أغلب الأحيان تكون فنية أكثر منها مادية. مما يزيد من صعوبة تتبع السرقة أن السارق ما هو إلا مُنفذ لخطة دقيقة وضعها شخص آخر. وغالبًا ما يكون الفريق كله من مخططين ومنفذين يعملون لمصلحة تاجر لوحات يريد اللوحة لأحد كبار جامعي اللوحات. مما يجعل تتبع كل هؤلاء من المستحيلات. أغلبهم لا يترك أي دليل. ولذلك فنسبة استرجاع مثل هذه اللوحات الأصلية تظل بسيطة. محظوظةٌ هي الموناليزا، حيث عادت سليمة ومعها شهرة كبيرة لم يكن «دافنشي» نفسه يتخيل أن تصل لوحته لها. أثناء حديث «هان» عن اللوحة قاطعه شاب بلُكنة إيطالية واضحة:

- الحل إذًا ببساطة ألا تحدث السرقة أصلًا.

أشار الشاب وقتها أن الحل يكمن ببساطة في تأمين المتاحف والمعارض باستخدام أحدث أجهزة الإنذار والحراسة والتكنولوجيا

الحديثة. وافقه معظم الحضور. استغرب «هان» أسلوب الشاب الواثق ومقاطعتـه له رغم صغر سـنه الواضح. مع ذلـك وافقه «هان» فيما قال إلا أنه تحفظ على اسـتخدام أجهزة الإنذار. كان «هان» ينظر لمعرضه علـى أنه متحف وليس بنـكًا. لهذا فقد كان يـرى أن التأمين مهم جدًّا. لكنه لم يكن يحب أجهزة الإنذار المزعجة.

- مسـتر «هـان» أنا أختلـف معك تمامًا في هـذه النقطة، يجب أن نسـتخدم كل الوسـائل الحديثة لتأمين المتاحـف والمعارض. فهي بالنسبة لنا أهم من أموال البنوك.

نظر «هان» مرة أخرى للشـاب الذي قام بمقاطعته فسـكتت القاعة كلها.

- هلَّا عرَّفتنا بنفسك أولًا!

- «باولو جارديني»، تاجر لوحات فنية من البندقية.

- سيد «جارديني»، كم عمرك؟

- أنا في الخامسة والعشرين من عمري سيد «هان».

تعجب «هان» من ثقة «جارديني» الشـديدة بنفسـه في هذه السـن. وتعجب أيضًا من وجوده في ندوة للجمعية الأمريكية.

- كيف وصلتك الدعوة للندوة؟

- أنا أعمل مع «بينالي» البندقية منذ سنوات. وأنا صديق شخصي

لأحد اهم اعضاء جمعيتكم «روبرت روشنبرج»، أول أمريكي وأصغر مَن فاز بجائزة «بينالي» البندقية سنة 1964. كما أنني ورثت معرض «جارديني»؛ أشهر معارض اللوحات بالبندقية عن أبي، وهو من أهم المعارض في أوروبا.

- وما هي أهم الأعمال الأصلية بمعرضك؟

- الكثير والكثير. أنا عندي مجموعة كبيرة لـ«سيزان» و«جوجان» و«فان جوخ».

ثم سكت لحظة وهو ينطق بثقة واضحة:

- وعندي أربع لوحات لـ«بيكاسو»، أعتقد أنك ستهتم للغاية بها.

ما إن سمع «هان» اسم «بيكاسو» حتى سال لُعابه. شعر بالغيرة كمن علم أن حبيبته تواعد شخصًا آخر سرًّا. عزم على الحديث مع ذلك الشاب الإيطالي لكنه عاد وتذكر الندوة فقرر أن يختصر ويختمها حتى يسأل عن لوحات «بيكاسو».

في سرعة شكر «هان» الحضور وأوجز ما دار في الندوة من مناقشات. كان مقررًا أن تستغرق الندوة ساعتين: من السادسة إلى الثامنة مساءً. بدأها «هان» متأخرًا، وها هو يكاد يختمها مبكرًا أيضًا. وبينما كان «هان» يُعلن انتهاء الندوة ارتبك «جارديني» قليلًا ونظر للساعة الكبيرة المعلقة في القاعة والتي أشارت إلى السابعة والنصف. وبنفس الثقة قاطع «هان» للمرة الثالثة:

- مستر «هان» لقد أخبرتنا أنـك لا تحب أجهزة الإنذار، فكيف تحمي معرضك الخاص من هذه السرقات إذًا؟

- ضحك الحضور وضحك «هان» كثيرًا من السؤال.

- ليس من المفترض أن أكشف وسائل تأميني أمام هذا الحشد، ولكني تقديرًا لسـؤالك وثقةً في تأميني للمعرض سـأخبركم. معرضـي مؤمَّن بشـدة ببابيـن: الأول بـاب عادي، أمـا الباب الآخـر فهو بـاب فولاذي صلب، ضد الرصـاص والماء، ولن ينفتح حتى ولو فُجِّرت أمامه...

عاد «جارديني» لمقاطعة «هان» مجددًا:

- مـاذا لو تمكن أحدهم من نسـخ المفتاحيـن، وأنت لا تعترف بأجهزة الإنذار؟

- قد يسـتطيع أحدهـم بالفعل نسـخ مفتـاح الباب العـادي. أما مفتـاح البـاب الفـولاذي فغيـر قابـل للنسـخ أصلًا. النسـخة الوحيـدة من هـذا المفتاح معي. وهي نسـخة لن يسـتطيع أي شخص أن يأخذها مني أبدًا.. أبدًا.. أبدًا.

قالها بثقة شـديدة جعلت الحضور يصفقون له بشـدة فصفق معهم «جارديـني» الـذي اقترب من «هان» ليتحدث معه عقـب نهاية الندوة. سلم «هان» على «جارديني» بشدة وأخبره باهتمامه بمعرفة المزيد عن كل لوحـات معرض «جارديني». بينمـا واصل الحضور خروجهم من

القاعة دخل ضابط من شـرطة نيويورك مسرعًا يسأل مَن مستر «هان». تكلم الضابط مع مسـتر «هان» الـذي بدأ يفتش في جيوبه كأنما يبحث عن شـيء ما. هرول «هـان» خارجًا من القاعة. لـم يلتفت حتى لعامل الاسـتقبال وهو يناوله معطفه. تناوله وجرى مسـرعًا وسـط دهشة مَن تبقى من الحضور.

أسرع البعض ومعهم «جارديني» نحو الضابط يسألونه عما حدث، فأجاب:

- يبدو أن معرضه تعرَّض للسرقة.

نظـر الحاضـرون لبعضهـم البعض فـي لحظة دهشـة وصمت. ثم ضحك أحدهم بصوت عـالٍ فارتفعت أصوات أغلبهم بالضحك غير مُصدقين. وراح أحدهم يقلد «هان» وهو يؤكد: أبدًا.. أبدًا.. أبدًا.

أضاف الشرطي:

- يبدو أن بعض اللصوص دخلـوا المعرض بالمفتاح الأصلي. أخـذوا فقط بعض اللوحات وتركوا البـاب الخارجي مفتوحًا ولم يتركوا خلفهم أي أثر.

2
بعد أربعين سنة

الخميس 17 سبتمبر 2009

البندقية – إيطاليا

حياة فنية طويلة قضاها «باولو جارديني» بين المتاحف والمعارض وصالات المزادات. صاحب العشرات من أشهر فناني القرن العشرين. اقتنى المئات من اللوحات. باع العديد منها واشترى الكثير. حتى صار اسمه الأشهر عالميًا في مجاله. كان يعرف أشهر وأغلى اللوحات: مَن رسمها، ومتى، وأين، ولماذا. كثيرًا ما تردد اسمه في حوادث سرقات فنية أو استيلاء على بعض اللوحات من بعض المتاحف، ولكن لم تتم إدانته ولو مرة واحدة. وظل اسمه مرتبطًا بالفنون الراقية، وبخاصة التصوير الزيتي.

منذ عدة سنوات، ومع دخول «جارديني» عامه الستين، قرر أن يقلل من نشاطه الفني. بعد أن أفنى ما مضى من عمره متنقلًا بين المتاحف والمعارض والمدن قرر أن يستقر. قرر أن يعود من حيث بدأ. من بلدته التي علَّمته حب الفن منذ كان طفلًا يلعب في حواريها. عاد «جارديني» للبندقية أو فينسيا. المدينة الساحرة الحالمة العائمة.

عـاد مرة أخـرى مُحمَّلًا بثـروة هائلة من اللوحات التـي جمعها خلال حياتـه. عـاد لبيـت عائلته الصغيـر المهجور فـي منطقة «سـان زكريا» القريبـة من ميدان «سـان ماركو» وسـط مدينة البندقية. اشـترى البيت المجـاور ووسَّـع بيـت العائلـة وأعـاد ترميمـه وتجديـده. أنفـق على عمليات التطوير بسـخاء شـديد. من الخارج بـدا البيت كبيت تقليدي قديـم من بيـوت البندقية. أما من الداخل فقسـم المسـاحة الكبيرة بين ثلاثـة أجـزاء: أما الجزء الأول فهو جزء صغيـر يعيش فيه وحيدًا حيث لـم يتزوج «جارديـنـي» ولم يكن لـه أولاد. أما الجزء الثانـي، فقد أقام فيه مكتبًا ليواصل نشـاطه الفني وتجارة اللوحات، وعُرف هذا المكان في البندقية باسـم «جاليري جارديني». وأما الجزء الثالث، وهو الأكبر والأهـم بين الثلاثة، فقـد أعده كمعرض كبير لأفضل القِطَع الفنية التي امتلكها «جارديني» على مدى سنوات عمله الفني. هذا الجزء هو بمثابة متحف فني خاص. المتحف لا يُفتح إلا بكلمة سـر يكتبها «جارديني» علـى جهاز حاسـب رقمي خاص يعمل باللمس. أعـد «جارديني» في المتحـف أفضل أجهزة الإنـذار، إطفاء الحرائق تلقائيًا، أعلى وسـائل التأميـن، كاميـرات فـي كل ركـن، أجهـزة تكييـف خاصـة، بالإضافة لأحـدث الأنظمة الصوتيـة المتصلة بكل صـالات المتحف الخاص. لطالما قضى «جارديني» قسطًا وفيرًا من وقته مستمتعًا بأعذب الألحان الكلاسـيكية متأمـلًا في نفس الوقـت لوحاته التي لا تُقـدر بثمن. أعد المكان بنفسـه ليكـون متحفًا عالميًـا بعد وفاته. تلـك خلاصة وصيته التي أودعها لدى محاميه الخاص قبل أن يقرر الاسـتمتاع بما بقي من

عمره بين الموسيقى الكلاسيكية واللوحات الزيتية وزجاجات النبيذ الفاخر.

كان «جارديني» غارقًا في النوم. قضى ليلته وحيدًا يشرب النبيذ ويستمع للموسيقى. يبدو أنه أفرط في الشراب هذه المرة. لم تعد سنه تسمح بذلك الآن. رأى فيما يرى النائم أنه في مكان جميل. الجو دافئ وهو مستلقٍ بين اليقظة والنوم. بدا له أنه يستمع لألحان «شوبان» الجميلة. كان يستمع لأحد أحب الألحان إليه. أحس بنشوة عجيبة تغمر جسده كله وهو يستمتع بالموسيقى. بدا له كأنه يراقص فتاة جميلة في قاعة رقص أنيقة كقاعات فيينا. فجأة أحس بهزة عنيفة. اختفت القاعة واختفت الفتاة وظلت الموسيقى وحدها. شعر بهزة أخرى مع صوت يعرفه جيدًا:

- سنيور «جارديني».. استيقظ كفاك نومًا.

بصعوبة فتح عينًا واحدة فوجد شخصًا أمامه. احتاج «جارديني» لبضع دقائق مع بضع هزات عنيفة، بالإضافة لسماع اسمه عشر مرات على الأقل حتى استطاع فتح عينه الأخرى. بعدها احتاج دقيقة إضافية ليتعرف على ذلك الشاب المتطفل الذي أيقظه من ذلك الحلم الجميل. إنه مُساعِدُه الشاب «ماركو فيسينتي».

- ما الذي حدث؟ لماذا توقظني الآن؟

- كل عام وأنت بخير سنيور «جارديني»، اليوم عيد ميلادك

الخامس والستون.

- لنفرض أنه كذلك، لمَ أيقظتني؟

تعجب «ماركو» وسكت قليلًا ثم التفت حوله وأشار إلى هدية علبة ضخمة احتلت ربع الحجرة ملفوفة بعناية:

- كل عام وأنت بخير سنيور «جارديني»، اليوم يوافق عيد ميلادك وذكرى تاسع عام أعمل فيه معك.

- ولم تتعلم مني أي شيء في تسعة أعوام.. ما هذه الهدية؟

- أرجوك سنيور «جارديني»، افتحها بنفسك.

قام «جارديني» متثاقلًا متثائبًا يجر جسده الكبير بصعوبة شديدة. اتجه نحو الهدية الكبيرة وبصعوبة شديدة أزاح الغلاف الملون لتظهر علبة ضخمة لماكينة قهوة كبيرة مما تُستخدم في المقاهي الكبيرة.

- ما هذا؟

- لقد لاحظت أنك تُحب قهوتك الصباحية وليس عندك ماكينة قهوة في البيت...

قاطعه «جارديني» كأنه لم يكن يسمع ما قال:

- «ماركو» عندما تشتري هدية للمطبخ اشترِها لصديقتك، ليس لديَّ نية لإدارة مقهى عام هنا لأحتاج لكل هذه الماكينة من أجل صُنع فنجان قهوة في الصباح.

- لقد ظننت أن...

قاطعه للمرة الثانية:

- «ماركو».. ذَكِّرني منذ متى تعمل معي؟

- تسع سنوات سنيور «جارديني».

- بعد هذه السنوات، لو فرضنا أن هناك شيئًا واحدًا فقط أريدك أن تتعلمه جيدًا مني، أتعلم ما هو هذا الشيء؟

أخفى «ماركو» ابتسامة وسكت كالعادة كتلميذ نسي كراسته في المنزل وليس لديه ما يُبرر تلك الفعلة الشنعاء.

- ما هو هذا الشيء سنيور «جارديني»؟

- أن تتعلم فن اختيار الهدية. أنا فنان، جامع لوحات. الهدية لي يجب أن تكون فنًّا. يجب أن تكون شيئًا أحتاجه وأريده: لوحة، تمثالًا نادرًا، قطعة فنية نادرة... بالقطع أنا لا أهتم بأدوات المطبخ.

تقبل «ماركو» التقريع المعتاد على مضض. «جارديني» بالنسبة له ليس المدير أو صاحب العمل. بل هو «أب» . و«جارديني» كذلك يعامله كابنه منذ أن التقى به للمرة الأولى في البندقية منذ تسع سنوات. يومها كان «ماركو» شابًّا مُعدمًا فقيرًا. تعليمه بسيط. مات أبواه وهو صغير. امتلك أبوه مطعمًا صغيرًا بإحدى جُزر المدينة الصغيرة

العائمة. للأسف خسر أبوه كل شيء على موائد القمار ومات وتركه وحيدًا مع أمه. بعدها بسنوات قليلة تُوفيت أمه أيضًا وتركته وحيدًا. لم يستطع أن يلتحق بأي تعليم جامعي، عمل في مطعم صغير، بعدها جاءته فرصة كبيرة للعمل في أحد مقاهي البندقية. وهناك وعلى هذا المقهى التقى بـ«جارديني» لأول وثاني وعاشر مرة. اعتاد «جارديني» في ذلك الوقت تناول القهوة في ذلك المقهى كلما عاد للبندقية. أُعجب «جارديني» بأدب وهدوء «ماركو»، وهو الهدوء الذي افتقده «جارديني» في معظم الشباب الإيطالي. أحس «جارديني» أن ذلك الشاب الفقير لديه حسًّا فنيًّا. التقطه من المقهى وبعدها بأسابيع أصبح «ماركو» يرافقه كظله في كل مكان.

«جارديني» جعل من ذلك الشاب الفقير شخصًا آخر. صار الآن يرتدي أحدث الملابس الإيطالية، ويضع أغلى العطور. تعلم الكثير عن الفن والفنانين من «جارديني». الأهم من ذلك كله أنه لم ينسَ أبدًا فضل «جارديني» عليه، وظل بمثابة الابن البار بأبيه. أدرك «ماركو» أن «جارديني» قد يكون عصبيًّا أحيانًا، ولكنه طيب القلب دائمًا. من السهل أن تحصل على قلبه وعقله بلوحة أو قطعة موسيقية جميلة.

- «ماركو».. سأذهب للحصول على حمَّام دافئ.. واستعد للعمل.
- بالطبع سنيور «جارديني».. سأكون في انتظارك.

مشى «جارديني» ببطء نحو الحمَّام، كاد أن يغلق الباب إلا أنه

توقف فجأة واستدار وأشار إلى ماكينة القهوة مبتسمًا:

- احمل ذلك الشيء للمطبخ وضعها في مكان مناسب، واصنع لنا فنجانين من القهوة لنجربها.

هذا هو بالضبط «جارديني» الذي يعرفه. عصبي عنيف، يصرخ ويعترض، إلا أنه يعود لهدوئه في لحظات. «ماركو» هو الشخص الوحيد الذي يمتلك مفتاح بيت «جارديني». كان يشعر دائمًا بالفخر أنه الوحيد الذي يثق فيه «جارديني» هذه الثقة.

أعد «ماركو» القهوة الساخنة وانتظر «جارديني» الذي عاد في كامل أناقته كأنه يستعد لحضور حفل كبير. أبدى «جارديني» إعجابه بالقهوة، وبعد الانتهاء من القهوة دعا «ماركو» لقضاء بعض الوقت في متحفه الخاص. مثل تلك الدعوات لم تكن تتكرر كثيرًا، حيث إن «جارديني» يُفضل قضاء وقته وحيدًا داخل متحفه إلا فيما ندر. اتجه «جارديني» نحو باب حديدي ضخم في جانب الصالة، وبجوار الباب هناك لوحة مفاتيح صغيرة متصلة بالحاسب الرقمي الذي يؤمِّن المكان، كتب عليها «جارديني» كلمة السر وحرص ألا يراه «ماركو». بعدها أدار مقبض الباب فانفتح ودخلا معًا لمتحف «جارديني» الصغير. تأكد «جارديني» من درجة حرارة الغرفة وأدار الموسيقى الكلاسيكية، وأخذ «ماركو» في جولة داخل المتحف الصغير الذي احتوى على لوحات بمئات الملايين من الدولارات. توجه «جارديني» إلى قسم خاص للوحات «بول جوجان».

«جوجان» فنان فرنسي شهير. بدأ حياته الفنية كتاجر صغير للوحات ثم اتجه بعدها للرسم. عاش «جوجان» حياة غريبة أشبه بالأساطير، حيث إنه فجأة هجر زوجته وطفلَيْه وقرر ترك باريس وفرنسا، بل أوروبا كلها، والعودة للحياة البدائية متنقلًا بين جزر أمريكا اللاتينية في المحيط الهادي. كانت لوحات «جوجان» هناك تمثل الحياة البرية البسيطة. تأثر «جارديني» كثيرًا بـ«جوجان». ربما لهذا السبب لم يتزوج على الإطلاق. جزر البندقية ببساطتها تمثل لـ«جارديني» نفس معاني الحرية التي مثلت جزر المحيط الهادي لـ«جوجان». لذلك فقد كانت لوحات «جوجان» الأصلية وبخاصة تلك التي رسمها في الجزر تعني كنزًا لا يُقدر بثمن لـ«جارديني». ولقد امتلك أربع لوحات أصلية من هذه المجموعة الكبيرة. وظل على استعداد لفعل أي شيء من أجل المزيد منها. وسط هذه اللوحات الجميلة وقعت عينا «ماركو» على إطار فارغ للوحة غير موجودة. إطار جميل كبقية الإطارات إلا أنه ظل خاليًا. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها «ماركو» ذلك الإطار، لكنه قرر أن يسأل «جارديني» هذه المرة:

- ما هذا الإطار الخالي؟
- لوحة.
- أية لوحة؟
- «ماتا موا».
- أين هذه اللوحة؟

- لم أشترها بعد.. لقد كنت على وشك شرائها مرتين من قبل، ولكن هناك مَن سبقني.

- «ماتا موا»؟!

- هي لوحة رائعة لـ«جوجان»، ترجمة اسمها يعني «في الأيام الخوالي»، رسمها «جوجان» بالزيت عام 1891، وهذا الإطار صُنع خصيصًا لها 91سم في 69سم.

- أين هي الآن؟

- في متحف بإسبانيا ولكنها يومًا ما ستكون هنا. لم أُقرر كيف ولكنها حتمًا ستكون لي.

أحس «ماركو» أن «جارديني» يعرف جيدًا ما يقول. «جارديني» يعرف أماكن معظم اللوحات خاصة تلك التي تروقه. كان يعرف في أي متحف أو مع أي جامع لوحات أو في أية صالة مزادات يجد كل لوحة. «جارديني» يستطيع أن يميز ببساطة بين القِطَع الأصلية والمزورة. جانب كبير من ثروته جمعها من عمله كخبير لدى أكبر متاحف العالم لتنقية واعتماد القِطَع الأصلية.

- لو أن تلك اللوحة غير معروضة للبيع، هل تفكر في استعارتها من هذا المتحف؟

فهم «جارديني» إشارة «ماركو» الذي قصد سرقة اللوحة، لكنه سكت قليلًا.

- لقد كبرت على هذه العمليات الآن. سيكون ذلك هو الخيار الأخير.

- طبعًا؛ فالمتحف مؤمَّن ويستحيل دخوله بسهولة...

قاطعه «جارديني» كالعادة:

- «ماركو»، ذكرني منذ متى تعمل معي؟

- تسع سنوات سنيور «جارديني».

- بعد هذه السنوات، لو فرضنا أن هناك شيئًا واحدًا فقط أريدك أن تتعلمه جيدًا مني، أتعلم ما هو هذا الشيء؟

أخفى «ماركو» ابتسامة ورد كالتلميذ المطيع:

- ما هو هذا الشيء سنيور «جارديني»؟

- لا يوجد مكان في هذا العالم كله مؤَمَّنًا وضد الاختراق.. كل مكان وله طريقة!

3

بعد 6 شهور

الأربعاء 17 مارس 2010

معرض «فن دبي» – مدينة «جميرا»

صعد د. «آدم عبد البديع» السلَّم المؤدي لقاعة العرض الكبرى بمدينة «جميرا» بدبي. حمل مظروفًا أنيقًا فيه دعوة خاصة لحضور معرض «فن دبي». ذلك المعرض الكبير والذي يُعد من أهم المعارض الفنية في الشرق الأوسط. ما إن قدَّم الدعوة لإحدى الفتيات خلف منصة الاستقبال حتى ابتسمت وطلبت منه الانتظار لدقيقة. كان يعلم أن هذه دعوة خاصة، حصل عليها بصفته أستاذًا للتصوير بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة، وأحد أهم الفنانين المصريين الذين سبق لهم المشاركة بأعمالهم الفنية في المعرض من قبل، ولكنه لم يكن يعلم ما يميز هذه الدعوة عن الدعوة العادية. بالنسبة له فقد تكفلت الكلية بقيمة تذكرة السفر، وتكفل المعرض نفسه باستضافته بفندق «مينا السلام» حيث يُقام المعرض، وهو يُعد من أفخم فنادق إمارة دبي. لم يكترث آدم كثيرًا لا بالفندق ولا بفتيات الاستقبال، فقط كان ينتظر الدخول للمعرض والتجول وسط المعروض من اللوحات والقِطَع الفنية.

لم تمر دقيقة حتى عادت فتاة الاستقبال ومعها فتاة أخرى جميلة في العشرينيات من عمرها.

- مستر بديع، «نيكول» ستصحبك في جولة سريعة حول قاعات وأقسام المعرض.

كاد أن يضحك عندما سمع اللكنة الأجنبية التي نطقت بها اسمه.

- لكنني لا أريد أية مساعدة، أُفضِّل أن أكون بمفردي.

- «نيكول» ستُعرف حضرتك سريعًا على الأقسام، كما يمكنها أن تجيب على أية استفسارات خاصة بالمعرض. حضرتك ضيف مهم جدًّا.

شعر آدم بالإحراج؛ فقد كان يريد الدخول للمعرض ولم يكن مستعدًّا للجدال. قال في قرارة نفسه: لندخل الآن للمعرض وسأجد أي طريقة للتخلص من هذه الـ«نيكول».

د. آدم أستاذ التصوير الزيتي، ونائب رئيس قسم التصوير بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة. تلك الكلية العريقة التي أخرجت لمصر وللعالم العديد من الفنانين على مدى عشرات السنوات. أسماء كبيرة خرجت من تلك البقعة الساحرة في ذلك الحي الراقي بالقاهرة، الزمالك. منذ أطلق الفكرة الأمير الفنان يوسف كمال أوائل القرن الماضي مرورًا بمئات الأسماء مثل: راغب عياد، محمود مختار، آدم طاهر، شادي عبد السلام، حسين بيكار... وغيرهم الكثير والكثير.

د. آدم في أوائل الأربعينيات من عمره. هو فنان ومُدرس للفن، وعلى قدر كبير من الثقافة والوسامة. فهو ذو ملامح أوروبية وَرِثَها عن أمه الإسكتلندية. بدأ حياته الفنية منذ الطفولة على يد والدته. كان والده قد عاش قِسطًا وفيرًا من حياته في أوروبا قبل أن يتزوج من والدته ويعود إلى مصر. حيث وُلِد آدم ونشأ في مرسم والدته. نشأ بين الألوان واللوحات. لعب بالألوان الزيتية قبل أن يتعلم الحبو! رسم أولى لوحاته قبل أن يتكلم. مما لا ينساه آدم أن أمه أخبرته أنه تأخر في الكلام، لدرجة أنها طافت به على العديد من الأطباء والذين أجمعوا كلهم أنه سليم وسيتكلم قريبًا. نصحوها بأن تتكلم معه كثيرًا، وأن تُسمعه الأغاني، ففعلت حتى بدأ يتكلم. وبالتدريج أدرك الطفل أن لسان أبيه يختلف عن لسان أمه، وأن عليه أن يتعلم لُغتين في هذه السن. أدى ذلك بالإضافة إلى ملامح الطفل الأوروبية المميزة لابتعاد أغلب الأطفال عنه. لم يلعب الكرة ولم يكن متفوقًا في الدراسة. فقط ظل يرسم. رسم حتى أبهر كل مُدرسي الرسم بمدارسه الابتدائية والإعدادية. في المدرسة الثانوية ملأت لوحاته ممرات المدرسة. أقامت له المدرسة المعارض. في إحدى المرات حضر وزير التعليم ذاته أحد هذه المعارض وأثنى على موهبة آدم وتوقع له أن يكون من أبرز فناني مصر في المستقبل.

أخيرًا دخل المعرض. كان اليوم الأول من المعرض مخصصًا للافتتاح ولكبار الزوار. أعطى ذلك لآدم انطباعًا بأن القاعات ستكون

خاوية إلا من الفنانين، الا أنه فوجئ بزحام كبير لم يكن يتوقعه. هو لا يحتمل الزحام ولا الضجيج. لقد تركهما خلفه في القاهرة ولم يتخيل أن يلاحقاه حتى في معرض فني كبير. بالنسبة له، فقاعة المعرض الفني كقاعة الأوبرا، يجب ألا يُسمع فيها سوى الهمس.

- هذه قاعة الفن الحديث.. أما القاعة الكبرى فخُصصت لكبار العارضين من أنحاء العالم.

هكذا جاء صوت «نيكول» بإنجليزية ركيكة تُشير إلى أنها أتت من إحدى دول شرق أوروبا. حيث تهرب الفتيات الجميلات من الفقر إلى الدول الأفضل اقتصادًا بحثًا عن وسيلة للوصول لمستوى أعلى. أدرك آدم، منذ نطقت «نيكول»، أنها لا تفقه شيئًا لا عن المعرض ولا عن الفن عمومًا. وعلى الرغم من جمالها فقد ازدادت رغبة آدم في التخلص منها والاستمتاع بالمعرض وحيدًا. كان يفضل أن يضع سماعتَيْه في أُذنيه ويعيش مع موسيقى «شوبان» أو «بيتهوفن» أو «موزارت». «وولفجانج أماديوس موزارت»، الذي يعشق آدم موسيقاه وما إن تذكَّره حتى لاحت له فكرة خبيثة.

- «نيكول» أين أجد أعمال صديقي «وولفجانج أماديوس»؟

- إممم، هل هو من الفنانين العارضين هنا هذا العام؟

- بالطبع، هو فنان نمساوي عظيم من «سالزبورج». عرفه العالم كله وهو في الخامسة والثلاثين فقط. أين أعماله؟

- هل تسمح لي بدقائق لأسأل؟

- بالطبع، اسألي وسأنتظرك هنا على أي حال.

ابتسم آدم وهو يراها تُهرول بعيدًا. ها قد حان وقت الاستمتاع بالفن والموسيقى معًا. وبالفعل، فقد بدأ آدم في الاستماع لإحدى سيمفونيات «موزارت» وألقى بنفسه بين أمواج العارضين و«كبار الزوار» حتى لا تعثر «نيكول» عليه مجددًا. سار يتأمل القِطَع الفنية المعروضة ويتابع أسماء الفنانين والمعارض. كلما مر بفنانة بريطانية تذكَّر والدته. في عيني آدم هي فنانة عظيمة ولكنها لم تحظَ بمثل هذه الفرصة أبدًا. لوحاتها تملأ منزل الأسرة بالزمالك. عُرِضَت لوحاتها على الملأ مرة واحدة كنوع من التأبين بعد وفاتها. حيث نظم آدم المعرض في حُب والدته، ولكنها تُوفيت قبل أيام قليلة من الافتتاح! أقام آدم المعرض لأمه وحضره أساتذة وطلبة الكلية.

سار وحيدًا، لم تفارقه تلك العزلة منذ كان طفلًا. عاش وحيدًا مع والديه. ثم مع والدته المُسنة بعد وفاة والده. وها هو يعيش بين اللوحات والمعارض والموسيقى الكلاسيكية وبعض قِطَع الجاز الكلاسيكية أيضًا. لا يهتم عادةً بما يهتم به الآخرون. لا يفهم في الكرة ولم يلعبها قط. بالنسبة له فالأهلي هو ذلك البنك العتيق، والزمالك هو ذلك الحي الجميل الذي يعيش فيه. لا يعرف شيئًا عن السياسة، وبالكاد يعرف اسم رئيس الجمهورية ووزير الثقافة فقط لمجرد كونه فنانًا تشكيليًا. لا يهتم بالطعام وقد ينساه بالأيام إذا ما انشغل برسم

لوحة جديدة. ومَن يرى نحافته يستطيع أن يصل لهذا الاستنتاج سريعًا. لا يقود السيارات ولا يعرف أنواعها. لم يبقَ له أي اهتمام مما يهم الناس عادةً إلا علاقته الغريبة المُعقدة بالدين وبالنساء.

أما الدِّين، فقد نشأ في بيت فيه دِينان، أبوه كان مُسلمًا متدينًا يحافظ على الصلوات ويصطحب آدم معه إلى المسجد في كل جمعة، وأمه كاثوليكية مُتدينة أيضًا بل وتصطحب آدم معها إلى الكنيسة صباح كل أحد. حتى أنه ظل يشعر بالرهبة نفسها في المسجد والكنيسة. شعر بالغموض والروحانيات نفسها مع صوت المؤذن وأصوات أجراس الكنيسة. تراتيل الشيخ الحصري وعبد الباسط لا تفارق أذنيه كما لا تفارقها ترانيم الكنيسة ليلة عيد الميلاد. آدم أحب وعبد الرب نفسه. يدعو بنفس الدعاء في الكنيسة وفي المسجد. فقط عندما توفي والده، أحس آدم بالرهبة وأن نصفه المسلم قد تركه ورحل. فما كان منه إلا أن ارتاد المساجد بكثرة. أطلق لحية طويلة وبدأ في حضور الدروس الدينية وسط دهشة والدته. لم تشأ أن تمنعه ولكنها توجست خيفة من اتجاهه، حتى انتهت هذه الفترة سريعًا في حياة المراهق آدم. انتهت تلك المرحلة بقصة طريفة. حيث حضر آدم أحد الدروس لشيخ سلفي حول بر الوالدين. يومها ظل الرجل يتحدث عن بر الوالدين وبخاصة الأم لساعتين من الزمن. فصَّل في الأمر وأكثر من التفصيل وعظَّم الأمر في قلوب الحاضرين. يومها اشترى آدم هدية لأمه في طريقه للبيت. اشترى لها شريطًا لموسيقى البيانو من عزف «ريتشارد

كلايديرمـان». فرحت أمه كثيـرًا للهدية وفرح هـو لفرحها. ظل يعتني بهـا كثيـرًا ويلاحقها بالهدايا حتى أن أمه سُـرَّت حين علمت أن شـيخ المسـجد هو مَن حثه على بر أمه. في الأسـبوع التالي كان الدرس عن تحريم الموسـيقى. وقد كانت الموسيقى جزءًا من حياة آدم وأمه. بعد الدرس المليء بالتهديد والوعيد ذهب آدم للشيخ وسأله:

- يا فضيلة الشيخ، ألم تأمرنا ببر الأم؟!
- يا بُنيّ لست أنا مَن أمَر، بل أمَرنا الله بهذا.
- لقد بررت أمي بما تحب وكما علمتني.
- خيرًا فعلت يا ولدي، جزاك الله خيرًا.
- لقد أهديتها شريطًا للموسيقى التي تحبها.
- أسـتغفر الله العظيم، لا بأس يا آدم يا ابني، إنك لم تكن تعلم، فلتوضح لأمك خطورة الموسيقى وتُب إلى الله.

يومهـا خـرج آدم محتارًا متـرددًا لا يعلم هـل ما فعل مُحببًا لله أم خطيئـة تسـتوجب التوبـة. أيُخبـر أمه أم يأخذ الشـريط أم ينسـى الأمر برمتـه؟ ظل علـى هذه الحيرة لفتـرة. قرر في النهايـة أن يتجاهل الأمر كله كأن لم يكن. لكنه لم يسـتمع لأي موسـيقى طوال ذلك الأسـبوع. حتـى جاء موعد الدرس الأسـبوعي الذي غيَّر حيـاة آدم ونظرته للدنيا والدين للأبد!

بدأ درس الشيخ السلفي الأسبوعي كالمعتاد بعد صلاة العشاء وصال وجال عن وجوب مخالفة اليهود والنصارى. تكلم عن عدم السلام عليهم وعدم جواز تهنئتهم ولا دخول معابدهم ولا كنائسهم. تكلم وتكلم حتى قامت ثورة شك وغضب وتوهان عظيم في رأس المراهق الصغير. ألم يأمرني ذلك الشيخ ببر والدتي؟ والآن يأمرني بألا أهنئها بعيدها؟ كيف أفعل الاثنين في نفس الوقت؟ ثم لماذا يتكلم هذا الشيخ عن المسيحيين بهذه اللغة العدائية أصلًا؟ ماذا لو عرف ذلك الشيخ أنني أصلًا أذهب مع أمي للكنيسة؟ غالبًا سيتهمني أنا بالكفر والفسوق.

بعد انتهاء الدرس ظل آدم منتظرًا ليسأل الشيخ الذي تجمع الناس حوله بعد الدرس. استمع إلى بعض الأسئلة وهاله ما سمع من إجابات. شعر بالرهبة من الرجل لأول مرة. هل هذا هو دينه فعلًا أم رأيه الشخصي؟ المهم أنه قرر أن ذلك الرجل مجنون، ومن الأفضل ألا يخبره أصلًا أن أمه مسيحية أو «نصرانية» كما يطلق عليهم الشيخ وهو يقولها باستحقار واستعلاء. قرر آدم وقتها أنه من الأسلم أن يذهب بلا عودة. لم يكن لآدم أعز من أمه وهو لن يحتمل أن يستمع لمجنون يُحقر منها أو من دينها أمامه.

تلك الواقعة مثلت نهاية علاقة آدم بدروس الدين في المسجد. خلال أسبوعين كان قد هذَّب ذقنه وقصَّرها إلى الحد الذي بقيت عليه بعدها. عاد ليستمع للموسيقى. منذ ذلك الحين اقتصرت علاقته

بالمسـجد علـى صلوات الجمعـة التي حافظ عليها منـذ كان طفلًا مع أبيـه. كما حافظ علـى الذهاب مع أمه للكنيسـة بانتظـام حتى تُوفيت. لـم يكـن آدم متدينًا. اكتفى ببعـض الصلوات على فتـرات. كان يدعو الله كثيرًا في خشـوع في سـره. طالما دعا الله ليغفـر لوالده ولوالدته. أخـذ من الدين الخُلق والدعاء ولم يكترث كثيرًا لكلام الشـيوخ حول الحلال والحرام، فقد اعتاد أن يستفتي قلبه.

فجـأة قَطَعت اسـتمتاع آدم بالموسـيقى واللوحات يـدٌ تربت على كتفه، التفت وهو ينزع السماعتَيْن من أذنيه:

- سـيد بديع أنا آسفة جدًّا، لقد عُدت لكتيب المعرض وراجعته مـرات عديـدة ولـم أجـد أثـرًا لأي فنان فـي المعرض اسـمه «وولفجانج أماديوس».

اللعنة على هذه الفتاة. أليس هناك في المعرض غيري الليلة؟

- لا بأس يا «نيكول»، لقد اسـتمتعت ببعض أعماله بالفعل. هو غير مشارك بالمعرض هذا العام. شكرًا لكِ. ليلة سعيدة.

ووضع السماعتَيْن في أذنيه مرة أخرى. فربتت على ظهره مرة أخرى:

- هل تسمح لي أن أصطحبك إلى القاعة الكبرى؟

- لا، شكرًا، سأذهب بنفسي. ليلة سعيدة.

- هل تريد أن تسأل عن أي فنان آخر في المعرض؟

صمت للحظة وابتسم بخبث. أحس بالذنب أنه كذب على فتاة بسيطة تؤدي عملها المطلوب منها. فكر في حيلة بسيطة ليخبرها أنه كان يمزح معها فقط.

- أين أعمال صديقي الرسام الكبير «فينسنت فيليم»؟ هل سمعتِ عنه؟

- لا، دقيقة واحدة سأراجع كتيب المعرض.

- «فينسنت فيليم فان جوخ»، ألا يُذكركِ هذا الاسم بأي شيء؟

- أعتقد أنني سمعته من قبل، سأسأل وأعود فورًا.

- «فان جوخ»؟ لا؟

- آسفة مستر «بديع». سأسأل وأعود فورًا.

- لا، لا شكرًا، سأجده وحدي، ليلة سعيدة لكِ يا «نيكول».

أخيرًا تخلص منها. بدت له كفتاة بلهاء. مجرد شكل بلا أي مضمون. علاقة آدم بالنساء كانت معقدة كعلاقته بالدين! بالنسبة لآدم، فالمرأة الحقيقية هي التي تشبه أمه: جميلة، مثقفة، لبقة، مُحبة، وقبل ذلك كله.. فنانة. لقد كانت أمه أول حب في حياته. نشأ بين يديها. لم يعجب، أو يحب أية فتاة طوال فترات صباه ومراهقته. عاش مع أمه بعد وفاة والده. لم ير مثلها. عندما ماتت تركت فراغًا كبيرًا داخله. فراغًا لم يفهمه ولم يعرف كيف يُعوضه. كان يومها مُدرسًا

بكلية الفنون الجميلة. وقتها بدأ يشعر بالنساء حوله. وقتها أدرك أن الكثيرات منهن يرغبن فيه. فجأة أحس كمَن رُد إليه بصره ففهم لماذا ظلت الكثيرات تتوددن إليه. لطالما تعامل مع الجميع من باب الأخوة والزمالة فقط. وقتها بدأ يفهم أنه شاب وسيم أوروبي الملامح يعيش وحده في شقة في الزمالك. فهم أن تلك المواصفات وحدَها كفيلة بإيقاع نصف مُدرسات الكلية وثلاثة أرباع الطالبات في حُبه. في البداية اندفع في علاقة عاطفية سريعة مع إحدى الفتيات. دخل في نزوة لم يفهمها لكنه خرج منها سريعًا وقد أدرك أن هذه الفتاة ليس فيها جزء من ألف مما يريد. جميلة كانت هي، كما بدت مثقفة، ولكنها لم تكن فنانة. كانت كمَن يتحدث لغة أخرى.

بعدها عرف آدم الحب الحقيقي مرة واحدة، في الثلاثين من عمره. وقتها فكر آدم لأول مرة وبجدية في الزواج. أخيرًا عثر على فتاة أحلامه. فنانة جميلة، التقاها في معرض فني في الزمالك. خفق قلبه حين رآها. تعرف عليها سريعًا. أحبها من أول نظرة، إلا أنه لم يستطع البوح بما حاك في صدره تجاهها. ولحُسن حظ ولوسامة آدم فقد وقعت هي أيضًا في حبه، وبسرعة. اندفعا بعدها في علاقة طويلة حتى ملأت حياة آدم وقلبه. تسللت بهدوء لأعماقه حتى صارت محور حياته. صار كالخادم المطيع وهو الذي كان بين النساء سيدًا يشير لإحداهن فتأتيه مُهرولة. اندفع في علاقته معها دون حذر. كل تجاربه السابقة أشارت إلى أنه هو نفسه معشوق للنساء، فما باله بمَن عشقها

قلبه هو! قضى معها أجمل سنتين من عمره منذ وفاة والدته. صارت هي وقته وتفكيره حتى قرر أخيرًا أن يتقدم للزواج منها. وبالفعل وكما يفعل الأوروبيون أراد أن يفاجئها في ذكرى بداية علاقتهم الثانية بشراء خاتم الزواج. لم يكن لديه أدنى شك في أنه قد اختار أجمل هدية لأجمل امرأة. دعاها على العشاء في أحد المطاعم الهادئة وحرص على إخفاء الخاتم. وبعد أن جلسا وهنأها وطلبا الطعام. بدا عليها الارتباك وطلبت أن تحدثه في موضوع. وإذا بها تُحطم أحلامه وآماله كلها على خبر هبط على قلبه كصخرة كبيرة وقعت على نملة صغيرة فحطمتها تمامًا في لحظة. فقبيل لحظات من إظهار آدم للخاتم الماسي الذي كلفه نصف ما يملك. فاجأته حبيبته الفنانة أنها تستعد للسفر والزواج من شاب مصري تعرفه عائليًا منذ طفولتها، هاجر لأوروبا وأصبح مليونيرًا، ولما أراد الارتباط رشحتها له عائلته، فتحدث مع أهلها، ومعها.. فوافقت. لم يستوعب آدم ما كانت تقوله. ما قالته لم يخطر له على بال أبدًا في أسوأ الفروض. وماذا عنه وعن حبهما؟ تلعثم وألجمته الصدمة وسكت تمامًا. لم يستطع أن يرد. ظل الخاتم في جيبه. قاوم بشدة لئلا تسقط منه أية دمعة أمامها. قضى آدم شهورًا في صدمة. المصيبة أنه ظل كالمدمن يفكر فيها ويتذكر أيامه معها. أحيانًا يقول لنفسه إنه قد يظل على علاقة جيدة بها ويهنئها على الزواج من قلبه. وأحيانًا أخرى يراها على هيئة الوحش الذي نهل من عمره ومشاعره وتركه حين وجد فريسة جديدة. لقد فعلت فيه الكثير، وأخطر ما فعلت أنها أول من حطم تمثال ثقته في نفسه. لم يظن أن

يأتـي عليه اليـوم الذي يزحف هو خلف امرأة وتتركـه بعد أن اعتادها. لـم يـذق الطعام لأيـام ولم يعرف أحدٌ أبدًا السـر وراء ذلـك الاكتئاب المفاجئ. شـعر بالضبط كالمُدمن الذي بدت عليه أعراض انسـحاب المخدر من دمه. اشتاق إليها في ليالٍ كثيرة ولـم يكن هناك ما يمكن أن يفعله بعد أن رحلت بالفعل وتزوجت.

قرر آدم وقتها ألا يقع في فخ الحب مرة أخرى. قرر لسنوات طويلة أن يعيش وحيدًا. وبالفعل أغلق قلبه المكسـور لسـنوات طويلة. كلما خفق قلبه عاد عقله ليُذكره بما قد تئول إليه الأمور فيرتدع ويعود راهبًا فـي صومعتـه مُغلقًا كل بـاب. ومع عـودة بصيرته إليه، وبعد سـنوات طويلـة بـدأ تدريجيًّا يلاحظ تقرب النسـاء منه. كم مـن فرصة ضاعت عليه ليتقرب من نساء جميلات وجديرات بحبه، لكنه لم يَرَهُن أصلًا. بعد سنوات طويلة وعلى مشارف الأربعين بدأ تدريجيًّا يشعر بالوحدة واشتاق للشعور بالحب مرة أخرى. اشتاق لفنانة من الداخل والخارج مثـل أمـه. جميلة ومثقفـة مثل أمـه. تفهم في الفـن وتُقـدّره وتعمل به أيضًا. وقبل كل ذلك تحبه طوال عمرها مثل أمه رحمها الله. مع مرور السـنوات ترسَّـخ لديه قناعـة تامة أنه مـن الصعب أن يجد هـذه الفتاة فـي مصـر. فقد كان يرى انحـدارًا، بل وانهيـارًا عامًّا للـذوق في مصر لأسـباب كثيرة، مما جعله يشـعر بأن امرأته ستكون كأمه، أوروبية. من أبرز الأحـداث التـي أقنعتـه بتلك الفكـرة علاقته بزميلتـه في الكليـة د. سلوى مجاهد. تلك قصة أخرى سيأتي ذكرها لاحقًا.

الخلاصة أن رحلات آدم الفنية لمختلف المعارض حول العالم جعلته يعرف تحديدًا المرأة التي يحتاجها. ظل طويلًا كمَن يعرفها ولا يجدها. كلما سافر بحث عنها. لم يفقد الأمل يومًا. ها هو يستمع لموسيقى حالمة رومانسية بينما عقله يتساءل، هل سيراها الليلة أم سيتأجل اللقاء لزمان ومكان آخرَيْن؟

أخيرًا دخل آدم القاعة الكبرى حيث توجد الأعمال الأكثر أهمية. لم يشعر أن المعرض به جديد هذا العام. أحس بأن معظم العارضين هم أنفسهم مَن عرضوا أعمالهم في المعرض ذاته من العام السابق. حتى أنه كاد أن يجزم أنه رأى بعض القِطَع من قبل. أكمل سَيره وأخرج هاتفه المحمول واختار بعض قِطَع البيانو التي كانت تعشقها أمه لـ«ريتشارد كلايدرمان». تذكر أنه أهدى نفس القطعة لأمه في شريط الكاسيت منذ سنوات طويلة. ثم عاشت أمه لترى أسطوانات الموسيقى الصغيرة. ولكنها لم يَطُل بها العمر لترى ذلك الجهاز الصغير الذي يحمل ساعات وساعات من الموسيقى. نفس هذه الموسيقى كانت تحتاج لمكتبة تحتل جدارًا كاملًا في المنزل! صار الآن يحمل المكتبة كلها في جيبه. ترحَّم آدم على أمه التي ظلت دائمًا في عقله وكيانه.

كاد آدم ينتهي من القاعة الكبرى وقد ملَّ من ندرة الأعمال المميزة ومن الزحام. قرر أن يتراجع إلى فندقه الفخم على أن يكمل المعرض في اليوم التالي. لعل الزوار العاديين في اليوم التالي يكونون أقل عددًا

مـن كبار الـزوار. في اللحظة التي اتخذ فيها قرار الانسـحاب اسـتدار فوقعت عيناه على لوحة زيتية كبيرة ألوانها ملفتة للنظر جدًّا، رأى عملًا عظيمًـا بحـق. بحركة تلقائية وجد نفسـه ينسـى المعرض كلـه ويتجه ببـطء لهذه اللوحة يتأملهـا ويتفحصها. اللوحة لميدان واسـع فيه برج قديم كتلك الأبراج التي تحمل أجراس الكنائس. البرج يشـق السـماء الممتلئة بسحب وغيوم أضافت رهبة كبيرة للمشهد. بينما امتلأ الميدان الواسع بالبشر؛ مما أعطى اللوحة حركة وحياة. كانت لوحة زيتية كبيرة ومميـزة. وقف آدم لدقائق على بُعد خطوات من اللوحة. وما إن زالت الرهبـة من قلبه بدأ يقترب من اللوحة حتى كاد يلامسـها. خلع نظارته الطبيـة وهو يمعن النظر في كل زواياها. تفحصها حتى وصل للتوقيع، ظل قلبه ينبض بسـرعة. رأى توقيعًا ولكنه لم يتبين منه الاسـم. تراجع للخلـف باحثًا عن اسـم الفنان أو اللوحـة. عادةً ما يكـون هناك بطاقة تعريفية صغيرة تحت اللوحة باسـمها واسـم صاحبها. أدار عينيه حول اللوحة وهو يسـتمع للموسـيقى الرائعة، ثم نظر يمينًا ويسارًا، وتراجع أكثر للخلف لعله يجد أية إشارة أو معلومة عن اللوحة أو صاحبها.

مازالـت موسـيقى بيانـو «كلايدرمـان» تعلـو فـي أذنَي آدم. شـعر بنشـوة حقيقية حين انسـاب الفـن الراقي ليملأ أذنيه وعينيـه معًا. تلك هـي اللحظات التي يبحث عنها دائمًا. ابتسـم آدم بينما ظل يبحث عن البطاقة التعريفية ليتعرف على هذا الفنان الرائع. لحظات ممتعة انتهت

سـريعًا. فأثنـاء عودته للوراء وهو يبحث عن اسـم الفنـان اصطدم آدم بشخص خلفه فوقعت السماعة من أذنه. أحس أنه اصطدم بفتاة. أحس فجأة برائحة عطرها الجميلة تملأ أنفه مما زاد من جمال تلك اللحظة. انتزع السـماعة الأخـرى من أذنه ليبادر بالاعتذار. وقبل أن يسـتدير أو يعتذر جاءه صوتٌ ملائكيٌّ جميلٌ بإنجليزية ذات لُكنة غريبة:

- أعتقد أنك تبحث عني!

4

بعد عدة أيام - القاهرة

عاد آدم من دبي بشعور عجيب. يبدو أنه وقع في الفخ مرة أخرى. لقد أُعجب بتلك الفنانة الإيطالية الساحرة. لقد كانت كل ما يحلم به. كان كل شيء مثاليًا ومنطقيًا، إلا أنه لا يزال يخاف من فكرة الحب نفسها. هل يكتم مشاعره هذه المرة كما فعل سابقًا وخسر؟ أم يتكلم معها بصراحة ووضوح؟ لقد أحس أنها أيضًا أُعجبت به. لقد تبادلا الحديث وأرقام الهواتف والبريد الإلكتروني. بحث عنها في كل مواقع التواصل. بحث عن أعمالها، وما إن رأى ما صنعته من فن حتى انفتح قلبه على مصراعيه نحوها. ذهب إليها تقريبًا كل يوم من أيام المعرض. حتى أنه دعاها للعشاء في ليلته الأخيرة بدبي ولم ترفض. قضى ليلة شعر فيها بآدميته ورجولته. شعر أن ما يبحث عنه موجود بالفعل. أن ما يريده ليس دربًا من دروب الخيال ولا أسطورة كطائر العنقاء. يومها أدرك أن الإنسانة التي يبحث عنها ليست كشخصيات مجلات الأطفال التي لا وجود لها. حتى وإن لم يظفر بهذه الإيطالية الجميلة فقد أدرك فقط أن الله أرسل له إشارة. ولم ينسَ آدم أبدًا تلك الفنانة الجميلة. ظلت تطارده في أحلامه ورسائل محموله وبريده الإلكتروني حتى انهارت قواه وأسلم نفسه للحب للمرة الثانية.

أمام هذا الكم الهائل من الأفكار التي ازدحمت في رأسه، ولأول مرة أراد آدم أن يتحدث مع صديق. ليس لديه أي صديق مُقرب يُخبره عن تلك الفتاة أو يستشيره. أخذ يفكر ويتذكر كالتاجر الذي يبحث في دفاتره القديمة. عاد للوراء بحثًا عن أي شخص عرفه يومًا من الخبراء في أمور الحب والنساء. وبعد جهد كبير وتفكير طويل وبحثٍ تذكَّر زميل الدراسة القديم عبد القادر مراد. لم يكن آدم يريد أن يستشير أحدًا. كل ما أراده أن يحكي عن حبيبته فقط. لم يكن لديه أصدقاء مقربون. فقط زملاء عمل وبعض المعارف. شعر بالحنين لأصدقاء الجامعة، وكان أقربهم منه وقتها عبد القادر.

عبد القادر ظل معروفًا أيام الكلية أنه زير نساء. كان لديه فهم عميق لما تريده كل البنات. في الوقت الذي كان كل زملاء عبد القادر وآدم يتصببون عَرَقًا حين يلقون تحية الصباح على إحدى جميلات الكلية، كانت الجميلات أنفسهن يتسابقن من أجل كلمة مع عبد القادر. لم يكن عبد القادر وسيمًا كآدم إلا أن شيئًا ما جذب الفتيات نحوه. لم يستطع آدم أن يفهم ذلك الشيء أبدًا. لطالما شعر بالتعجب من قدرة عبد القادر على الوصول سريعًا لقلوب جميلات الكلية. حتى غير الجميلات منهن، كُن يتقربن منه ويعتبرنه أخًا لهن ويسعين سعيًا حثيثًا للتودد إليه. بعد الكلية مباشرةً ظل آدم على علاقة وثيقة بعبد القادر، حيث ظلا يرسمان معًا، ويستمتعان معًا بأمسيات هادئة على أنغام أم كلثوم في أحد مقاهي الزمالك. حتى تزوج عبد القادر. ورويدًا

رويدًا انسحب من بين رفاقه. آخر ما عرفه عنه آدم أنه صار موظفًا بوزارة الثقافة ثم انقطعت أخباره.

منذ عدة سنوات عثر آدم عليه في أحد مواقع التواصل الاجتماعي، إلا أنه لم يستطع أن يلتقيه أبدًا. يومها بعث له آدم برسالة عبر الموقع وجاءه الرد بعدها بثوانٍ وفيه رقم هاتف عبد القادر. لم ينتظر آدم بل هاتفَ عبد القادر في لحظتها. ها هو صوته المَرِح على الهاتف. لم يتغير أبدًا. عرف آدم منه أنه الآن مدير لمتحف «محمد محمود خليل وحرمه» بالجيزة. تعجب آدم جدًّا لأنه دائمًا ما يرتاد هذا المتحف الرائع ولم يقابل عبد القادر هناك حتى ولو صدفة. أخبر آدم عبد القادر أنه يحتاج لرأي خبير في الحب والنساء لأنه حتى اللحظة لا يفهم النساء أو طباعهن الغريبة. رحَّب عبد القادر بشدة بعد أن أكد أنه كالعادة جاهز في أي وقت، وأن الزواج زاده خبرة، حتى أنه الآن صار خبيرًا عالميًّا في المسائل العاطفية والنسائية والزواجية أيضًا. يومها وعد آدم عبد القادر بزيارته في اليوم التالي مباشرةً في مكتبه بالمتحف.

في صباح اليوم التالي كان على آدم أن يتجه مبكرًا للكلية. فعليه أن ينتهي من إلقاء محاضرة لطلبته. كما كان عليه أيضًا أن يتجنب بأي شكل لقاء د. سلوى مجاهد!

د. سلوى، هي وكيلة الكلية، على الرغم من أنها أصغر بسنوات قليلة من آدم! بل إنها أيضًا كانت تساعد العميد مباشرةً، بل وتنوب عنه أحيانًا. أغلب البعثات العلمية والرحلات التي تتكفل بها الكلية تمر عبر مكتبها. دعوات حضور والمشاركة في أكبر المعارض الفنية تخرج

من مكتبها. اكتسبت سلوى كل هذه الأهمية لكون والدها عميدًا سابقًا لنفس الكلية. كان أستاذًا للعميد الحالي، وبما إنه ساعده حتى اعتلى المنصب، فقد كان تقريبُ ابنته أبسطَ رد للجميل. آدم رآى في ذلك فسادًا واضحًا. لم يشعر يومًا أن سلوى فنانة أصلًا، فضلًا عن أن تمارس التدريس لطلبة الفنون الجميلة. في البداية تعامل معها في حدود العمل وبلباقة شديدة. حتى انفصلت سلوى عن زوجها. لم يعرف آدم أي شيء عن الموضوع في البداية حتى دعته سلوى مرة لمكتبها وأخبرته بأمر انفصالها. تعجب جدًّا من حديثها معه في ذلك اليوم. إلا أن شكوكه تأكدت، فقد بدأت د. سلوى في إلقاء شِباكها عليه. تجاهل آدم الأمر مرة بعد مرة حتى كادت تُصرح له بإعجابها به في إحدى المرات.

لم تكن سلوى بالجميلة أو الدميمة. هي امرأة عادية بالنسبة لآدم. لم يفكر أبدًا فيها كأنثى أو كفنانة. لقد كانت علاقته بها معقدة. فقد ظل يحتاجها بشدة من أجل أن يسافر ويشارك في المعارض والمؤتمرات الفنية. كما أنها تظل شخصية مهمة جدًّا حتى في حصوله على ترقياته العادية بالكلية. وقتها كان آدم على وشك الحصول على منصب رئيس القسم. على الرغم أن العمل الأكاديمي لم يعنِ شيئًا لآدم، إلا أنه أراد أن يرأس القسم بشدة. بالنسبة لآدم فرئاسة القسم منصبًا فنيًّا لا إداريًّا. أراد آدم من خلال ذلك المنصب تخريج دفعات من الفنانين التشكيليين القادرين على الوصول للعالمية. أراد أن يجعل من القاهرة عاصمة فنية كالبندقية وباريس. ومع اقتراب وصوله لرئاسة القسم أدرك أن

عليه أن يمسك العصا من منتصفها. عليه أن يتجاهل سلوى ويبعدها عنه عاطفيًا، وفي نفس الوقت عليه ألا يصدها بحدة فيتجمد مستقبله الوظيفي كله. من أجل كل ذلك حرص على تجنب رؤيتها أو الثرثرة معها بالكلية. كثيرًا ما تسلل لمكتبه المجاور لمكتبها. إن أمسكت به يومًا، تظاهر بالاستمتاع بالحوار معها والذي قد يكلفه نصف ساعة أو أكثر من وقته. وبالطبع فقد كانت هي الطرف المتحدث طوال هذه المدة، أما هو فيكتفي بالاستماع والتظاهر بالاهتمام.

عزم آدم على الاستعانة بصديقه خبير النساء عبد القادر ليحكي له عن أميرة قلبه الإيطالية. كما أراد أن يسأله النصح في كيفية التخلص من سلوى دون أن يخسر عمله. كعادته كل صباح، سار آدم مشيًا من بيته لمقهى مجاور، حيث اشترى قهوته الصباحية المفضلة. احتسى القهوة بينما ظل يستمتع بالموسيقى الكلاسيكية التي انسابت مباشرة عبر السماعتَيْن إلى أُذنيه مانعةً وصول أبواق السيارات وضوضاء الشارع. فسار وسط الزحام بينما ظل عقله في مكان آخر تمامًا حتى وصل لكليته مبكرًا كالعادة. بعد محاضرة رائعة، خرج آدم من القاعة عازمًا أن يستقلَّ سيارة أجرة إلى المتحف ليقابل صديقه. تسلل سريعًا من القاعة. دخل دورة المياه ووضع السماعتَيْن في أذنيه ونظر إلى الخارج مرتابًا. عليه التأكد من أنه غير مراقب وأن سلوى لن توقفه. تجنب المرور من عند مكتبها. مر من بوابة الكلية وشعر بالارتياح. هنا أخرج السماعتَيْن الصغيرتين من أذنيه ونظر في الشارع ليبحث عن سيارة أجرة. أشار

لإحدى السيارات، لكن السائق تجاهله تمامًا. انتظر قليلًا، ها هي سيارة أخرى. لم تقف أيضًا. نظر في ساعته وهو يلعن حظه. رفع عينيه للشارع فإذا بسيارة صغيرة تقف أمامه مباشرةً وفيها د. سلوى.

- آدم، تعالَ أوصلك.
- لا، لست ذاهبًا للبيت، عندي مشوار.
- لا توجد مشكلة، هيا اركب.
- أنا ذاهب للجيزة.
- رائع، تعالَ معي في طريقي.

تعجب من إصرارها. هو يعلم أنها تُقيم بمدينة نصر، فكيف أصبحت الجيزة فجأة في طريقها؟ لم يشأ أن يعارضها. على العموم فقد وجد وسيلة تنقله فورًا للمتحف حيث يلتقي بصديقه ويستشيره في التخلص منها. في الطريق فتحت معه موضوع الترقية. عرف منها أنها رشحته لرئاسة القسم. العميد طلب منها أسماء ثلاثة أساتذة. تقدمت هي بأسماء أقدم ثلاثة أساتذة في القسم. الأقدمية مهمة ولكنها ليست المعيار الوحيد في الاختيار. عندما سألها عن الاسمين الآخرين لم تشأ أن تخبره أولًا إلا أنها عادت وأخبرته في دلال أنها لا تستطيع أن تُخفي عنه أي سر. أخبرته أن الاسمين الآخرين هما د. علا، وهي الأقدم بين الثلاثة، ود. عماد. شعر آدم بالارتياح فهو الأقدم والأكفأ بلا شك. هو أيضاً الأكثر مشاركةً في المعارض والمحافل الدولية والأكثر حصولًا

على جوائز عالمية. كما أنه محبوب من زملائه ومن طلبته أكثر بكثير من د. عـلا، ود. عمـاد. الكل يعلم كل ذلك. أكدت له سـلوى نفس الكلام عندمـا قالت له في دلال واضح إنها رشـحته هو من بين الثلاثة بلا أدنى شك في اختياره لرئاسة القسم بعد خروج الرئيس الحالي للمعاش.

- لقد أضفتك في «فيس بوك»، ألم ترَ طلب الإضافة؟

- هـا؟ غريبة، لا لم أره. عـادةً لا أقبل طلبـات إلا من أصدقائي المقربين.

- طبعًـا، وأنا أيضًا لا أطلـب الصداقة إلا من أصدقائي المقربين جدًّا جدًّا.

قالتهـا وربتت بيدهـا على آدم في حركة مفاجئـة، بينما انكمش هو في الكرسـي ولـم يرد. لم يعرف مـا يقول لها. ليت عبـد القادر يخبره كيف يرد عليها. بالطبع فقد رأى طلب الصداقة الذي تقصده، وعرفها رغـم أن صورتهـا تختلف كليًّـا عن الواقع. تبًّا لهـذه المواقع، لا بد أن سـلوى قضت عطلة كاملة بين صالونات التجميل والشعر والجلد. ثم تسوقت لأسبوع كامل قبل أن تعثر على مصور محترف استطاع التقاط 500 صـورة لهـا على الأقـل حتى عثـر على صـورة أو اثنتيـن قابلتين للنشر. وبالطبع فبرامج إصلاح وتعديل الصور أضافت بعض الرتوش وحذفـت بعض الزوائد وهذَّبت الشـكل والحجـم فخرجت صورتها علـى «فيس بـوك» بهذا الشـكل. لقد تمنـى أن يرفض طلـب الإضافة

إلا أنـه فضَّل تجاهله. كانا قد وصلا قريبًا من المتحف فطلب منها أن توقف السيارة ففعلت. شكرها وهو يغادر السيارة بسرعة.

- لا تنسَ طلب الإضافة.
- طبعًا طبعًا، بالتأكيد لن أنسى.
- وطبعًـا لن أوصيك بـأن تـرى صـوري وتُعلـق عليهـا كمـا يحلو لك.
- أكيد، ضروري.
- منتظرة تعليقاتك وإعجاباتك.

ابتسـم آدم وهـو يُهرول مبتعدًا. تمنى وقتها أن يمسـح حسـابه كله. بالطبع فعليه أن يقبل طلبها، بل وألا يُغضبها بأي شكل من الأشكال في ذلك الوقت الحرج حتى لا يخسر رئاسة القسم الذي طالما حلم به.

على بـاب المتحف اشـترى آدم تذكرة عاديـة كأي زائر للمتحف. حـرص أولًا على الصعـود للطابق الأول ليشـاهد لوحـة «فان جوخ» الرائعة «آنية وزهور» المعروفة أيضًا باسـم «زهور الخشـخاش» والتي احتلـت حجرة خاصة لقيمتهـا. كما حرص على تأمـل بعض لوحات «بـول جوجـان»، وبخاصة لوحتـه الشـهيرة «الحياة والمـوت» والتي احتلـت حجـرة خاصـة هي الأخـرى. آدم يعشـق ذلك المكان بشـدة ويحفظ تمامًا كل ما بالمتحف من لوحات وتماثيل وقِطَع فنية.

بعـد هـذه الجولة السـريعة عاد مرة أخـرى للـدور الأرضي حيث بحـث عـن أي شـخص يدله علـى مكاتـب الموظفين فلـم يجد. ظل

يمشي ودخل من مكان لآخر ولم يعثر على شيء. حاول الاتصال بعبد القادر إلا أن هاتفه ظل خارج نطاق الخدمة. قادته قدماه لسلم هابط إلى طابق سفلي. أحس كأنه مُتطفل تسلل لقصر «دراكولا» المهجور وليس زائرًا محترمًا في متحف. أخيرًا وصل آدم للمقر الإداري لأول مرة. لم يعرف أبدًا أن المتحف فيه مكاتب كثيرة لموظفي وزارة الثقافة. سأل عن مكتب المدير فأجابوه أن «المديرة» غير موجودة. تعجب آدم عندما سمع أن للمتحف «مديرة» وأنها غير موجودة. سأل آدم عن عبد القادر بالاسم، فعرف أنه مدير أمن المتحف فقط، وليس المدير العام كما فهم من عبد القادر.

على باب عبد القادر استوقفته سكرتيرة صغيرة السن وجميلة إلى حد ملحوظ. لاحظ آدم أنه على الرغم من جمالها الواضح إلا أنها بسيطة المظهر بوضوح أيضًا. بدا له أنها من أسرة شديدة الفقر، ملابسها تبدو بالية، ترتدي حذاءً قديمًا يكاد يتمزق في قدميها.

- الأستاذ عبد القادر مدير المتحف موجود؟
- حضرتك تقصد مدير أمن المتحف؟
- تقريبًا، الأستاذ عبد القادر مراد.

طلبت منه الانتظار حتى تستأذن له. لاحظ أيضًا أنها غابت بالداخل لعدة دقائق زائدة عن الحد الطبيعي. عادت وسمحت له بالدخول.

5

لم يرَ آدم عبد القادر منذ ما يقرب من عشرين عامًا. صحيح أنه ظل يتابع صفحته على «فيس بوك» مؤخرًا، ولكن عبد القادر نفسه لم يُغير صورتـه منـذ أن تزوج. عندمـا رآه أخيرًا بدا له أنه لم يتغيـر كثيرًا. فقط زاد وزنه وانتشرت بعض الشعيرات البيضاء هنا وهناك. بعد الأحضان والقُبلات والمقدمات التقليدية، وقبل أن يبدأ آدم في استشارة صديقه صاحب الخبرة باغته الأخير بسؤال مفاجئ:

- ما رأيك في سوسو؟
- سوسو؟ مَن تكون سوسو؟
- سُعاد، السكرتيرة! ألم تلفت نظرك أبدًا؟
- آه، نعـم، هـي جميلة فعـلًا.. ولكن دعنـا منهـا الآن، كم أريد الحديث معك، عندي الكثير من الحكايات والأسئلة.

وبـدأ آدم بحكايته مـع الفنانـة الإيطالية. وأطال الـكلام والوصف حتى ظل يحكي أكثر من سـاعة. وبعدما سـمع عبد القادر كل الحكاية وهو غارقٌ في مقعده الوثير، اعتدل فجأة وقاطع آدم:

حبيبي آدم، اهدأ قليلًا، أما هذا الموضوع فبسيط ولا يحتاج كل هذا الشرح. أنت تحب هذه الفتاة، ببساطة ووضوح وصراحة حاول أن تقابلها مرة أخرى، وكن صريحًا معها. مثل هؤلاء الأجانب لا يفضلون التلميحات. توكل على الله وصارحها الآن مباشرةً. الآن بما أنك غارق في الحب بهذا الشكل.. ما هو الموضوع الآخر؟

- د. سلوى!

- مَن هي د. سلوى هذه؟

- هذه قصة أخرى طويلة.

- لم يعد هناك وقت. يجب أن أغلق المتحف بالشمع الأحمر وأغادر بعد عدة دقائق، لِمَ لا نتقابل معًا لنستمتع بأم كلثوم على نفس المقهى الذي طالما ارتدناه معًا، أتَذْكُره؟

- نعم، ولكن للأسف لم أعد أذهب إلى هناك بعد أن تبدل الحال فأصبحت الكلمة العليا هناك لمباريات الكرة، وبعض الأغاني الشعبية العجيبة التي لا أعرف حتى مَن يغنيها.

- بسيطة، لنتقابل في بيتك، ستكون فرصة عظيمة لي للخروج من البيت الليلة، عندي الآن حجة عظيمة لأفلت من الحكومة في البيت وأخرج لمقابلتك اليوم. وقد أتحجج بك وأخرج طوال الأسبوع.. نورتني يا أبو آدم.. والله زمان!

سلَّم آدم على عبد القادر وكاد يغادر إلا أنه تذكر شيئًا فجأة فعاد مرة أخرى:

- عبد القادر، أنت قلت لي إنك مدير المتحف، بينما قالت لي السكرتيرة...

- سوسو؟

- نعم، سوسو، قالت لي إنك مدير الأمن، ما علاقتك بالأمن؟

- وما الفارق؟ أنا هنا الكل في الكل. أنا مسئول عن القِطَع الأصلية كلها. أنا أفتح وأغلق المتحف. المديرة تقريبًا لا تأتي، أنا هنا المدير الفعلي.

اتفقا على اللقاء في التاسعة مساءً. وعاد آدم لبيته وهو يفكر فيما قاله له عبد القادر. لقد حل له نصف اللغز الأسهل. أما سلوى فهي النصف المعقد. كعادة آدم ظل يستمع للموسيقى الكلاسيكية في أذنيه أثناء صعوده لسلَّم بيته القديم بالزمالك. فجأة صدمه شخص أخرجه من بين موسيقاه وأفكاره. ذلك جاره العجوز شكري، مالك البناية كلها والذي يقطن أسفل شقة آدم.

- يا أخي ركز، لقد أصبحت رجلًا كبيرًا ولا تزال تجري كالأطفال على السلم. لم أعد أحتمل.

- أنا آسف يا أستاذ شكري.

- آسف آسف، كل ما آخذه منك هو الأسف، متى ترحل وتترك لي هذه الشقة؟ يبدو أنني سأموت وأنت جاثم على صدري هنا.

- وهل ضايقتك يا عمي شكري؟

- أولًا أنا لست عمك، وثانيًا نعم ضايقتني. طوال اليوم تركض صاعدًا أو هابطًا. موسيقى غريبة تسمعها ليلًا، وفي النهاية تدفع لي عشرة جنيهات إيجارًا لبيت مثل ذلك في الزمالك؟

- يا عم شكري أنا ولدت هنا وعِشت عمري كله هنا، وليس لي مكان غيره. ثم إنني لست بالمليونير ولم أرث عن أهلي إلا بعض اللوحات.

تجاهل آدم لعنات شكري وصعد مهرولًا من جديد. على باب بيته وكالعادة تجمعت مجموعة كبيرة من القطط التي كانت تقيم على باب بيته. لطالما اعتنى آدم بهذه القطط ويشتري لها الطعام. ورث آدم حبه للقطط من أمه. لولا أنه دائم السفر لاقتنى من هذه القطط الكثير. ربت آدم على ظهور القطط التي تجمعت حوله في فرح كمن يطلب منه المزيد من الماء والطعام. اندفع داخل بيته بسرعة، وعاد للقطط بما لذ وطاب من طعام وماء. مرة أخرى أحس آدم فجأة بالحنين لأمه، أخرج صورتها من حافظته وأطال النظر. لو كانت معه الآن لاستشارها ولأشارت عليه. ساعتها نام آدم طويلًا.

استيقظ آدم فوجد الشقة غارقةً في الظلام. عقارب الساعة تشير للثامنة والنصف. ارتدى ملابسه بسرعة استعدادًا لاستقبال ضيفه

الـذي لـم يزره منذ عشـرين سـنة. أثناء الانتظار وكعـادة آدم، بحث في أسـطواناته عن موسيقى تناسب ما يشـعر به. قلَّب معظـم الأسطوانات حتـى وقعت عيناه على أسـطوانة لـم يسـتمع لها منذ فتـرة طويلة. ظل ينظر لفترة بحثًا عن اسـم إحدى المقطوعات ثم وضع الأسـطوانة في الجهاز وانسـابت موسـيقى التانجـو الحزينة من عزف آلـة الكمان مع البيانو. اسـترخى آدم على مقعده المفضل في شـرفة بيته. تلك الشرفة الجميلة المليئة بالأزهار والنباتات والتي تطل على أحب شـارع لقلبه فـي أحـب حي لقلبـه في القاهـرة: الزمالـك. وأغمض عينيه وانتشـى بالموسيقى الجميلة الحزينة.

أغمض عينيه وظـل يفكر وأحس بالدمع الحار يملأ وجهه، وكلما انتهـت القطعة أعادها مرة أخـرى. لم يعكر صفو هذه اللحظة الجميلة إلا قـرع البـاب. مسـح آدم عينيه وفتح البـاب. ما إن دخـل عبد القادر ورأى آدم حتى سكت ونظر حوله: ضوء خافت وموسيقى حالمة.

- هل جئتُ في وقت غير مناسب؟ هل أنت وحدك؟
- وحدي بالتأكيد، كالعادة.
- ما هذه الموسيقى الجميلة. أعتقد أنني سمعت هذه القطعة من قبل. هل هي موسيقى كلاسيكية؟
- لا، هـذه مـوسـيقى لأغنيـة تـانجو أرجنتينيـة قـديمة حـزينة. لا تتصور لأي مدى أشـعر بهذه الموسيقى، بكلمات الأغنية، حتى باسمها.

- وما اسمها؟

- ترجمة الاسم بالعربية هو «بفارق رأس».

- «بفارق رأس»! ما هذا الاسم العجيب؟! وكيف تقول إنه يعبر عما تشعر به؟!

- «بفارق رأس» هو مصطلح شائع في سباقات الخيول. كما تقول كلمات الأغنية القديمة. عادةً ما يكون هناك فرس سباق أصيل، يعرف الجميع أنه الأفضل بلا شك. فببساطة تراهن عليه بكل ما لديك. ويبدأ السباق، ومنذ اللحظة الأولى فجوادك في المقدمة. وفجأة قبيل خط النهاية يبطئ الجواد متثاقلًا منتشيًا بفوز لم يتحقق بعد. فيباغته الحصان التالي ويكسب السباق بفارق رأس واحدة. عند عودة الجواد بعد السباق يخيل إليك أنه ينظر إليك ويبتسم ساخرًا كأنه يقول: لم يكن يُفترض أن تُراهن عليَّ من البداية. شعور بالحسرة، بالإحباط، بالانكسار. هل جربت ذلك الشعور من قبل؟

- بالطبع كثيرًا، فأنا زملكاوي وأعرف هذا الشعور جيدًا. ماذا عنك؟ كيف ومتى شعرت بأنك خسرت «بفارق رأس»؟!

- لم يفارقني هذا الشعور أبدًا، عندما ماتت أمي قبل أسبوع من أول معرض فني لها في حياتها أحسست أنني خَسِرت «بفارق رأس». عندما منعتني إدارة الكلية من السفر لتمثيل

بلدي في مسابقة عالمية قبل السفر بيوم لأن هناك شخصًا آخر لا يستحق ولكن له علاقات مهمة أراد المشاركة بدلًا مني فقد خسرت «بفارق رأس». عندما قررت أن أتزوج الإنسانة الوحيدة التي خفق لها قلبي، فإذا بها تخبرني أنها ستهاجر وتتزوج من شخص مناسب فقد خسرت «بفارق رأس».

أوقف آدم الموسيقى وأضاء أنوار البيت. ذهب مع صديقه لإعداد الشاي على أنغام «أنت عمري» لأم كلثوم. بعدها جلسا معًا في الشرفة مرة أخرى وبدأ آدم يحكي لعبد القادر عن مشكلته مع د. سلوى. كيف أنه لا يطيق سماع صوتها ولكن مستقبله الوظيفي ووضعه في الكلية يتوقف على رأيها فيه. هذه المرة لم يطل آدم الشرح عكس المرة السابقة. لم يكن الموضوع شيقًا بالنسبة له.

- ياااه يا آدم، فارق كبير جدًا بين ما أراه في عينيك الآن وما رأيته وأنت تحكي عن حبيبتك.

- حقًا! كيف؟ أنا لم أشعر بأي فارق.

مستحيل، عندما حكيت لي عن تلك الإيطالية الجميلة لمعت عيناك وأدمعتا، وقد فصَّلت وكررت ووصفت. لقد كدت أراها أمامي من وصفك، حتى أنك لم تسكت حتى قاطعتك أنا.

والآن؟

لا أثـر لذلك البريق في عينيك، وكأنك أوقفت أغنية أم كلثوم تلك وأدرت إحدى «سيمفونيات» شعبان عبد الرحيم.

الغريب أن رد فعل عبد القادر هذه المرة فاجأ آدم. في المرة الأولى أشـار عبد القـادر على آدم بأن يحسـم الأمر ويتكلـم بصراحة من قلبه وهـو ما استحسـنه آدم وعزم علـى تنفيذه. هذه المرة أشـار عبد القادر علـى آدم أن يكون مراوغًا وأن يسـتغل د. سـلوى قدر اسـتطاعته. لقد أشـار عليـه أن يُلاعبهـا وأن يقوم بدور العاشـق المغرم بهـا، فيحصل على ما يريد ببساطة. لم يوافق ذلك الرأي فطرة آدم التي تميل للصدق والصراحة. أحس أنه لو بالغ في التظاهر بالاهتمام بسلوى فسينكشف بعد أول عشـر دقائق. أصر عبد القادر على رأيه ونصح آدم بأن يتقرب من د. سـلوى حتى ولو لأسـبوع حتى يتأكد مـن حصوله على منصب رئيس القسـم. بعدها فعليه بالانسحاب التدريجي. لم يقتنع آدم تمامًا. ولكنه وعد عبد القادر بأن يحاول.

وقد كان.

6

«حبيبتي..

عادةً أنا لا أحب الكتابة ولا أجيدها. لذلك لا تنتظري مني رسائل إلكترونية طويلة. حاولت الاتصال بكِ اليوم ولم أستطع. بالأمس قابلت صديقًا قديمًا وحكيت له عنكِ. نعم، لأول مرة أتحدث عنكِ مع أي شخص. كم استمتعت وأنا أحكي له عنكِ وعن لقائنا الأول في دبي. أرجو أن نلتقي قريبًا. سأنتظر مكالمتكِ في أي وقت.

آدم».

أرسل آدم الرسالة من مكتبه بمبنى الكلية قبل أن يتذكر بقية نصائح عبد القادر. ولأول مرة منذ مدة طويلة يذهب آدم مباشرةً لمكتب سلوى ولا يحاول التسلل كما يفعل كل مرة. حاول آدم جاهدًا أن يبدو مهتمًا ولو قليلًا بسلوى. تحامل على نفسه كثيرًا وهو يسألها عن أحوالها وعن أهلها. وعلى مدى يومين متتاليين ظل عبد القادر يشجعه ويدفعه للتقرب منها أكثر فأكثر حتى وقعت الواقعة وطلبت سلوى منه أن يخرجا للعشاء معًا. تعلل آدم بأنه مرهق ويحتاج للراحة إلا أن سلوى قالت له إن لديها بعض المستجدات التي تريد أن تُطلعه عليها

بخصوص الترقية المنتظرة. في البداية سال لعاب آدم ولكنه عاد ورثى لحالـه. فطرته تأبى عليه أن يتلاعب بمشـاعر زميلتـه من أجل ترقية أو وظيفـة هـو أصلًا الأَوْلَى بها مـن غيره. كرر اعتذاره لهـا، وبالطبع فقد نهـره عبـد القادر وقـال له إن تكـرار رفـض دعوتها سـيجرحها كأنثى وبالتالـي سـيغامر بمسـتقبله. أكـد له عبـد القـادر أن النسـاء لا يُفرقن بين العمل والحياة الشـخصية، وأن مشـاعرهن تتحكم في كل شـيء. لـم يجـد آدم مفـرًّا من دعوتهـا على العشـاء. العجيب أنـه حين ذهب لمكتبهـا لدعوتها حتى يصالحها وافقت فورًا. لم تكتفِ بالموافقة، بل إنها حددت الموعد والمكان. حددت التاسـعة مساءً في مطعم بمركز «سيتي ستارز» بمدينة نصر.

كان الموعـد متأخـرًا قليـلًا بالنسـبة لآدم. أما المكان فـكان كارثيًّا بـكل المقاييس. آدم لم يكن يُحبذ الخـروج من الزمالك إلا في أضيق الحدود. هو يشـعر بالتوتر الكبير في الأماكن الكبيرة والمزدحمة. كما أنه لا يقود السـيارات ويتعب من المشاوير الطويلة. الخروج في رحلة لمدينة نصر، وبالتحديد في سـوق تجاري كبير يعد بالنسـبة له كابوسًا لـم يخطر علـى باله أبدًا. ولو فرض أنه انتهى من العشـاء في العاشـرة فلسـوف يحتاج لأكثر من سـاعة للعـودة للزمالك مرة أخـرى، ولكن لـم يكن هناك بدٌّ، فقبل على مضض. بـل توجب عليه أن يظهر بمظهر الشخص السعيد أمام سلوى.

يومهـا عاد آدم إلى بيته واسـتخدم الإنترنت ليراجع خريطة القاهرة

ويرى كم من الوقت سيحتاج للوصول لذلك المجمع التجاري الكبير. وعاد وتحدث لعبد القادر مرة أخرى وسأله عما يجب أن يلبس. لم يخرج آدم لعشاء مثل ذلك منذ زمن طويل. هل عليه أن يراعي أنه في موعد عشاء ويرتدي أفخر ما لديه من ثياب؟ أم أنه ذاهب لمركز تجاري عادي فيرتدي ملابس أبسط؟ استشار عبد القادر وارتدى ملابس بسيطة واستعد قبل الموعد بفترة كافية. استقل سيارة أجرة شقت طريقها الطويل وسط الزحام. ساعة قضاها آدم فوق كوبري أكتوبر ينظر للوحات الإعلانات العملاقة بانبهار.

- مَن هؤلاء المطربون وما كل هذه الإعلانات؟!

- يبدو أنها موجه غنائية جديدة. أنا مثلك تمامًا لا أعرف أيًا من هؤلاء. أنا كنت أعمل سائقًا في شرم الشيخ. هناك يأتي الأجانب من كل أنحاء العالم. أتعرف حضرتك ما هي الموسيقى التي يستمع إليها الجميع باحترام في شرم الشيخ؟

- لا.. الموسيقى الكلاسيكية؟ «ياني» مثلًا؟

- لا، مَن «ياني» هذا؟ أنا أقصد الموسيقى المصرية، هناك موسيقى مصرية يستمع إليها العالم كله الآن.

- رائع، لم أكن أعلم، أتقصد عمر خيرت؟

- لا يا سعادة الباشا، أقصد «أوكا وأورتيجا».

- مَن؟!

- يبدو أنك لستَ من مصر.. استمع معي.

ثم ضبط السائق موسيقى السيارة على إحدى أغنيات أوكا وأورتيجا فاتسعت عينا آدم من الانبهار. رفع السائق صوت الأغنية وبدأ يرقص بينما السيارة تكاد تكون شبه متوقفة فوق كوبري أكتوبر. صرخ فيه آدم بأن يوقف الأغنية فورًا. كاد السائق أن يطلب من آدم أن يغادر السيارة فوق الكوبري لولا ستر الله. أحس آدم بالخطر عندما تصور أن يتركه سائق الأجرة فوق الجسر.

- أنا لا أقصد أن توقف الأغنية، فقط قَلِّل مستوى الصوت قليلًا.

- ما رأيك يا سعادة الباشا؟ موسيقى عالمية.

نظر له آدم بابتسامة صفراء باردة متظاهرًا بتأييد وجهة نظره:

- فعلًا، جميل «أوتيكا» هذا.. جميل.

أحس آدم براحة شديدة بعد مغادرة سيارة الأجرة. هل كان ذلك السائق استثناءً؟ هل يستمع كل السائقين لمثل هذه الموسيقى؟ هل هي حالة عامة بين السائقين؟ هل يمكن أن تكون هذه هي الموسيقى التي يستمع لها الشعب كله؟ كم انحدر ذوق المصريين منذ أن كانت الأوركسترا تعزف على الأرصفة في مقاهي وسط البلد في الأربعينيات. نظر آدم للمبنى الضخم أمامه وراوده شعور أنه في التسعين من عمره ويعيش في بلد غريب. لا يعقل أنه نشأ في نفس هذا البلد، بل ونفس تلك المدينة. ما الذي حدث إذًا؟ هل تغير هو أم

تغيروا هم؟ ومتى حدث ذلك بالضبط؟ وأين كان هو؟

استوقفه موظف الأمن وهو يقوم بالتفتيش الروتيني. لقد وصل مبكرًا مما قلل شعوره بالتوتر. سأل عن المطعم ولم يُجبه أحد. نصحه أحدهم بالذهاب لمكتب الاستعلامات. عاد ليسأل عن مكتب الاستعلامات. أخيرًا وبعد عناء وحوالي نصف ساعة من البحث وصل إلى المطعم في تمام التاسعة. اتخذ مكانه في المنضدة المخصصة له وانتظر سلوى. بدأ شعوره بالتوتر يعاوده مرة أخرى كسائح صومالي ضل طريقه في أسواق الصين. سلوى تعيش في مدينة نصر، ولهذا فقد اعتقد أنها ستكون في انتظاره. اتصل بها واعتذرت بحجة أن الزحام شديد.

- إن شاء الله عشر دقائق فقط وأكون معك، أنا عند مدخل السوق التجاري.

بعدها بنصف ساعة اتصل مرة أخرى.

- أنا هنا في موقف السيارات، أحاول العثور على أي مكان لإيقاف السيارة، إن شاء الله خمس دقائق وأكون معك.

وبالفعل، فقد وصلت بعدها بحوالي عشرين دقيقة كاملة. كانت عقارب الساعة قد تعدت العاشرة مساءً. في مثل ذلك الوقت يُفترض أن يكون آدم على استعداد للنوم. بالطبع فقد استغل الساعة الكاملة التي قضاها وحده في دراسة قائمة الطعام دراسة وافية حتى صار يعرف كل الأصناف بأسعارها ومكوناتها. وبعد أن طلبا الطعام بدأت

سلوى في الحديث. تحدثت عن المرور والزحام. أخبرها عن السائق الغريب الذي أتى به لمدينة نصر. وعن الموسيقى العجيبة التي سمعها طوال الطريق. وكيف أن السائق سبَّه بعد أن دفع له الأجرة المحددة في العداد.

- لقد سبني بعد أن نزلت بأبشع الألفاظ، سائق غريب.

- لا أحد يدفع الأجرة تبعًا للعداد في القاهرة، ماذا قال لك؟

- آسف، لن أستطيع أن أُكرر العبارة؛ فهي شديدة البذاءة. والله أكاد أبكي حين أتذكر أنه سبني بها.

- ما هذه العبارة؟ أرجوك.

- لقد قال لي: «مولد وصاحبه غائب». تخيلي لأي حد وصلت بذاءة البعض؟

- أكمل، لأي حد؟ ماذا قال بعدها؟

- مشى بالسيارة، قالها وجرى قبل حتى أن أرد.

- أتعني أن هذه العبارة التي قالها لك هي نفسها السبة البذيئة؟

- للأسف!

- أعتقد أنه يمزح معك، بالنسبة لسائقي سيارات الأجرة فذلك نوع من الغَزَل العفيف!

تعجب آدم وسكت. أرادت سلوى تغيير الموضوع فباركت له قرب صدور قرار الترقية. أخبرته أنه بعد يوم أو اثنين سيصدر قرار رئيس الجامعة بتعيينه رئيسًا لقسم التصوير بالكلية. أكدت له أن الكل يعرف أن د. علا مريضة وغير مهتمة بالمنصب، وأن د. عماد صغير السن ولا يمكن وصفه بالفنان أصلًا، علاقة د. عماد بالفن أكاديمية بحتة فضلًا عن أنه مكروه بين طلبته بعكس آدم. شعر آدم بالامتنان من حديث سلوى وطمأنته أن الأوراق جاهزة ويتبقى فقط إمضاء رئيس الجامعة. لأول مرة يشعر آدم بأن الرحلة إلى مدينة نصر جاءت بفائدة.

- هل سمعتِ عن مطرب اسمه أوتيكا أو أورتيكا أو شيئاً من هذا القبيل؟
- هذا ليس اسم مطرب.
- ذلك ما قلته والله.
- أقصد أن هذين مطربان اثنان وليس واحدًا فقط.
- إحم، اثنان، يمكن، لا أعلم، المشكلة أنني لم أفهم أي كلمة من كلمات الأغنية.

بعد العشاء، استعد آدم لرحلة العودة. اقترحت عليه سلوى أن تأخذه بسيارتها خارج المركز التجاري وهناك سيجد العديد من سيارات الأجرة. قبل منها ذلك. وبعد أن تركها استقل إحدى سيارات الأجرة. السائق هذه المرة كان شابًا مختلفًا، ظل في حوارات مع أفراد

عائلته عبر هاتفه المحمول. بدا لآدم أنه يحاول الصلح بين عدة أطراف دون فائدة. ظل تركيز السائق مُنصبًّا على الهاتف. بالطبع فقد كان ذلك أفضل لآدم من سماع المزيد من الأغنيات الشعبية التي لا يفهمها. تثاءب آدم وأغلق عينيه ونام. أيقظه السائق في الزمالك قرب بيته. مشى قليلًا حتى البيت. كانت الساعة تقترب من منتصف الليل. فجأة شق سكون الليل صوت مكالمة هاتفية من عبد القادر. سأله عن الليلة والعشاء وأخبار الترقية. أجابه عن كل ما سأل على مضض.

- عبد القادر، هل سمعت من قبل عن مطربَيْن اسمهما أوكا وأورتيجا؟!

- إنهما ليسا مطربَيْن.

- ذلك ما قلته أيضًا، سلوى تعرفهما جيدًا، أنا أيضًا قلت إنك رجل فنان ومدير متحف قد الدنيا.

- أقصد أنهما أشهر مُطربي الأغنيات الشعبية في مصر الآن.

- عبد القادر، تصبح على خير!

- هل أعجبتك أغنياتهما؟ عندما ألتقي بك فسأهديك بعض الأغنيات.

- عبد القادر، أغلق الخط قبل أن أسبَّك!

- اهدأ يا أبو آدم، لن أغلق الخط، سبني كما تشاء.

- مولد وصاحبه غائب!

- وانت من أهله.

نام آدم ليلتها بالبدلة. عندما استيقظ وجد رسالة نصية على هاتفه من حبيبته الإيطالية ردًا رقيقًا على بريده الإلكتروني.

«أنا أيضًا تكلمت مع صديقتي عنك وأريد بالفعل أن ألقاك مجددًا. سأحادثك الليلة».

ابتسم آدم وهو يقرأ، وشعر بقلبه يرقص من الفرحة. رد على رسالتها الرقيقة. منذ زمن بعيد لم يشعر بمثل هذه المشاعر. عزم على أنه بعد أن ينتهي من الحصول على منصب رئيس القسم سوف يخصص أوقاتًا أكثر للحديث معها كما نصحه عبد القادر. أيضًا فقد قرر أن يصارحها بما يشعر به ويحاول أن يلتقي بها في أقرب فرصة. ربما احتاج سلوى مرة أخرى لتساعده على السفر لأي معرض فني. استعد يومها للعمل ومشى من بيته للكلية كالعادة. انتهى سريعًا من إحدى المحاضرات. توجب عليه بعدها أن يساعد بعض الطلبة في العمل على استكمال لوحاتهم الزيتية.

عاد بعدها متأخرًا لمكتبه. مر بمكتب سلوى ولم تكن هناك. مر سريعًا بمكتبه. كان لا يزال مجهدًا من سهرة الليلة الماضية. عزم على العودة لبيته ثم النوم لبضع ساعات. عند خروجه من مكتبه سمع صوت سلوى. اتجه نحو مكتبها وسمع صوتها وهي تتحدث عبر الهاتف.

- ألف ألف مبروك يا دكتور. يجب أن تعزمنا جميعًا على العشاء. لقد أردت أن أكون أول مَن يبشرك بالبشرى السعيدة.

انقبض قلب آدم. مَن هذا الذي تُهنئه؟ هل هو رئيس لقسم آخر؟ انتظر حتى هدأ صوتها وطرق الباب ودخل الحجرة. ما إن رأته سلوى حتى شحب وجهها وأطرقت نظرها للأرض.

- د. آدم أنا آسفة. والله لقد فعلت كل ما أستطيع.

- ماذا حدث؟

- لقد صدر قرار بتعيين د. عماد رئيسًا للقسم.

- كيف؟ ولماذا؟ مَن الذي اختاره؟

- لا أحد يعلم، ولكن العميد قال لي إن دكتور عماد له صلات قوية بجهات عليا، وإن الموافقات الأمنية هي التي تحدد مَن يفوز بالمناصب. لقد كانت توصيتي وتوصية العميد لك أنت، ولكن هناك مَن تدخل وغيَّر القرار. أنا آسفة جدًّا.

لم يستطع آدم الرد. لقد كانت لطمة قوية لكل خططه. لطمة قوية لمستقبله. خرج من مكتب سلوى يمشي بانكسار واضح. لقد أخطأ مجددًا. لم يكن من المفترض أن يضع آماله في يد غيره. لم يكن من المفترض أن يسعى وراء أي منصب. لم يكن بحاجة للتودد إلى سلوى أو سماع نصائح عبد القادر السخيفة. ها هو يشعر بنفس الشعور مرة أخرى. أظلمت الدنيا في عينَي آدم وشعر بمرارة شديدة في حَلْقِه. دارت به الدنيا فلم يدرِ بِمَ أجاب سلوى أو كيف قادته قدماه لبيته. ها قد خسر مجددًا وأيضًا «بفارق رأس».

7
بعد شهور

الجمعة 13 أغسطس 2010

البندقية – إيطاليا

آلـة التنبيـه الخاصـة بالهاتـف المحمـول أيقظـت «جارديني» من نومـه العميـق. كعـادته ظـل مسـتيقظًا في سـريـره يحـاول جـاهـدًا النهـوض ولا يسـتطيع. حاول عـدة مرات حتى جاء «ماركو» كالعادة. دخـل البيت وأحدث ضجيجَه المعتاد. أعد القهوة ودخل لحجرة نوم «جارديني» يوقظه.

- سنيور «جارديني»، أعلم أنك مستيقظ، قهوتك المفضلة.

- ليست قهوتي المفضلة، قهوتي المفضلة سأتناولها في «مقهى فلوريان» بعد قليل، هذه قهوتك أنتَ المفضلة.

- لا بأس، اشـربها فستسـاعدك على النهوض من سـريرك حتى تلحق بموعدك.

- هـل رأيتنـي ولو مرة واحـدة وقد تأخرت ثانيـة واحدة عن أي ميعاد لي؟

- لا.

- إذن انتظرني بالخارج، ربع ساعة وسأكون جاهزًا.

خرج «ماركو» تاركًا كوب القهوة بجانب السرير. قام «جارديني» متثاقلًا ونظر لساعة يده الملقاة بجانب السرير. لقد تأخر قليلًا، يجب أن يكون في المقهى بعد نصف ساعة. سيحتاج منها ربع ساعة مشيًا على الأقل. انطلق فجأة كلاعب كرة قدم شاب وجرى نحو الحمَّام. انتهى من أخذ حمام ساخن في خمس دقائق فقط. خرج بعدها وارتدى ملابسه في عُجَالة. همَّ بالخروج من الحجرة إلا أنه تذكر فجأة شيئًا. عاد سريعًا وشرب كوب القهوة كله مرة واحدة كما يشرب كأسًا من الـ «تكيلا». ابتسم وخرج سريعًا. كان يحب القهوة التي يُعدها له «ماركو» وإن لم يعترف له بذلك أبدًا.

- مَن هذا الذي يريد أن يقابلك في العاشرة صباحًا على المقهى. هل هو مُشْتَرٍ جديد لإحدى اللوحات؟

- لا أعرف، ولكنه قال إن الأمر عاجل.- هيا بنا، لنتحدث في الطريق.

خرج «جارديني» على عَجَل وبدا رشيقًا وهو يُسرع الخُطى و«ماركو» الأكثر منه شبابًا بدا كعجوز بطيء لا يكاد يلحق به!

- هل تريدني معك أم ستقابله وحدك؟

- ليس عندي أسرار، سنقابله معًا.

- حسنًا، لو أردتَ اترك لي الموضوع وسوف...

- «ماركو»، «ماركـو»، قلت لكَ من قبل، لا تتكلم في وجودي، أنـت فقط تجلـس لتتعلـم، لـو احتجتُ منك شـيئًا فسـأطلبه بوضوح ولن أنتظر عرضًا منك.

كادت عقارب الساعة بالبرج الكبير في ميدان «سان ماركو» تلامس العاشرة تمامًا حين وصل «جارديني» و«ماركو» للمقهى العريق. ذلك المقهـى الذي يُعد من أقدم مقاهي أوروبـا؛ فهو يعمل بانتظام منذ عام 1722 وحتـى اليـوم. يومها كان الجـو صيفيًا مُشمِسًـا جميلًا وقد امتلأ المقهـى بالزائريـن والسـائحين وجلسـوا جميعًـا يسـتمتعون بأعذب الألحان التي كانت تُعزف عن طريق أوركسـترا موسـيقي صغير. تلك الفِرَق الموسيقية والموسيقى المنبعثة من مقاهي ذلك الميدان من أبرز معالـم مدينة البندقية السـياحية. نادى «جارديني» علـى أحد العاملين بالمقهـى. مـا إن رآه مديـر الفتـرة الصباحيـة بالمقهى حتى أشـار بيده للفتى ليتوقف وذهب بنفسه.

- سنيور «جارديني» لم أرَك منذ ثلاثة أيام.
- كنت في ميلانو. كيف حال المقهى، كيف حالك وحال ابنك؟
- بخير حال، الإفطار المعتاد؟
- نعم، قهوة إسبرسو وقطعة من كعكة الشوكولاتة الداكنة.
- بالطبع سنيور «جارديني»، لم يتغير إفطارك منذ أعوام، وسنيور «ماركو»...

كاد «ماركو» أن يتحدث إلا أن «جارديني» أسكته بيده وقاطع المدير...

- نفس الإفطار بالضبط لـ«ماركو».

- شكرًا سنيور «جارديني»، دقائق وسوف يكون الإفطار جاهزًا، كما سأخبر الفرقة الموسيقية لتعزف ألحانك المفضلة.

انصرف المدير والتفت «جارديني» لـ«ماركو» ليعاتبه:

- قلت لك هنا لا تتكلم مطلقًا.

أطرق «ماركو» رأسه موافقًا. هنا توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف وارتفع صوت الأجراس يعلن تمام العاشرة صباحًا. نظر «جارديني» لساعته ليتأكد أنها مضبوطة بالثانية. عند اللحظة التي توقفت فيها الأجراس، وعند استعداد الفرقة للعزف مرة أخرى رنَّ هاتف «جارديني». كان المتكلم هو نفسه الشخص الغامض الذي طلب موعدًا سريعًا مع «جارديني» في اليوم السابق. لقد تكلم وألحَّ في طلب المقابلة مشيرًا لأنها هامة للغاية. طلب فقط خمس دقائق من وقت «جارديني». على الهاتف جاء صوت ذلك الرجل والذي كان بالفعل يقف خلف «جارديني» مباشرةً، فأشار له بيده وأنهى المكالمة سريعًا. تقدم الرجل نحو «جارديني» الذي رأى شابًّا إيطاليًّا وسيمًا وأنيقًا للغاية كنجم سينمائي، أو عارض أزياء وسيم محترف. شاب في أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات على الأكثر. بدا طويلًا بعض

الشـيء، ذا جسـد رياضي ممشوق. سـلم على «جارديني» بثقة شديدة وهو ينظر لعينيه في نِدية شديدة رغم فارق السن والخبرة.

- سنيور «جارديني»، أنا «بيدرو». سعيد جدًا بلقائك، لقد سمعت عنـك كثيرًا حتى تمنيت هذه اللحظة كثيرًا. كما قلتُ، فلن آخذ مـن وقتك أكثـر من خمس دقائق فقـط. أولًا دعني أخبرك أنني منـدوب عن أحـد أهم وأغنـى جامعـي اللوحات فـي أوروبا. أعـرف جيدًا أنك تعرفهم كلهم ولكني لا أسـتطيع أن أبوح لك باسـمه أبدًا. اعتبر هذه المقابلة دعوة بسيطة من أحد معجبيك. للأسف هذه الدعوة ليست مني ولكنها ممن أرسلني.

جـاء مدير المقهـى ومعه أحـد العاملين يحمل صينيـة كبيرة عليها الإفطار. سـكت الضيف الغامض تمامًا عندما جاء المدير. وطلب منه بعض القهوة وانتظر حتى انصرف.

- شكرًا للمقدمة، هل لي أن أعرف اسمك مرة أخرى؟

- سنيور «جارديني» يمكنك أن تناديني «بيدرو».

نظـر لـه «جارديني» نظرة ضيق واضحة وأشـاح بنظـره عنه وتناول قطعة من الكعكة. بعدها رشـف رشـفة من قهوته وأغمض عينيه كمن يسـتمتع بالموسـيقى لدرجة الانتشاء. كان الجو مشمسًـا و«جارديني» يبـدو أنه في حالة مزاجية جيدة. لم يـرد على الضيف كأنه غير موجود بالمرة. هنا أكمل الضيف حديثه همسًا:

- سنيور «جارديني»، باختصار، الشخص الذي أرسلني يعرفك جيدًا جدًّا، ولقد أرسلني لك في طلب محدد. هناك لوحة محددة في متحف في القاهرة بمصر وهو يريدها.

نظر له «جارديني» بطرف عينه ثم نظر لـ«ماركو» كأنما يختبره. بعدها أكمل التهام الكعكة ورشف رشفة أخرى من قهوته بلا اهتمام. عندها وصل المدير مرة أخرى بالقهوة للضيف الغامض وسكت الرجل تمامًا حتى انصرف المدير.

- سنيور «جارديني»، نحن نعرف أنك الشخص المناسب، أنت أفضل شخص في العالم يأتي بهذه اللوحة.

- سنيور «بيدرو»، أو أيًّا كان اسمك، أنا لا أعرف عمَّا تتحدث، لو أن صديقك يريد اللوحة فليشترها من المتحف، الموضوع بسيط ولا يستحق كل هذا الغموض. لا أعتقد أن هناك ما يمكنني فعله.

- هل أستطيع أن أتكلم؟

قالها الرجل الغامض وقد أشاح بوجهه نحو «ماركو». فهم «ماركو» ما يقصد ونظر لـ«جارديني» كأنما ينتظر أوامره.

- «ماركو» سيظل هنا، ليس عندي أسرار.

- سنيور «جارديني»، أنا أعرف ما حدث منذ ثلاثة شهور في باريس، ومن قبل في «ريو دي جانيرو» 2006، وغيرها الكثير.

بـدا القلـق واضحًا علـى «ماركو» الذي تـرك قهوتـه وانكمش في كرسـيه كأنـه لم يسـمع شـيئًا ونظر حولـه في توتـر واضـح. بينما نظر «جارديني» للرجل وابتسـم في ثقة شـديدة وعاد يلتهـم آخر قطعة من كعكته ثم يرشـف بعدها رشفة أخرى من قهوته في استمتاع شديد. ثم نظر «جارديني» للرجل كأنه سيجيبه:

– هل تعرف هذه القطعة الموسيقية؟

– أعتقد أنني سمعتها من قبل، ولكنني لست متأكدًا.

– هذه هـي رائعة «رحمانينوف»، كونشـيرتو البيانو رقم 2. عادةً هـذه الفرقة لا تعزف هذه القطعة في مثل هذا الوقت، ولكنهم يعزفونها لأنهم يعرفون أنني أُفضلها مع إفطاري هنا.

– سـنيور «جاردينـي»، نحن لا نطلـب منك الكثيـر، الموضوع أبسط بكثير من باريس. لا كاميرات مراقبة ولا أجهزة إنذار.

– هل قلتَ إن صديقك هذا هو مَن سيدفع فاتورة الإفطار هنا؟

– بالطبع سـنيور «جارديني»، لنا الشرف بدعوتك على الإفطار، ذلك شيء بسيط جدًّا.

نادى «جارديني» على المدير وطلب منه قائمة المشروبات. تعجب المدير! لم يسبق لـ«جارديني» أن طلب قائمة المشروبات من قبل.

– دعنا من القائمة، قل لي أنت، ما أفخم وأفضل نوع نبيذ عندك؟

- هناك الكثير، ولكن أفضلهم وأغلاهم هذا النوع «كوستاسيرا أمارون كلاسيك»؛ نبيذ إيطالي فاخر من «فينيتو».

- بكم هذا؟

- الزجاجة الواحدة بستة وتسعين يورو.

- أريد أغلى وأقدم زجاجة لديك، ولا تفتحها!

تعجب المدير وانصرف سريعًا لإحضار الزجاجة. بينما نظر الرجل و«ماركو» لـ«جارديني» بتعجب شديد. ظل «جارديني» يستمتع بالموسيقى حتى جاء الرجل بالزجاجة. فأخذها «جارديني» وأشار لـ«ماركو» لينصرفا.

- سعدت جدًّا بلقائك وأشكرك على دعوتك الرقيقة. أرجوك أبلغ شكري العميق لصديقك على الإفطار وعلى هذه الهدية الصغيرة. أرجوك ألا تنسى أن تدفع الفاتورة. استمتع بوقتك.

- سيد «جارديني»، قبل أن تمشي. لقد اعتقدت أنك تريد «ماتا موا».

توقف «جارديني» فجأة بعد أن كاد ينصرف. أوقف «ماركو» بيده ثم التفت مرة أخرى للرجل الغريب:

- ماذا قلت؟

- صديقي يعرف أنك تريد لوحة «ماتا موا» لـ«بول جوجان»، وأنك خسرتها في مزاد أقيم في التسعينيات بعد أن اشتراها

صديقـان معًا ليحرماك منها. ومنذ ذلـك الوقت وأنت تتعقب اللوحـة من شـخص لآخـر وترغب في شـرائها مهمـا كلفك الأمـر. نحـن نعـرف أيضًـا أن «ماتا مـوا» بيعـت لمتحف في إسبانيا، وأنك فشلت في الحصول عليها للمرة الثانية وقتها.

وقف «جارديني» صامتًا وعاد ينظر لـ«بيدرو» بريبة:

- وطبعًا أنت تظن أن «ماتا موا» في المتحف في إسـبانيا. دعني أُدقـق المعلـومة سـنيـور «جـارديني». هلَّا جلسـت للحظـة من فضلك.

صمت «جارديني» للحظة وسـط ترقب من «ماركو». فجأة استدار «جارديـني» وجلس صامتًـا فتبعه «ماركو». أطرق «جارديني» السـمع فأكمل «بيدرو» الحديث:

- «ماتـا مـوا» موجودة في «كريسـتي» بلنـدن، وتـم الانتهاء من إجـراءات شـرائها وتحويلها باسـمك، ولـم يتبـقَّ إلا التوقيع الأخير. لو سـاعدتنا وأحضرت لنا اللوحـة من القاهرة خلال أسـبوع، فسـتصل «ماتا موا» الأصلية بكل أوراقها وشهاداتها الأصلية لبيتك خلال أيام.

8

لـم يصـدق «جاردينـي» ما سـمع. لا بـد أن مَن بعث ذلـك الرجل يعـرف عنه الكثيـر بالفعل. لم يُرهبه ما سـمع عـن أن الرجل يعرف ما فعـل «جارديني» فـي باريس أو قبلها. فـ«جاردينـي» من الدهاء بحيث لا يتـرك خلفـه أثرًا واحدًا. كما أن أسـلوبه يعتمد على اسـتخدام غيره فـي العمليـات ليبقـى هو العقـلَ المدبـر القابع خلف السـتار. لا يراه أحد ولا يشـعر به أحد ولا وجود لأي دليل يشـير لعلاقته بأي شـيء. كان ماكرًا في التخطيط والتنفيذ. يعرف حتى كيف يغسـل أمواله ليبدو للجميع أنها كلها من تجارة اللوحات.

«جاردينـي» محتـرف من الطراز الأول. يعرف أيـة لوحة لأي فنان وكم تسـاوي. أحيانًا يبيـع لوحة بأضعاف ثمنها اعتمادًا على اسـم مَن رسمها. يعرف أنه لا يوجد محقق أو شرطي سيعارضه في سعر لوحة. وهـو الذي يتاجر في اللوحات الأصلية منـذ ما يقرب من نصف قرن. قد يبيع لوحة لـ«بيكاسـو» بـ70 مليون دولار وهو يعلم أن سـعرها 30 مليـون دولار فقـط. هـذا الفارق قـد يكون غطاءً لمكسـبه مـن عملية أخرى أو لثمن لوحة مسـروقة. وبالطبع لم يكن «جارديني» يعتبر هذه

سرقةً. أحيانًا يسميها «اقتناءً»، وأحيانًا أخرى يستخدم لفظ «استعارة». وبالطبع فـ«ماركو» يعرف كل ذلك بحُكم قُربه من «جارديني» وعمله الطويل معه.

«ماتا موا» كانت هي نفسها اللوحة المنتظرة في متحف «جارديني». هي اللوحة التي ينتظرها الإطار الفارغ على أحر من الجمر. لم يتعجب «جارديني» كثيرًا أن الشخص الغامض ومَن أرسله عرفوا هذه المعلومة. فلطالما أعلن «جارديني» في المجالس وبين الأصدقاء وكبار تجار اللوحات أنه يسعى خلف هذه اللوحة. لم يكن الموضوع سرًّا بالمرة. الغريب أن ثمن هذه اللوحة يقترب من 40 مليون دولار، فمن ذا الذي اشتراها؟ وأية لوحة يريد؟ لقد طلب منه الرجل التأكد من صالة «كريستي» أولًا وبعدها يُعلن قراره. أمامه خياران: لو قَبِلَ المهمة فعليه أن يتأكد من وجود اللوحة الأصلية باسمه في «كريستي». بعدها سيعرف كل المعلومات حول لوحة القاهرة، والمطلوب منه أن يأتي بها خلال أسبوع فقط. لو رفض العرض فعليه أن ينسى لوحته المفضلة إلى الأبد، فلن يراها بعدها أبدًا.

«جارديني» يعلم أن قبوله للمهمة تعني أيضًا أنه سيضطر لدفع بضعة ملايين من الدولارات لمساعديه وبعض العاملين معه. وكالعادة سيُسوي كل ذلك كأنه اشترى بعض اللوحات منهم. لكنه يدرك أيضًا أن مليونين أو ثلاثة من الدولارات تهون من أجل لوحته المُنتظَرة. قلبه مال بشدة لقبول العرض. نظريًّا وكالعادة فلن تكون هناك أية

مخاطرة من جانبه. في الأغلب سيرسل مساعديه ويبقى هو خلف المشهد بلا أي دليل إدانة حتى ولو قبضوا على أحد مساعديه. وقد يذهب معهم إذا أحس أن الموضوع بسيط. وبالنظر لسجل «جارديني» الحافل بـ«الاستعارات» فقد صارت معظم هذه العمليات بسيطة بالنسبة له. دائمًا ما يجد الثغرات في أعقد نُظم التأمين.

في عملية باريس التي أشار لها الرجل الغامض، أرسل «جارديني» «ماركو» لدخول متحف الفن الحديث. بعد أن درس المكان جيدًا أدرك أن هناك مكان وحيد ولحظة وحيدة. أما المكان فهو إحدى نوافذ المتحف حيث إن الكاميرا التي تُصور هذه النافذة لم تكن تعمل. وأما الزمان، ففي الليل، وتحديدًا خلال خمس دقائق أثناء تبديل ورديات الحراسة. يومها عاد «ماركو» بخمس لوحات تعدَّى ثمنها المائة مليون دولار. كانت تلك هي العملية الأكبر لـ«ماركو» مع «جارديني». بعدها قرر «جارديني» أن يتوقف تمامًا عن الاستعارة ويمارس نشاطه التجاري المعتاد. يبدو أن لُعابه سال الآن مرة أخرى عندما شعر بأنه اقترب من لوحة يريدها بشدة.

حُب «جارديني» الشديد لهذه اللوحة كان أعمق مما يبدو. ظل «جارديني» طوال عمره مُولَعًا بـ«بول جوجان». لم يكن مُولَعًا فقط ببعض، أو حتى كل، لوحاته ولكنه كان مُولَعًا بشخصيته. حياة «جوجان» الثرية كانت مصدرًا للإلهام لـ«جارديني». اقتنى عبر السنين الكثير من لوحاته وباع منها القليل. قرأ الكثير عن حياته حتى

أنـه عرف كل لوحاتـه، بل يكاد يجـزم أين ولماذا رسـمها. مع الوقت صار مهووسًـا بانطلاق وحرية «جوجان». ظل يـراه مزيجًا من الجرأة والحريـة والجنون. فمَن يترك وظيفة مضمونة ومربحة من أجل تجارة لوحـات فهـو غريب. ومَـن يترك تجـارة اللوحات ويبدأ برسـم بعض اللوحات فهو فنان من داخله. ولكن مَن يترك زوجته وأولاده وأوروبا كلها للذهاب والعيش على جُزر استوائية نائية في المحيط الهادي فهو حقًّا مجنون!

عشق تمرده وجنونه. كلما اقتنى لوحة له شعر كأنه يتقدم له بالشكر علـى جنونه وفنه. صـار «جارديني» يشـعر أنه مَديـن لـ«جوجان». لم يشـعر «جارديني» بذلك الشـعور مع أي فنان آخر اقتنى بعض لوحاته. لكـل ذلك شـعـر أن عـرضُ الحصـول على لوحـة «جوجان» عرضًا لا يُرفض. لا بد أن مَن أرسـل ذلك العرض يعرفه جيدًا. قد يكون أحد أصدقائه. ظل كثيرًا يفكر ويسأل نفسه على طريقة «مايكل جاكسون»: «مَـن هـو؟»، أهو صديـق لي؟ أهو أخي؟ هذا الشـخص يعـرف أنه لو عـرض على «جارديـني» الملايين لرفض. بالتأكيد هو شـخص يعرفه حق المعرفة!

لم ينتظر «جارديني» طويلًا، فقد اتصل بصالة «كريستي» للمزادات وسـأل إن كان هناك أشياء موضوعة باسـمه. كان يعـرف مدير الصالة معرفة شـخصية جيدة. وبالفعل فقد كانت اللوحة هناك وباسمه ومعها شـهادات موثقـة تدل علـى أن اللوحـة أصلية، وأنـه تم بيعها لاسـمه.

رفض مدير الصالة الإفصاح عن الجهة التي اشترت اللوحة أو السعر أو غير ذلك من معلومات. أشار أن كل شيء باسم «جارديني» وفقط. دور الصالة الشهيرة مجرد الكشف عن مدى كون اللوحة أصلية من عدمه، وهو ما أكده مدير الصالة بشكل حاسم. شرح مدير الصالة أن الأوراق لديه تشير إلى أن «جارديني» اشترى اللوحة من المتحف الذي يملكها، وأنه طِبقًا للعقد ستحصل الصالة على مليونين من الدولارات نظير الكشف عن اللوحة ثم شحنها لمعرض سنيور «جارديني» بمجرد تسلم المالك لكامل سعر اللوحة. كما تَوَجَب على «جارديني» طِبقًا للعقد أن يرسل للمتحف لوحتين عن طريق صالة المزادات ذاتها.

فهم «جارديني» الموضوع. هناك مَن يريد لوحة القاهرة ويعرف أن «جارديني» يلهث وراء لوحة «جوجان»؛ لذلك فقد خطط ذلك الشخص لشرائها باسم «جارديني» من المتحف الذي يمتلكها وإرسالها له بعد أن يحصل على لوحة القاهرة. فإذا حصل على اللوحة التي يريدها حول الأموال للمتحف الذي سيقوم بدوره بتكليف الصالة لشحن اللوحة. ولتكتمل الأوراق فستبدو أن العملية تبادُل لوحات لا أكثر. وهكذا يبقى الطرف الثالث في الخفاء ويحصل على اللوحة التي يريدها. لم تكن المرة الأولى التي يدخل فيها «جارديني» في مثل تلك الصفقات فهو يعرف جيدًا كيف تكون أوراقه وأوراق لوحاته سليمة وقانونية مائة بالمائة. كان أيضًا في استطاعته محاولة الوصول لذلك الشخص الخفي، ولكنه رأى أن ذلك سيهدر الوقت، وفي النهاية فقد يعرف الشخص وتفسد الصفقة.

كل ما سبق دار في ذهن «جارديني» في دقائق معدودة في بيته وأمام «ماركو». وبعد أن تأكد من المعلومات وأن «ماتا موا» في انتظاره عاد واتصل بالشخص الغامض وطلب مقابلته مجددًا في «مقهى فلوريان» ليلًا ليعرف منه التفاصيل. أراد أن يكون الموعد في نفس الليلة كأنه يبعث رسالة بأنه قَبِل المهمة ولا يريد أن يضيع أي وقت.

في الموعد المحدد جلس «جارديني» في «مقهى فلوريان» مجددًا. جاء الشاب الأنيق بثقة أكبر هذه المرة.

- ما هي اللوحة التي يريدها صديقك؟

- لوحة لـ«فان جوخ» اسمها «آنية وزهور»، ومعروفة أيضا باسم «زهور الخشخاش».

- أعتقد أنني أعرفها، لم أكن أعرف أنها في مصر. في أي متحف هي؟

- متحف اسمه «محمد محمود خليل وحرمه» على النيل في منطقة الجيزة.

- أريد كل المعلومات الممكنة عن هذا المتحف. مكانه بالتحديد. نظام التأمين...

- لا يوجد أي نظام تأمين، هناك فقط بعض الحراس وأغلبهم غير مُسلح!

- أجهزة الإنذار والليزر؟

- لا توجد!

- كاميرات المراقبة؟

- أغلبها لا يعمل!

- هل تمزح معي؟ فليذهب صديقك ويأخذ اللوحة ببساطة ويخرج إذًا!

- سنيور «جارديني»، بالفعل فالمتحف تقريبًا غير مؤمَّن، عندنا بعض المعلومات التفصيلية عن المتحف سأرويها لك. لن أستطيع أن أعطيك أية أوراق أو إرسال أي بريد بتلك المعلومات. الصعوبة أن ذلك المتحف يجاور قصرًا شديد الحراسة من قصور الرئاسة، ومن الناحية الأخرى مبنى حكومي آخر وأيضًا شديد الحراسة. الدخول والخروج سهل جدًّا أثناء ساعات عمل المتحف. أما بعد مواعيد العمل، فالدخول والخروج منه شبه مستحيل.

- أعتقد أنني أريد أن أرى المكان بعينيَّ.

نادى «جارديني» على المدير الليلي للمقهى وطلب منه نفس زجاجة النبيذ التي طلبها في الصباح. بعد أن أخذ الزجاجة شكر الرجل على المعلومات وعلى الزجاجة. بينما ظل الرجل في دهشة. التفت «جارديني» له مرة أخرى:

- بما إنني لا أعرف مع مَن أعمل حتى هذه اللحظة فأبلغ صديقك أنني سأقتني لوحة القاهرة، لست مغرمًا بلوحات «فان جوخ»، ولكن في نفس الوقت فبإمكاني وبمنتهى السهولة أن أبيعها. أبلغ صديقك أنني أنا الذي سأحدد اللحظة التي ستكون لوحة القاهرة معي وسأبلغه بها. في هذه اللحظة أريد لوحة «جوجان» أن تكون هنا في البندقية وباسمي. سأبلغك لاحقًا بالتفاصيل. لو كانت اللوحة موجودة فسأرسل له لوحة القاهرة. لو لم تكن موجودة فسأرسل لوحة القاهرة لبعض أصدقائي أنا.

- شكرًا سنيور «جارديني». تأكد أن لوحتك موجودة وستحصل عليها فورًا بعد الحصول على لوحة القاهرة.

- شكرًا على زجاجتَي النبيذ، لقد تسلمتُ مُقدم العقد.

بدأ عقل «جارديني» يعمل بسرعة مذهلة. أمامه أسبوع. كان عليه السفر للقاهرة لرؤية المكان واللوحة. وفي نفس الوقت فقد اعتاد أن يسافر قبل العملية بيوم أو اثنين فقط. كان يريدها رحلة سريعة. قرر أن يمضي معظم الوقت في جمع المعلومات والتخطيط. بالطبع فقط بدأ بالإنترنت وخرائط «جوجل» وصوره. تمكن أن يرى بوضوح المتحف والمنطقة كلها. وبدأ البحث على الإنترنت عن المتحف ومقتنياته وتاريخه. عرف يومها «جارديني» من تحقيق طويل منشور بإحدى الصحف المصرية أن نفس تلك اللوحة تمت سرقتها ثم عُثر عليها بعد عشر سنوات.

كانت قصة سينمائية عجيبة حدثت في مصر في السبعينيات. وقتها سُرقت نفس اللوحة من نفس المتحف. بعدها بسنوات سَمَح أحد الضباط في أحد السجون المصرية لابن أحد المساجين بزيارته. وأكرم الضابط الابن الصغير واشترى له قطعة من الشوكولاتة. فرحة الطفل بالشوكولاتة أثَّرت بشدة في والده الذي طلب من الضابط أن يتحدث معه على انفراد. أخبر السجين الضابط أنه هو مَن سرق اللوحة، وأنه مستعد لإعادتها مرة أخرى ليساعد الضابط في الحصول على ترقية جراء حُسن معاملته للسجين وابنه. وبالفعل أرشد السجينُ الضابطَ لمكان اللوحة عند أخيه في حقيبة بالكويت. سافر ضابط أمن للكويت وتم استعادة اللوحة. ومما لفت انتباه «جارديني» في القصة أن اللوحة سافرت للعرض في معرض بباريس حيث تم التأكد من كونها أصلية وختمها بذلك. تأثر «ماركو» كثيرًا بالقصة بعد أن حكاها له «جارديني».

- «ماركو» حتى بعد 50 سنة لو أعطى ضابطٌ علبة شوكولاتة كاملة لابنك فأنت لا تعرف شيئًا عن اللوحة ولا المتحف.

- أعتقد أنه بعد 50 سنة سيكون ابني كبيرًا جدًّا على الشوكولاتة سنيور «جارديني».

- بل ستكون أنت كبيرًا جدًّا على السجن، وغالبًا أنا سأكون سعيدًا في قبري، قل لهم ما شئت!

قضى «جارديني» اليوم التالي كله في البحث والتحليل والتخطيط حتى وصل لخطة معقولة. أخبر «ماركو» أنه يريد أن يسافر للقاهرة بصفته من أكبر تجار اللوحات في أوروبا بحجة توظيف مساعد يفهم في الفنون.

- ولماذا تُعَيِّن مساعدًا مصريًّا وأنت تعمل غالبًا في أوروبا؟

فكر «جارديني» قليلًا ووجد أن «ماركو» على حق.

- ولكنني أريد أن أسافر تحت أي غطاء مما يسمح لي أن أُقابل فنانًا مصريًّا يأخذني في جولة بالمتحف وكأنني سائح. المشكلة أنني أريد شخصًا يعرف الكثير عن الفنون وليس عندي أي وقت للبحث. يجب أن نسافر فورًا.

- عندي لك حل عبقري.

- لا أعتقد أن لديك أية حلول عبقرية ولكن قل بسرعة.

- «داريا لوتشي»!

- مَن «داريا» هذه أيها الفيلسوف الصغير؟ أهي صديقتك الجديدة؟

- «داريا» هي مديرة أجنحة الشرق الأوسط بـ«بينالي» البندقية. أنا متأكد أنك تعرفها أو قابلتها من قبل. هي صديقة عزيزة وقديمة لي. «بينالي» العام المقبل فيه أجنحة من كل أنحاء

العالم، وفي كثير من الأحيان فـ«داريا» توظف معها فنانين من كل أنحاء العالم. منذ عدة أسابيع أعتقد أنني سمعت «داريا» تقول إنها ستسافر للقاهرة للاتفاق على الاستعانة بفنان مصري في الـ«بينالي». نستطيع أن نقول لها إننا مسافران للقاهرة للسياحة، ونريد أن يصطحبنا أي فنان مصري لبعض المراكز الفنية أو المتاحف.

- فكرة جيدة، ولكن لو طلبنا أن يصطحبنا فنان مصري لمتحف معين قبل أيام من اختفاء لوحة فيه فسوف تحوم حولنا الشبهات، أنا أرى أن تسألها سريعًا إن كانت تنوي بالفعل أن توظف فنانًا عربيًا للعمل معها. لو أن ذلك صحيحًا اقترح عليها أن أسافر معها لمقابلته واختباره، البندقية كلها تعرفني وسوف توافق فورًا. وهناك سنختبره. موضوع المتحف سيأتي ببساطة، اترك الموضوع لي.

انطلق بعدها «ماركو» من بيت «جارديني» لمكتب «داريا» في مقر «بينالي» البندقية. ذلك المكان الذي يُعد قِبلة للفنانين من أنحاء العالم. حيث يقصدونه كل عامَيْن لحضور واحد من أهم المعارض الفنية في العالم. كل العاملين في الـ«بينالي»، بل وكل أهالي البندقية يعرفون «جارديني» تمام المعرفة. فهو بمثابة الأستاذ الكبير والفنان العظيم. الجميع يسمع عن مجموعته الكبيرة من اللوحات، وقد سبق له أن عرض بعض مقتنياته في الـ«بينالي»؛ لذلك فهو يحظى باهتمام

وتقدير الكل. بعد ساعة واحدة جاءت المكالمة لـ«جارديني» من «ماركو» بالبشرى السعيدة.

- لن تصدق، «بينالي» البندقية بالفعل يحتاج لفنان عربي يُشرف على بعض أقسام الـ«بينالي» في العام المقبل، وقد أرسلت «داريا» بالفعل منذ شهر لكلية الفنون الجميلة في القاهرة تطلب السيرة الذاتية لأهم فناني الكلية. وبالفعل فقد استقرت على ثلاثة، وهي بالفعل تستعد لمقابلتهم خلال شهور.

- شهور؟ قل لها المقابلة بعد ثلاثة أيام فقط، وإنني سأقابلهم معها. ولا تقل لها أي شيء آخر.

- بالطبع لا، «داريا» مجرد صديقة عزيزة و...

- «ماركو»، «ماركو»، ذَكِّرني منذ متى تعمل معي؟

- سنيور «جارديني».

- هيا هيا، ذَكِّرني.

- تسع سنوات.

- بعد هذه السنوات، لو فرضنا أن هناك شيئًا واحدًا فقط أريدك أن تتعلمه جيدًا مني، أتعلم ما هو هذا الشيء؟

- أشياء كثيرة سنيور «جارديني»، كثيرة جدًّا.

- لا يوجد في عملنا أي مجال لا للعواطف ولا للصداقة،

العواطف والصداقات في حياتك الخاصة، أما علاقات العمل فهي فقط للعمل، وبالمناسبة، لا تُكثر الكلام معها، فمَن يُثَرْثِر كثيرًا يُخطئ كثيرًا. أخبرها أننا سنُسافر معها للقاهرة فورًا.

9

مرت خمسة شهور حتى الآن على سلوى. بعد أن اعتقدت أن آدم بدأ يشعر بها ويقترب منها أخيرًا، صدمته بخبر ضياع رئاسة القسم منه للأبد. آدم فنان رقيق؛ ولهذا فعندما يُصدم يكون ردُّ فعله كبيرًا وغير متوقع. لامها كثيرًا، أقسمت له إنها ساندته وحاولت كثيرًا ولكن الموضوع أحيانًا يخرج عن السيطرة. لا تعرف سلوى هل فعلًا صدَّقها آدم أم لا؟ هل أحبها أم لا؟ هل أُعجب بها فعلًا أم لا؟ هي فقط تعرف أنها غالبًا فقدته للأبد.

حاولت كثيرًا أن تُصالحه. عرضت عليه أن تُعوضه بالمشاركة في المزيد من المعارض والمسابقات الدولية. رفض كل عروضها وعاد لبروده القديم معها. لو أنه أُعجب بها حقًّا لصَدَّقها. حاولت معه قليلًا بما تبقى لها من كرامة الأنثى. ثم رضيت بمكانتها القديمة لديه، مجرد زميلة في العمل. أما هو، فقد اكتأب بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

تقدم بطلب إجازة مفتوحة من العمل بالكلية لعدة شهور. من عجائب الأقدار أن رئيس القسم الجديد هو الذي وقَّع على الموافقة. اكتأب آدم أكثر عندما علم أن عماد هو الذي يتعين عليه أن يوافق أو

يرفض طلب الإجازة. عزم على عدم الذهاب للكلية بغض النظر عن موافقة أو رفض عماد. أظلمت الدنيا في عينيه. صار يرى الجميع كالحمقى: عماد وسلوى وحتى صديقه عبد القادر. لفترة طويلة تجاوزت الشهرين أغلق هاتفه المحمول. سافر بعيدًا إلى أسوان وهو يعلم أن أحدًا لا يذهب إلى هناك صيفًا. كان سابقًا عندما يحزن يأكل كثيرًا، ويبحث عن شخص قريب للحديث معه. هذه المرة الموضوع تعدى الحزن إلى الاكتئاب. لم يعد يفكر في الطعام، هجره لأيام. فَقَد وزنه وهو النحيف أصلًا، وضعفت صحته فزاد وَهَنًا على وَهَن. لم يرسم ولم يتكلم مع أحد. فقط سافر ونام كثيرًا. نام كثيرًا جدًّا. لم يدرِ كم مر من الوقت: أسبوع أم شهر. عاد إلى القاهرة وقد نَمَت لِحْيَته بشكل مزعج. وهو من كان من قبل حريصًا على تهذيبها طوال الوقت. خلال شهر كامل نسي نفسه، أهمل حتى في علاقته ومراسلاته مع حبيبته الإيطالية. شعرت هي بما يُعانيه وحاولت كثيرًا أن تُخرجه من عُزلته، ولكن الأمر لم يكن سهلًا. باختصار، اختفى آدم من الحياة تقريبًا.

بعد مرور شهر آخر بدأ آدم يعود تدريجيًّا للكلية ولحياته العادية. حتى أنه زار عبد القادر أكثر من مرة. عاد آدم لمراسلة حبيبته أيضًا. عاد للتدريس وبدا أن حالته بدأت في التحسن. وكذلك عاد لسيرته الأولى في التهرب من سلوى. ولم تعد هي تحاول معه مرة أخرى. بل إنهما صارا كالغرباء لم يتكلما معًا لفترة طويلة. أدركت سلوى مع

الوقت أن آدم لن يكون لها أبدًا. ولم يكن لها أن تطارده من البداية. منذ خمسة عشر عامًا كانت شابة يافعة ناضرة إن أعجبها أحدهم اكتفت بنظرة إليه وهي تعلم أنه سوف يطاردها. لم تعد تلك الأساليب مجديةً إذًا. المرأة لا تشعر بأنها كبرت لعدد سنوات عمرها أو لضعفٍ يصيب صحتها، المرأة تشعر بالشيخوخة فقط عندما تعجز عن الحصول على الرجل الذي تريده، ولو كانت في العشرين من عمرها.

حتى كان ذلك اليوم الذي تلقت فيه سلوى مكالمة من «داريا لوتشي». «داريا» تعمل منذ فترة للإعداد لـ«بينالي» 2011. منذ شهرين تقريبًا طلبت «داريا» مساعدة الكلية في انتداب أحد الأساتذة من ذوي الخبرة والدراية الكاملة بالفن التشكيلي بصفة عامة للعمل في الـ«بينالي» لمدة عام. كانت تريد شخصًا خبيرًا بمدارس فنون التصوير وعلى اطلاع واسع بالمشهد المعاصر الخاص بفناني الشرق الأوسط. كان على سلوى بحكم موقعها أن تُرشح أستاذًا أو أكثر للاختيار. اليوم تلقت سلوى مكالمة طويلة طلبت فيها «داريا» أن تقابل المرشح أو المرشحين في نفس الأسبوع وعلى وجه السرعة.

شعرت سلوى بحيرة شديدة. المواصفات المطلوبة لا تنطبق إلا على آدم فقط. هو الوحيد الذي يجمع بين العلم والفن. يعرف كل الفنانين التشكيليين عالميًا وعربيًا. ثم إنه هو أيضًا الوحيد الذي ليس له عائلة في مصر، بمعنى أنه يستطيع أن يحزم حقائبه ويسافر في اليوم التالي مباشرة. مما زادها حيرةً وخوفًا أيضًا. أولًا فهي لا تريد

أن تُفاتحه في موضوع آخر. ما زالت تشعر بجرح لكرامتها الأنثوية فلا تريد أن تبحث هي عنه لتقدم له عرضًا جديدًا. وماذا لو فشل الموضوع؟ هل سيُلقي باللوم عليها مرة أخرى؟ وثانيًا السؤال الأهم: ماذا لو تم اختياره بالفعل وسافر؟ هل سيعود؟ هل ما زالت متعلقة به؟

تمنت أن تُخرج نفسها من الموضوع كله. فقط إلحاح «داريا» أن تقابل المرشح خلال نفس الأسبوع وسريعًا هو ما ضغط عليها. لقد وعدتها من قبل بترشيح بعض الأساتذة، ولن تستطيع أن تتراجع الآن و«داريا» في الطريق. باتت ليلتها تفكر في الموضوع. بعد الفجر راودتها فكرة جيدة، تستطيع أن تترك الأمر للدكتور عماد بصفته رئيسًا للقسم، وتبقى هي بعيدًا. كان حلًّا بسيطًا ولكن ماذا سيكون رد فعل آدم عندما يستدعيه عماد؟ بل ماذا سيحدث لو رشح عماد شخصًا آخر وأهمل آدم تمامًا. آدم يعرف بالطبع أن هذه البعثات والترشيحات تخرج من مكتبها هي. ثم إن «داريا» صديقة شخصية لها وهي وعدتها أن تكون معها حتى يقع الاختيار على الشخص المناسب.

لم يكن هناك مفر إذًا. ستُرشح آدم ومعه أُستاذين آخرَيْن و«داريا» تختار مَن تريد. انتظرت حتى وصلت لمكتبها وبدأت تفكر فيمَن يصلح من الأساتذة. بعد جهد شديد استطاعت الوصول لاسمين. لم يكونا بأي حال من الأحوال كآدم، ولكن ما باليد حيلة. كانت تعلم يقينًا أن هذه الفرصة ستذهب لآدم. ولذلك فلم تخبر بها العميد ورؤساء الأقسام. أرادت سلوى أن تقابل «داريا» المرشحين بشكل

ودي حتى تختار منهم مَن تريد. بعدها سيكون على مَن تم اختياره أن يسوي أموره مع إدارة الكلية بطلب إجازة. بعد نصف ساعة فقط قابلت سلوى المرشحين الآخرين دكتور علي ودكتورة هناء. أَبْدَيَا موافقة مبدئية على المقابلة وشَكَرَا سلوى على الترشيح. دكتورة هناء أبدت تحفظًا شديدًا على فكرة السفر وحيدة إلى إيطاليا بعيدًا عن زوجها وأولادها، واقترحت إن تم اختيارها أن تعمل من القاهرة وتسافر على فترات. بالطبع لم يكن لسلوى أن تقبل أو ترفض وتركت الأمر كله لـ«داريا».

بقي آدم. لم تتحدث معه منذ شهرين تقريبًا. ألهذا جاءت اليوم للكلية في قمة أناقتها؟ تركت مكتبها وذهبت لدورة المياه لتعدل من هندامها وتضبط وجهها ببعض مساحيق التجميل. بعدها أضافت بعض قطرات من عِطرها المفضل. مرت سلوى بمكتب آدم ولكنه كان مغلقًا كالعادة. عادت لمكتبها واتصلت بهاتفه المحمول. جاءها صوته متعجبًا ومستفهمًا. عرفت أنه ليس في الكلية. طلبت أن تقابله لأمرٍ هام. أخبرها بأنه سيأتي لمكتبها في الكلية.

ساعة كاملة مرت عليها كشهر. حتى جاء فخفق قلبها بشدة. تلعثمت ولم تعرف كيف تبدأ حتى سألها هو. حاولت جاهدة أن تزيح مشاعرها جانبًا وأن تتعامل بشكل رسمي:

- دكتور آدم، «داريا لوتشي» صديقتي القديمة من «بينالي» البندقية عندها فرصة عمل لفنان وأستاذ على دراية كافية

بمدارس الفن التشكيلي والفنانين العالميين والمعاصرين. وأعتقد أنك أنسب شخص لذلك المنصب.

- أي منصب؟ ما هي الوظيفة؟

- تعمل بـ«بينالي» البندقية لمدة عام.

- ومَن قال إنني الأنسب؟ أعتقد أن هناك جهات أخرى تعرف الأنسب.

- هذه المرة...

- لا توجد هذه المرة. أرجوكِ تكلمي مع دكتور عماد أو مَن اختاروه لرئاسة القسم، بالطبع هم أدرى.

- هذه المرة الموضوع غير رسمي، وأنا الذي أُرشح و«داريا» التي ستختار.

- وهل ترشيحك نهائي؟ هل أبلغتِ «داريا» باسمي.

- الحقيقة أنني رشحتك أنت ودكتور علي ودكتورة هناء، وسوف تقوم «داريا»...

هنا وقف آدم واستعد للرحيل.

- إذن أبلغيهم سلامي وتمنياتي لهم بالتوقيق.

- دكتور آدم أرجوك، كنت فقط مضطرة لإرسال عدة أسماء، ولكنني متأكدة...

- كلنا كنا متأكدين من قبل. لا يوجد شيء مؤكد. ما المطلوب مني بالضبط؟

- «داريا» ستأتي إلى القاهرة غدًا ومعها لجنة صغيرة للقاء المرشحين والاختيار. أرجو فقط أن تقابلها.

- اسمي وأعمالي وتاريخي معروفة للجميع. لست مستعدًّا بعد كل ذلك أن أذهب لمقابلة عمل كأي خريج جديد، شكرًا لاهتمامك.

قالها وخرج قبل أن ينتظر ردًّا. لم يعد هناك مفر. سترسل الاسمين الباقيَيْن، فإن اختارت «داريا» أحدهما كان بها. وإن لم يكن، ساعتها ستفتح الموضوع مرة أخرى مع آدم العنيد!

10

الثلاثاء 17 أغسطس 2010

فندق ماريوت بالزمالك – القاهرة

في الشـرفة الواسـعة المطلة على النيل جلس «باولو جارديني» مع مسـاعده «ماركو» و«داريا» ود. سلوى. كان الفريق الإيطالي قد وصل فجـرًا ونـام الجميع بضع سـاعات قليلة قبل أن توقـظ «داريا» الجميع للقـاء د. سـلوى. اجتمعـوا على مائـدة الإفطار وظهر التذمـر واضحًا علـى وجه «جاردينـي» وهو يتذوق القهوة. بسـرعة نـادى على النادل وسـأله عن هذه القهوة العجيبة، فعرف منه أنها قهوة سريعة التحضير. احتقن وجهه وكأنما شـعر بالإهانة. قام «ماركو» بسرعة وشرح للنادل أن «جارديني» يريد «إسبرسو» من القهوة الإيطالية بأي شكل. انصرف النـادل وهـو يحاول أن يفهم مـا قاله له ذلـك الإيطالي بلغـة إنجليزية ولُكنة إيطالية مميزة. الوحيدة التي لـم تكن تأكل هي د. سـلوى. كانت صائمة؛ حيث إن ذلك اليوم كان يوافق السابع من شهر رمضان.

دقائق وحضرت د. هناء حسـب الموعد المُتفق عليه. بدت كشـابة رقيقـة وكما أخبرت سـلوى الجميع فهي فنانة وأسـتاذة مميـزة أيضًا. منـذ اللحظة الأولـى التي ظهرت فيهـا هناء فقد خطفـت كل الأنظار.

فقد دخلت للشرفة وهي تهرول كمن يبحث عن طفل تائه في حديقة كبيرة ممتلئة بالناس يوم العيد. تنظر في كل اتجاه كأنها جاءت متأخرة لساعات، مع أنها جاءت قبل موعدها بدقائق. كانت تحمل حقيبة يد كبيرة في إحدى يدَيْها وتهرول وهي تبحث بعينيها عن د. سلوى، بينما ظل عقلها مشغولًا بمكالمة هاتفية كانت تجريها أثناء البحث. كادت تسقط أرضًا عندما اصطدمت بإحدى الموائد وهي تشير بيدها ذات الحقيبة لسلوى. هرولت نحوهم وسلمت على الجميع وهي ما زالت تُكمل المكالمة. عندما جلست أسرعت بإنهاء المكالمة والاعتذار للجميع.

- لقد جئتُ خصيصًا من بيتي لأقابلكم، من المفترض أنني في إجازتي السنوية. آسفة جدًّا، لقد كنت مشغولة على ابني الأصغر، فدرجة حرارته عالية ولا بد أن يأخذ مضادًّا حيويًّا، فكنت أصفه للمربية على الهاتف.

هدأتها د. سلوى وعرَّفتها بالفريق وشرحت لها أنهم يبحثون عن فنان مصري معاصر ليعرض بعض أعماله كما يقود العمل مع بعض الفنانين العرب في «بينالي» البندقية الرابع والخمسين عام 2011. شرحت «داريا» لهناء أن الـ«بينالي» يُقام كل عامين، وهو من أهم وأعرق المعارض الفنية في العالم. كما شرحت لها أن الـ«بينالي» المقبل سيُقام في نوفمبر 2011، وأن أمامهم عامًا كاملًا من العمل الشاق والتجهيزات. كادت د. هناء أن ترد إلا أن هاتفها سبقها برنين

مزعج. اعتذرت وعادت لمكالمة المُربية مرة أخرى وشرحت لها كيف تُجهز المضاد الحيوي وكيف تعطيه للطفل. كما طلبت منها أن تتأكد من بقائه في فراشه، واختتمت المكالمة ببعض التعليمات الأخرى قبل أن تُعاود الاعتذار للجميع.

- إنه بالطبع شرف لي أن أشارك في مثل هذا الـ«بينالي» العظيم. أي فنان لن يترك أبدًا هذه الفرصة.

- د. هناء هل يمكن أن نرى بعض أعمالك؟ هل عندك موقع إلكتروني عليه بعض الأعمال؟

اندفعت د. هناء بحماس نحو «داريا» وهي تعرض لها بعض الصور على هاتفها المحمول وتشرح لها أبعاد اللوحات والألوان المستخدمة والدلالات. للمرة الثالثة والرابعة عاد هاتفها ليقاطع الجميع، وظلت هناء ترد ثم تعتذر، ثم ترد ثم تعتذر، حتى ظهر الضيق على وجه «جارديني». لم يتمكن «جارديني» بعد من إلقاء سؤال واحد على هذه الفنانة المصرية المشغولة.

- د. هناء، هل هناك معرض أو متحف فني فيه قِطَع فنية أصلية هنا لتأخذينا إلى جولة فيه؟

- بالطبع، هناك الكثير من المعارض هنا في منطقة الزمالك، كما أن هناك العديد من اللوحات العظيمة عندنا في الكلية، وفي دار الأوبرا، وفي متحف الفن المعاصر.

ظهر السرور على وجه هناء وسلوى و«داريا»، بينما ظل وجه «جارديني» خاليًا من أي تعبير كأنما ينتظر كلمة لم يسمعها بعد. كادت هناء أن تُكمل قبل أن يهاجمها هاتفها مرة أخرى، وهنا صرخ «جارديني» بصوت أعلى من رنين الهاتف نفسه:

- هل هناك متحف يضم مقتنيات عالمية أصلية؟

- نعم بالطبع، هناك قِطَع أصلية في متحف الفن المعاصر ومتحف خليل...

هنا اعتدل «جارديني» كمن لسعته حية فجأة وسألها قبل أن توقف رنين الهاتف وتجيب:

- ما هو متحف خليل؟

اعتذرت هناء وعادت لهاتفها تشرح للمربية كيف تسلق الكوسة وتعد الشوربة وتنظف الشرفات قبل أن تعود هي للمنزل. وكالعادة، وقبل أن تعتذر باغتها «جارديني»:

- لا توجد مشكلة، قلتِ «خليل...»، ما هذا المتحف؟

- هو متحف لأحد كبار مُقتني اللوحات في مصر في الخمسينيات على ما أظن. وأعرف أن فيه قِطَعًا أصلية كثيرة.

- هل زُرْتِه؟

- مرة واحدة منذ زمن طويل، لماذا تسأل عنه؟

- في الحقيقة لقد سمعت الكثير عن هذا المتحف. إن فيه لوحة لـ«جوجان»، وهو فناني المُفضل.

- أعتقد فعلًا أن هناك لوحة لـ«جوجان» على ما يبدو.

- أعتقـد أن أي فنان مصري يُقدر الفن ويريد أن يعمل في مكان كـ«بينالـي» البندقيـة يجـب عليـه أن يعـرف القِطَـع الأصليـة الموجـودة فـي محيطـه. هـل تأخذيننـا إلـى جولـة فـي هـذا المتحف؟

- آه، طبعًـا، ولكن للأسـف فالولد طريح الفراش، سـأحاول أن أزور المتحف معكم غدًا أو بعد غد.

ظهـر الضيق على وجه «جارديني»، يبـدو أنه يجب أن يأخذ ميعادًا من هـذه المصريـة قبـل وصولـه بشـهر. هنا تكهـرب الجو وسـكت الجميع. قطعت «داريا» السكوت وسألت هناء سريعًا:

- إن حصلتِ على هذه المنحة وعملتِ معنا لعام هل سـتتركين ابنكِ وزوجكِ؟

- لقد كنت أنوي أن أسـألكِ هذا السـؤال، هل أستطيع أن أعمل هنا وأسافر على فترات؟

ساد الصمت مرة أخرى، فعادت «داريا» لإنهاء الحوار كله بالضربة القاضية:

- عمومًـا عندنـا اجتماعات مع بعـض الفنانين، ومـع نهاية هذا

الأسبوع سأقرر مَن الأفضل لهذه المهمة. لقد تشرفت بلقائك.

وكما جاءت هناء مُهرولة فقد غادرت مُهرولة أيضًا. جميع نزلاء الفندق سمعوا مكالمتها مع المُربية ودعوا لابنها بالشفاء. بعد أن غادرت بدا الضيق على وجوه الجميع. وبدأت سلوى في الدفاع عن نفسها:

- والله هناء فنانة جميلة ومُطَّلعة لأقصى حد. هي فقط مشغولة ببيتها وأولادها.

- وهل مُرشحكِ التالي مشغول أيضًا؟

- لا، د. علي متفرغ تمامًا للفن والرسم والتدريس. هو على وصول الآن.

انتظر الجميع د. علي الذي لم يظهر لنصف ساعة كاملة. بل إنه حتى لم يتصل بسلوى للاعتذار. بادرت هي بالاتصال به، فإذا هو يُجيبها بأنه على وشك الوصول، وأنه تأخر في المواصلات. ظهر الضيق على وجه سلوى وهي تطلب منه الحضور بأسرع ما يمكن. بعدها بدقائق ظهر د. علي بمظهر غريب وملابس رثة، وشعر أشعث طويل. لم يكن ذلك بالغريب عمومًا على مجتمع الفنانين؛ لذا فقد تجاهلوا شكله ودخلوا إلى قلب الموضوع مباشرةً:

- د. علي، هل لنا أن نرى بعض أعمالك؟

- بالطبع، ممكن في الكلية، أو عندي بالمنزل.

- ألا توجد بعض الصور على هاتفك المحمول مثلًا؟

- لا والله، أنا أستخدم هاتفًا بسيطًا ولا علاقة لي بالتكنولوجيا...

قاطَعَتهم د. سلوى:

- أنا عندي صور لبعض لوحات د. علي، سأبحث عنها على موقع الكلية.

- نعم، هناك لوحة لي بيعت بـ10 آلاف دولار في إحدى الدول العربية.

قالها بمنتهى الفخر كأنه يتكلم عن صفقةٍ رَبِحَ منها ملايين الدولارات. بالنسبة لتاريخ «جارديني» الطويل فعشرة آلاف من الدولارات لا تعني أي شيء. بل شعر أنه هو نفسه أو مساعده «ماركو» لو رسم لوحة في ساعتين فسيستطيع أن يبيعها هو بأكثر من هذا المبلغ. عادت «داريا» تسأل د. علي مرة أخرى:

- د. علي، هل أنت متزوج؟ مشغول؟ هل عندك مشكلة في السفر لعام أو اثنين؟

- لا، أنا لست متزوجًا، ويمكنني أن أسافر من الغد إن أردتم. أنا ولوحاتي تحت أمركم وقتما شئتم.

تنهدت سلوى وهي تنظر لـ«داريا» و«جارديني» لترى ردَّ فعل ذلك على الوجوه. إلا أن د.علي باغت الجميع كمَن ألقى كرسيًّا في «الكلوب» كما يقولون:

- أنا أعرف «بينالي» البندقية جيدًا. وهو مكان رائع وعمل عظيم لا يُرفض بالطبع. فكم تدفعون هناك لفنان مثلي؟ وهل تشترون لوحاتي أيضًا أم تدفعون لي ثمنًا لاستغلالها في المعرض؟ يجب أن تضعوا في الاعتبار أنني سأترك بلدي وعملي في الكلية وبعض الأعمال الأخرى من أجل السفر معكم لمدة عام. فأتمنى أن يكون المقابلُ مُجْزيًا.

صمت الجميع مرة أخرى. لم يَرُقِ الكلام لـ«داريا» أبدًا. بينما بدا أن «جارديني» مهتم بذلك الشخص. بالنسبة لـ«جارديني» فأمثال د. علي يمكن شراؤهم بسهولة. حاولت «داريا» أن تشرح له أهمية المعرض والعمل وتجنبت الإجابة براتب مُحدد. لم يَرُقْ ذلك أيضًا لعلي. أوشك اللقاء على الانتهاء وأثناء مصافحة د. علي لـ«جارديني» سأله الأخير عن متحف خليل سريعًا. أجاب بأنه يعرفه بالطبع، وإن لم يكن قد زاره من قبل إلا مرة واحدة سريعة مع بعض الطلبة. شكره «جارديني» فانصرف سريعًا وساد الصمت وسط عدم اقتناع أحد بالمرشح الثاني.

بدا من الواضح أن الجميع لم يجدوا ضالتهم. عزم «جارديني» على أن يزور المتحف في نفس اليوم مهما كلفه الأمر. لقد كان يأمل أن يصطحبه أحد الفنانين ليكون غطاءً جيدًا للزيارة ولا يشك فيه أحد. ولكن في النهاية إن لم يجد ضالته فإنه سيذهب كسائح ويُنهي هذا الأمر بسرعة. نظر «جارديني» لساعته والتي أشارت إلى الحادية عشرة صباحًا. المتحف قريب، وهو يعرف أن موعد الإغلاق هو الثانية ظهرًا.

- د. سلوى، أنا ما زلت أريد أن أرى بعض أعمال د.هناء ود.علي، وأريد أيضًا الاطلاع على أعمال كبار الأساتذة بالكلية وبعض الطلبة المتميزين أيضًا، لقد جئنا في هذه الزيارة لعدة أيام وهدفي العودة بالشخص المناسب. متى يمكن أن نرى المزيد من الفنانين المتميزين، أريد أن يكون أستاذًا أكاديميًّا وأن يكون فنانًا تشكيليًّا في نفس الوقت.

- بصراحة هناك شخص أعلم يقينًا أنه مَن تبحثون عنه ولكن...

- ولكن ماذا؟

- هذه قصة طويلة، المهم أن كرامته تمنعه من التقدم لإجراء مقابلة. لن يتحمل أن يتم رفضه لأي سبب.

- هل لنا أن نرى أعماله وأن تحكي لنا عنه قليلًا؟

وهنا انطلقت د. سلوى في تعداد محاسن د. آدم، وكيف أنه من أهم الفنانين المُعاصرين. أجمَلت وفصَّلت في فضله وعلمه وإتقانه وفنه، وفي لوحاته وتاريخه والجوائز التي حصل عليها.

- هل يعيش مع عائلته؟ هل يستطيع السفر بسهولة؟

- د. آدم وحيد وغير متزوج، ويسافر دائمًا وقتما شاء.

- هل يُجيد الإنجليزية؟

- والدته إسكتلندية.

- هل يعرف متاحف مصر وأماكن عرض أهم القِطَع هنا؟

- يحفظها عن ظهر قلب.

نظر الجميع لبعضهم البعض ثم قامت د. سلوى بإخراج كُتيب عن الكلية وأشارت فيه لبعض أعمال د. آدم والتي لفتت الأنظار بشدة حتى أن «جارديني» نفسه خلع النظارة الطبية والتقط الكتيب من د. سلوى وظل يحدق في إحدى اللوحات لفترة مُبدِيًا دهشة وإعجابًا شديدَيْن.

- أريد أن أرى مستر آدم فورًا، الآن.

- لو حاولت أنا الاتصال به فلربما لن يرد...

قاطعتها «داريا» مُخرجةً هاتفها المحمول:

- أعطيني رقمه وأنا سأتحدث إليه وسأقنعه بالحضور فورًا.

- أعتقد أنه لن يأتي.

دوَّنت «داريا» الرقم على هاتفها وقامت مُبتعدة عن الجميع وهي تطلب د. آدم على هاتفه. انزوت في ركن من أركان المقهى. لم تفلح المحاولة الأولى ولم يرد. لم تيأس، حاولت للمرة الثانية. وهنا رد فورًا بالإنجليزية:

- صباح الخير، د. آدم عبد البديع يتحدث، مَن معي؟

11

بعد ساعة واحدة حضر د. آدم للفندق بعد مكالمة «داريا» ووسط دهشة سلوى. فهم الجميع منذ الوهلة الأولى أنه ليس كسابقيه. بدا الاهتمام الشديد على وجه «جارديني»، يبدو أن آدم هو الشخص المناسب، سيقنعه بسهولة أن يصطحب الجميع إلى جولة في متحف خليل، وهناك سوف يجد ضالته أمامه ويدرس المكان جيدًا.

قبل حضور آدم، أكدت سلوى للجميع أن آدم لا يجب أن يُعامَل كمتقدم لوظيفة، بل كفنان تُقدِّر عمله أولًا وقبل كل شيء. العمل مع الفنانين من أنحاء العالم كان جزءًا أصيلًا من شخصية «داريا»، فهي تعرف التعامل مع شخصية الفنان جيدًا. أغلب الفنانين لهم شخصية شفافة هينة عذبة. تتعامل بالمشاعر والأحاسيس قبل العقل والمنطق. يمكن القول إنه لهذا السبب فإن أغلب الناس يرون من الفنانين مجانين، فاعتبارات الإحساس عندهم أحيانًا تتغلب على المنطق وتنقلب عليه، فيبدو المنطق عندهم مقلوبًا. جُلهم خارجون على المألوف ومتقلبو المزاج، إلا أن أغلبهم يحمل قلوبًا صافيةً جدًّا قد لا يفهمها من يُحَكِّم عقله فقط.

كانت «داريا» تُدرك أن حُسن معاملتهم مع إعطائهم ما يستحقون من التقدير هو المفتاح الحقيقي للدخول إلى عالمهم. لذا لم يكن من الصعب عليها فعل ذلك مع د. آدم، بل إنها أول ما تحدثت عرضت عليه فورًا المشاركة في الـ«بينالي» ببعض أعماله والعمل معهم. ولدهشة الجميع لم يتطرق آدم للتفاصيل ولا للعقد ولا للمال ولا لأي شيء.

- أما عن عرض أعمالي، فهذا شرف كبير لا أستطيع أن أرده. بل إنني مستعد من الآن لإهداء الـ«بينالي» بعضًا من أعمالي. تستطيعون أخذ بعض لوحاتي معكم عند عودتكم. عليَّ أن أرسل المزيد لاحقًا، أما عن العمل فأريد أن أعرف المطلوب مني تحديدًا، وسأرد عليكم الأسبوع المقبل.

تحدث «جارديني» لأول مرة:

- سنيور آدم، لا أنكر أن أعمالك متميزة للغاية، لم أرَ من قبل مثل هذه اللوحات العبقرية من أحد فناني الشرق الأوسط، أنا بصفتي جامعًا للأعمال الكبيرة، أريد أن أرى المزيد من أعمالك، كما أنني أريدك أن تأخذنا جميعًا في جولة لأهم متاحف الفن في القاهرة، هل تعرف متحفًا فيه قِطَع أصلية هنا؟

- بالطبع، هناك العديد من المعارض والمتاحف ومعظمها ليس بعيدًا عن هنا.

- لقد سمعنا عن متحف خليل، هل تعرف المكان والقِطَع الأصلية فيه؟

ابتسم آدم وهو يؤكد أنه يعرف المكان وتاريخه وكل قطعة فنية فيه.

لم ينتظر «جارديني» كثيرًا، وأشار للنادل بطلب حساب الإفطار.

- ما رأيكم؟ لنذهب هناك الآن.

انطلق الجميع لمدخل الفندق حيث اصطفت سيارات الأجرة متأهبة لنقل نزلاء الفندق. سال لُعاب السائقين حين رأوا هذا الجمع من الأجانب. استقلوا سيارة أجرة وتبعتهم د. سلوى بسيارتها الخاصة. استغرقت الرحلة حوالي نصف الساعة وسط الزحام الطبيعي في القاهرة في ذلك الوقت. حين وصلوا كانت عقارب الساعة بالفعل تشير لربع ساعة بعد الواحدة ظهرًا. اشتروا تذاكر دخول المتحف من الموظف الذي لم يكن موجودًا في مكانه وكان عليهم البحث عنه. حاول آدم الاتصال بصديقه عبد القادر، إلا أن الأخير لم يرد على الهاتف. اصطحب آدم الجميع في جولة سريعة. «جارديني» كان يعرف أن المتحف يُغلق أبوابه في الثانية عصرًا، فأراد أن يستغل كل ثانية. منذ وطئت قدماه خارج سيارة الأجرة مسح المنطقة بعينيه. أدرك أن المتحف مقام في قصر كما رآه في الصور. قلب بصره بين المباني الحكومية عن يمينه ويساره. من حيث دخلوا ساحة القصر رأى هناك مبنى ملاصقًا للقصر من جهة اليمين. وهناك مبنى آخر من جهة اليسار يفصل بينه وبين القصر شارع صغير. استمر «جارديني»

في مسح المنطقة والمداخل والمخارج والحراسة وكل التفاصيل الصغيرة والكبيرة. وما إن دلف إلى القصر حتى أصابته الدهشة، لم يجد أي شخص بالداخل! المعتاد لـ«جارديني» أن مثل هذه المتاحف يكون لها حُرَّاس من الداخل والخارج، هذا بالإضافة للعشرات من الزائرين. كما أنه سمع من آدم أن صديقه مدير المتحف له مكتب في المتحف. تمنى ألا يكون المتحف عامرًا بالموظفين، إلا أنه لم يرَ أي أحد إطلاقًا.

- هل أنت متأكد أننا في المتحف؟ هل هذا متحف؟!
- نعم طبعًا، أنا آتي هنا طوال الوقت.
- وأين القِطَع الفنية والبوابات الإلكترونية والحراس والأمن والإرشادات والملصقات والكتيبات؟! ثم أين الزائرون؟!

انفجر د. آدم في نوبة ضحك عالية فرجَّت ضحكته أرجاء القصر مُصدِرةً صدى صوت كما يحدث في الأماكن المهجورة. المكان كان خاليًا بالفعل إلا من تمثال كبير توسط البهو الرئيسي للقصر.

- وكأنك تتحدث عن اللوفر.
- وأين اللوحات؟
- يوجد خمس قاعات صغيرة بهذا الطابق، وهناك مكاتب إدارية بالطابق الأسفل، ولكن السحر كله بالطابق الأعلى.. سترى الآن.

تأمَّل «جارديني» المكان حوله بعناية. مسح المداخل والمخارج ورأى السلم المؤدي للدور الأسفل حيث توجد المكاتب. ارتاح عندما فَهِم أن الموظفين تقريبًا معزولون عن المتحف نفسه. شعر بالارتياح ولكنه ظل يرسم المكان بدقة في ذاكرته، كل ركن وقاعة، كل شباك أو سلم، كل كاميرا مراقبة أو جهاز إنذار، كل باب، وهل هو مفتوح أم مغلق. بدا له القصر بالفعل مهجورًا، قليل الإضاءة، ولا يوجد أي حراس بداخله.

- لو أن هذا بالفعل متحفٌ ونحن الآن على وشك مشاهدة أعمال «جوجان» و«فان جوخ»، فأين الزائرون؟ متحفٌ كهذا يقف على بابه الزائرون بالساعات في أي مدينة في العالم!

- القاهرة ليست كأي مدينة في العالم، وكذلك متاحفها ليست كمثيلاتها حول العالم. مرحبًا بك في مصر سنيور «جارديني»، لو سألتَ الناس في الشارع هنا أمام المتحف فأغلبهم لن يعرف أن هذا متحفٌ من الأصل!

ثم استطرد قائلًا:

- بل إن أغلبهم لن يعرف «فان جوخ» أو «جوجان» أصلًا، هم يعرفون «أورتيجا وأوكا» فقط.

- مَن؟

- لا تُبالِ، هيا بنا، أمامنا أقل من ساعة والتحف الفنية الأصلية هنا كثيرة وعظيمة.

قالها وهو يقود الجميع كمرشد سياحي. ظهر الانبهار الشديد على وجه «داريا» و«جارديني». بينما ظل «ماركو» ينظر حوله ويتلفت كثيرًا بدون هدف واضح. أما سلوى، فكانت تشعر بعدم الاكتراث كمصري يعيش في منطقة الهرم يصطحب سائحًا ليرى الهرم للمرة الأولى فينبهر السائح، بينما المصري يراه يوميًّا فلا تثير رؤية الهرم لديه أية دهشة. ظل آدم يتحدث بحُب وفخر عن قاعات المتحف ومقتنياته كمن يتجول مع أصدقائه بين حجرات بيته الكبير الجديد وهو يحكي لهم عن أصل وتاريخ كل لوحة وسجادة وتمثال، وكأنه هو مَن اشتراها بنفسه.

- هذا الدور الأول يحتوي على ثماني قاعات: منها قاعة تحتوي على لوحة «الحياة والموت» لـ«جوجان»، وقاعة أخرى خاصة للوحة «فان جوخ» الشهيرة «آنية وزهور».

قالها وهو يقترب من باب إحدى القاعات. كان الباب مواربًا فدفعه بيده وطلب من الجميع الدخول. لم تكن القاعة كبيرة، إلا أنها احتوت على بعض الكراسي ليجلس الزائرون عليها أثناء الزيارة. أول ما لاحظ «جارديني» أنه توجد كاميرا بالقاعة، ولكنها تبدو قديمة وغير موجَّهة نحو باب القاعة كما هو مُتبع. كما لاحظ أن مستوى عرض اللوحة عالٍ جدًّا. كيف يمكن لأي فنان أن يتأمل لوحة كهذه وهي أعلى بكثير منه؟! حتى لوحة الموناليزا معروضة في اللوفر بشكل يُتيح للجميع أن يراها ويستمتع بكل تفاصيلها. وبالطبع فمحاولة سرقة لوحة بهذا الشكل لن تكون سهلة.

- لماذا تُعرض تحفة فنية كهذه على مثل هذا الارتفاع؟ ماذا عليَّ أن أفعل لأستمتع بها؟

قالها «جارديني» والتفت فجأة وفاجأ الجميع بحركة غريبة. لقد اندفع كشاب في العشرين من عمره ودفع أحد المقاعد الكبيرة المخصصة لجلوس الحضور. قام بدفع المقعد الكبير حتى واجه اللوحة وصعد فوقه وسط دهشة الجميع وظل يتأمل اللوحة كحبيب وجد حبيبه بعد فراق طويل. نظر الجميع نحوه باندهاش. قال ببرود شديد بدون أن يرفع عينيه عن اللوحة:

- أنا آسف، ولكني أعاني ضعفًا شديدًا أمام لوحات «جوجان»، خاصة أعماله في...

- الجزر الفرنسية في المحيط الهادي، يبدو ذلك واضحًا جدًّا، هذه اللوحة تسمى «الحياة والموت»، رسمها «جوجان» سنة 1889.

- نعم، بالطبع، فهذه المعلومات مكتوبة هنا تحت اللوحة، ما لا تعرفه أن لهذه اللوحة اسمًا آخر.

- نعم، هي أيضًا تُسمى «المُسْتَحِمَّات» أو «السابحات»، هناك لوحات لـ«جوجان» كَتب أسماءها عليها بنفسه، أما الباقي فبعضها له اسم أو اثنان، ولكن مما لا شك فيه أن لوحات «جوجان» في فترة الجزر الثانية مميزة للغاية، حتى أنني أستطيع أن أُحدد سنة رسم اللوحة وإن لم يكتبها «جوجان» عليها. هذه اللوحة سافرت أكثر من مرة للعرض في معارض ومتاحف عالمية. مثلًا، شاركت في معرض خاص لأعمال «جوجان» بمدريد عام 2004. شارك في هذا المعرض حوالي 63 متحفًا عالميًّا من 17 دولة. لقد كنتُ هناك...

- وأنا أيضًا!

- ثـم عُرضت بمعـرض آخر في متحـف «فيتوريانو» عندكم في روما عام 2008.

- هنا توقف «جارديني» عن التأمل في اللوحة ونظر لآدم بانبهار لأول مرة.

- هل درسـت «جوجان» بعنايـة؟ أم أنك أيضًا تعرف أعمال كل كبار الفنانين على نفس القدر؟

- لا يسـتطيع مخلـوق أن يدَّعي أنـه يعرف أعمـال كل الفنانين. أمـا أنـا فالدائرة عندي تتسـع لكل فنان أحببتـه منذ كنت طفلًا حتى اليـوم. منهم كبار الفنانين العالميـن والمحليين. أعرف المشـهورين منهـم والمغمورين. منهم مَن ماتـوا ومنهم حتى بعـض طلبتي في الكلية! ولكـن المؤكد أنني أعرف تاريخ كل قطعـة في هـذا المتحـف أكثر من محمـد محمود خليـل ذاته رحمه الله! والمرحومة حرمه أيضًا...!

هنا قاطعته «داريا» بانبهار:

- عظيـم، أعتقد الآن أننـي وجدت بالفعل ما أبحـث عنه. ليتك تنضم إلينا من الغد إن أمكن.

قاطعته د. سلوى بسرعة:

- د. آدم أستاذ بالكلية ويجب أن يُكمل العام الدراسي مع الطلبة و...

- د. سلوى، هل تُرشحين لنا د. آدم ثم تتراجعين هكذا سريعًا؟!

أدار د. آدم رأسه بين الاثنتين باستغراب ولم يعلق، بينما انشغل «ماركو» بملاحظة كل ركن في الغرفة وظل «جارديني» يتأمل اللوحة ثم أشار لـ«ماركو» ليساعده على النزول. نزل فرأى آثار قدميه على جلد الكرسي. التفت حوله حتى وجد منديلًا من القماش في جيب «ماركو» فسحبه ونظَّف مكان قدميه وأعاد المنديل مكانه وهو يربت على كتف «ماركو» مُعتذِرًا ببراءة شديدة.

تقدم آدم الجمع مرة أخرى لخارج القاعة. أدرك «جارديني» أن الوقت يمضي ولم تقع عيناه بعد على هدفه الأول والأهم. كانت عقارب الساعة تقترب من الثانية بالفعل. يوشك المتحف أن يُغلق أبوابه بعد قليل ولم يرَ لوحة «فان جوخ» بعد. لو لا أنه يسعى خلف تحفة «فان جوخ» لقضى يومه كله هائمًا في رائعة «جوجان».

طلب «جارديني» من آدم أن يرى لوحة «فان جوخ» فتقدم آدم خطوات وفتح بابًا آخر كان مُغلَقًا ودلف إلى قاعة أخرى مثل سابقتها.

- هل من الطبيعي ألا يكون هناك حُرَّاس أو زائرون؟! هل من الطبيعي أن أبواب القاعات مغلقة كأنها ممنوعة أو مهجورة؟!

ابتسم آدم وتجاهل السؤال:

- وهذه هي التي تسأل عنها!

12

تقدم «جارديني» الجميع للقاعة رافعًا عينيه لمستوى اللوحة. كانت قاعة كبيرة مطلية بطلاء أسود قاتم يعطي انطباعًا بالرهبة. الغريب أن اللوحة بدت صغيرة جدًّا لـ«جارديني». أصغر مما تصور. عجيب أمر «فان جوخ»، بالتأكيد لم يكن يتخيل أن لوحة صغيرة رسمها في ساعة كتلك سيأتي عليها اليوم التي يقدر ثمنها فيه بالملايين. لعله أعطاها لنادلٍ في حانة صغيرة مقابل أقداح شراب بسيطة. ها قد جاء اليوم الذي عرفه فيه العالم أجمع، ولكن للأسف لم يعش هو هذا النجاح قط في حياته.

تقدم «جارديني» نحو اللوحة بهدوء. كانت أيضًا عالية بحيث لا تصل إليها يد أي مُتفرج. هذه المرة اللوحة صغيرة وعالية، كيف يمكن لزائر أي متحف محترم أن يرى اللوحة؟ من الممكن أن يضعوا حاجزًا بسيطًا يقف خلفه المتفرجون. ولكن أين هم هؤلاء «المتفرجون»؟ الآن تذكر ما قاله له الوسيط في البندقية. لقد أكد له أنها عملية بسيطة. لم يُصدقه حينها. بعد كل ذلك العمر الذي قضاه مُتنقلًا بين المعارض والمتاحف لم يرَ في حياته قصرًا مهجورًا مليئًا بالتحف والكنوز كذلك القصر!

- وكيف لي أن أرى تفاصيل تلك اللوحة الصغيرة وهي على هذا الارتفاع؟

- اسحب الكرسي كما فعلت مع لوحة «جوجان».

- أشعر أنني في بيتي، وأن هذا هو اليوم الأسبوعي المخصص للنظافة؛ حيث ندفع الأثاث بمنتهى الأريحية! هل ذلك بالفعل هو أهم متحف فني في القاهرة؟!

- هو أهم متحف فني، ولكن الوضع أفضل قليلًا في المتحف المصري المعني بالآثار الفرعونية.

ابتسم آدم ابتسامةً باهتة. وبالفعل دفع العجوز أحد المقاعد الوثيرة ووقف عليها وراح يتأمل اللوحة.

- هذه اللوحة ليست بالأهمية التي يعتقدها البعض. هي لوحة صغيرة وعادية لـ«فان جوخ». أعرف أن هناك مَن يشيع أنها ليست أصلية.

- إنها أصلية بالفعل، أنا متأكد. لقد درست فن «فان جوخ» وأعرف ضربات فرشاته واتجاهاتها. أعرف درجات ألوانه بدقة، كذلك أستطيع أن أحدد عمر اللوحة. هذه اللوحة أصلية.

للمرة الثانية نظر «جارديني» بانبهار لآدم:

- ما ذكرته صحيح بالفعل. أنت بالفعل فنان رائع، لهذا بالتحديد أردتك أن تأخذنا للمتحف. الآن أنا لا أستطيع الانتظار لأرى أعمالك أنت.

- إن كنتَ لا ترى قيمة كبيرة لهذه اللوحة فلا أعتقد أنك سترى أي قيمة لأعمالي.

هذه اللوحة قيمتها فيمَن رسمها، قيمتها ها هنا فقط...

وأشار إلى ركن اللوحة الأسفل من ناحية اليسار حيث إمضاء «فان جوخ»، لا يكاد يُرى إلا بعد جهد وتدقيق في اللوحة. الإمضاء باللون الأحمر الداكن فوق خلفية من اللون البُني.

- مسكين «فان جوخ»، عبقري يتقاتل الناس على امتلاك أعماله بالملايين، بينما مات هو وحيدًا فقيرًا مكتئبًا.

- هذه هي الحياة، بالفعل فهي غير عادلة، وهل تعتقد أن «فان جوخ» هو الفنان الوحيد الذي عانى في حياته؟ بعد عمري الطويل بين الفنانين أستطيع أن أقول ببساطة إن أغلب الفنانين الحقيقيين عانوا مثلما عانى «فان جوخ». لم يكن هو حالة فريدة بين الفنانين. أغلبهم عانى من الفقر والإهمال والاكتئاب.

صمت آدم تمامًا. لقد أصابته كلمات «جارديني» فلم يستطع أن يرد ولو بكلمة. ومثلما حدث في القاعة السابقة فقد ساعد «ماركو»

«جارديني» على النزول. وقف العجوز بجوار المقعد وراح ينظر حوله في القاعة. لم يكن هناك ما يلفت الانتباه إلا تفصيلة صغيرة جدًّا. لم تكن هناك أي كاميرا مراقبة في القاعة أصلًا. راح ينظر للوحة وكأنها تدعوه لأخذها معه بمنتهى البساطة. راح يتخيل اللوحة وهي تستغيث به. تذكَّر لوحة «جوجان» أيضًا. لَيْتَه يستطيع الحصول على اللوحتين معًا. لا تبدو هذه الفكرة جيدة الآن بعدما علم الجميع حبه واهتمامه بفن «جوجان».

اكتملت الصورة في ذهن «جارديني». الآن يعرف العجوز خطواته القادمة. كانت ساعته تقترب من الثانية وهو موعد إغلاق المتحف. فجأة سمع الجميع وقع أقدام قادمة على سلم المتحف. من مميزات هذه المباني القديمة الخالية أنك تسمع بوضوح وَقْعَ الأقدام، اللهم إلا إذا ارتدى صاحبها حذاءً رياضيًّا. تقدم «جارديني» الجميع للخروج من القاعة بسرعة، وبالفعل وجد رجلًا أربعينيًّا يصعد السلم بصعوبة ولا يكاد يتنفس من الإجهاد. كان آدم آخر مَن خرج من القاعة وأغلق الباب والتفت نحو القادم نحوهم بسرعة فإذا به صديقه عبد القادر.

- يا لها من مفاجأة سارة!

- طبعًا أنت متفاجئ أن هناك زوارًا في المتحف.

- لا، أنا متفاجئ أن صديقي العزيز هنا وأنا آخر مَن يعلم.

- راجع هاتفك، لقد حاولت بالفعل الاتصال بك أكثر من مرة ولكنك لم ترد.

- آه، لقد كنت أُصَلي الظهر...
- تُصَلي؟ ثم، تُصَلي الظهر؟ منذ متى وأنت تُصَلي أصلًا؟
- المسجد بعيد، والإقامة بعد الصلاة بنصف ساعة.
- وأيضًا تُصَلي في المسجد! بسم الله ما شاء الله!
- بالطبع، إنه رمضان، كل عام وأنتَ بخير، صائم أم مثل كل عام؟!
- آه، فهمت، تقبل الله، لا طبعًا.. مثل كل عام!

انتبه آدم أنه نسي رفاقه واندفع بحديثه بالعربية، وبالطبع لم يفهم أحد ما قيل إلا د. سلوى. عاد آدم للتحدث بالإنجليزية وعرَّف آدم الجميع بصديقه عبد القادر مدير الأمن بالمتحف. سلم عبد القادر على «جارديني» و«ماركو» و«داريا». سألهم عما شاهدوا في المتحف وعرف أنه لم يتسنَّ لهم الاستمتاع بالقاعات ولا باللوحات العالمية والمصرية فيه. أخبرهم عبد القادر أن هناك موظفة ستقوم بإجراءات إغلاق المتحف. وَعَدُوه بتكرار زيارة المتحف قبل مغادرة مصر. غادر الجميع القصر. هذه المرة خرجوا من الباب الخلفي إلى حديقة صغيرة ومنها إلى خارج القصر ناحية النيل.

ودَّعَت د. سلوى الجمع واعتذرت بأن عليها أن تعود لبيتها قبل الزحام المعتاد ساعة الإفطار في رمضان. أمام القصر وعلى شاطئ النيل ظل آدم يشرح لـ«داريا» و«ماركو» و«جارديني» كيف أن هذا

المتحف مجهول بالنسبة لأغلب المصريين، وأن المتحف المصري بميدان التحرير يكاد يكون هو المتحف الوحيد المعروف لدى المصريين. تعجب «ماركو»، فباغته آدم:

- ألا تُصدق؟ سأجعلك تُصدق الآن. ها هو المتحف أمامنا، أنا سأراهن على أنني سأُوقف الآن ثلاثَ سيارات أجرة وأسألهم عن المتحف ولن يعرفه أحد.

- أنا في الحقيقة لا أعرف ولكنها تبدو لعبة ظريفة، لِمَ لا؟ وعلى ماذا تراهن؟

- على إحدى لوحاتي، لو خسرتُ الرهان فسأمنحك أي لوحة من لوحاتي، ولو كسبتُ الرهان فسنذهب جميعًا للإفطار اليوم على حسابك يا «ماركو».

وافق «ماركو» واتجه الأربعة نحو الشارع وأوقف آدم أول سيارة أجرة.

- من فضلك، نريد الوصول لمتحف «محمد محمود خليل وحرمه».

- متحف أم مسجد؟

- لا، متحف.

- أهذا غير مسجد محمود خليل الحصري وحرمه؟

- لا، هذا متحف.

- أين تحديدًا قالوا لك هذا المتحف؟

شكره آدم، إلا أن السائق بدا أنه على استعداد لتوصيلهم لأي مكان على كوكب الأرض. أربعة بملامح أوروبية بينهم فتاة جميلة سيُمثلون عنصر جذب لكل سائقي الأجرة في القاهرة. ولذلك فما لبث أن انطلق سائق الأجرة حتى توقفت عربتان أُخريان للأجرة دفعة واحدة، وكاد السائقان أن يشتبكا من أجل الغنيمة. ذهب آدم للسائق الأول وسأله:

- متحف خليل من فضلك؟

- متحف مَن؟

- محمد محمود خليل.

- مَن محمد خليل هذا؟ في أي منطقة هذا المتحف؟

- في الجيزة.

- إن كنتَ تعرف الطريق تعالوا وسأوصلكم.

- لا، لا أعرف، شكرًا.

- اركبوا وسنسأل عليه.

شكره آدم وابتسم لـ«ماركو» الذي لم يفهم الحوار، ولكن بدا واضحًا أن السائق لا يعرف أي شيء. توجه آدم للسائق الأخير وعلى وجهه ابتسامة ثقة:

- لو سمحت نحن نبحث عن متحف «خليل».

- متحف محمود خليل؟

سكت آدم كمن أصابته صدمة غير متوقعة:

- نعم، أين هو؟

- سلامة النظر يا أستاذ، ها هو أمامك.

وأشار بيده نحو المتحف. وهنا ضحك «ماركو» وظهر الإحراج على وجه آدم. فتح آدم باب السيارة الخلفي وأشار للجميع باستقلال سيارة الأجرة، بينما ركب هو بجوار السائق الذي كانت ملامحه توحي بالتعب والبؤس وأنه في الخمسينيات أو الستينيات من عُمره.

- على الزمالك يا أسطى، ولكن ماذا تعرف عن متحف خليل؟

- في الحقيقة لا شيء، ولم يسبق لي دخوله من قبل، أنا لم يسبق لي دخول أي متحف من قبل في حياتي، ولكني أعرفه، وأعرف أماكن متاحف كثيرة.

- ما شاء الله، أتهتم بالفنون؟

- طبعًا، كلنا يهتم بالفنون.

- مثل لوحات المتاحف مثلًا؟

- لا، أنا مهتم بأم كلثوم، عبد الحليم، وفنون أخرى كثيرة.

- أخرى كثيرة! قُل لي، أنا أحب الفنون مثلك.

- مسلسلات رمضان مثلًا، كل عام وحضرتك بخير.

- آه، وأنت بخير.. يا عم... اسم الكريم إيه؟

- خليل، محسوبك خليل!

13

حاول آدم أن يجادل «ماركو» ويقنعه أن السائق عرف المتحف فقط لأن اسمه خليل، إلا أن «ماركو» أصر أنه كسب الرهان وطلب من آدم لوحة من لوحاته. هنا أشار آدم للسائق بالاتجاه نحو بيته في الزمالك. صعد الجميع درجات السلم القديم نحو بيت آدم وأشارت «داريا» أن هناك تشابهًا كبيرًا بين البيوت القديمة في القاهرة ومثيلاتها بإيطاليا.

- ومَن هؤلاء؟ أعُدت مرة أخرى لدعوة النساء لبيتك؟ طوال عمرك كنت فاسدًا. وفي رمضان أيضًا؟

أَطْلَقَها شكري جار آدم ومالك البيت فجأة أثناء صعود الجميع لبيت آدم. التفت له آدم بأدب:

- هؤلاء أصدقائي.. هم في زيارة لمصر من إيطاليا يا عمي شكري.

- قلت لك مائة مرة إنني لستُ عمك.. كفاك من هذه النجاسة وإلا أبلغت بوليس الآداب.

- آداب؟ كل عام وأنت بخير.. أنا صائم وهؤلاء ضيوفي يا عمـ... أقصد يا أستاذ شكري.

وقف الضيوف مندهشين من الحوار، ولكن آدم أخبرهم بتجاهل الأمر ومواصلة صعود السلم لبيته. كالعادة داعب بعض القطط، شاركته «داريا» في مداعبة القطط هذه المرة قبل أن يفتح باب بيته و يدعو ضيوفه للدخول. بدا منزل آدم كمتحف آخر غير مُرتب. اعتذر لهم عن الفوضى وأشار لهم بالجلوس إلا أنهم انهمكوا في مشاهدة اللوحات المتناثرة في كل مكان. لوحات عُلقت على الجدران، ولوحات أخرى استندت على الحائط هنا وهناك، ومجموعة أخرى كانت بجوار باب الصالون. وبينما هم منهمكون في متابعة مختلف اللوحات فَتح لهم آدم فجأة أحد الأبواب المغلقة:

- في الحقيقة... هذا هو المَرْسَم. هناك العشرات من اللوحات هنا.

اندفع الجميع داخل الحجرة الواسعة بعدما أضاء لهم آدم الأنوار. كانت القاعة عبارة عن حجرة واسعة. امتلأت الجدران بعشرات اللوحات. التفت «ماركو» لآدم مازحًا:

- أي لوحة ستُهديها لي الآن؟

- اختر ما شئت منها.

أُعجب الجميع باللوحات وأثنى «جارديني» على فن آدم، وأخبره أنه يستطيع بيع بعض لوحاته بمبالغ كبيرة عن طريق معرضه. من بين كل اللوحات توقفت «داريا» أمام لوحة عليها إمضاء آدم، تُمثل فتاة جميلة.

- مَن هذه الفتاة الجميلة سنيور آدم؟

- هذه هي حلمي.. هي فتاتي.. حياتي ومستقبلي.

- هل هي زوجتك؟

- لست متزوجًا.

- حبيبتك؟

- حبيبتي وأكثر من ذلك أيضًا.

- لا بد أنها امرأة محظوظة.. مَن هي؟ وأين هي؟

- هـذه قصة طويلـة سـأخبركم عنها أثنـاء تناول طعـام الإفطار اليوم.. أنا صائم وقررت أن أدعوكم كلكم على الإفطار بأحد المراكب النيلية أمام الفندق.

توقف «ماركو» فجأة أمام لوحة تُمثل آنية وفيها زهور.

- هذه اللوحة تشبه لوحة «فان جوخ».. سأختار هذه اللوحة.

- أيـن أنـا من فن «فان جوخ»؟! هي لك.. مع أن السـائق اسـمه خليل.. إنها مجرد مصادفة غريبة.

- استسلم آدم وأحضر علبة أسطوانية صغيرة ولف اللوحة بعناية ووضعها داخل الأسطوانة وأعطاها لـ«ماركو».

- لوحة «فان جوخ» تسـاوي ملايين الدولارات، أما أنت ففزت

بلوحة آدم، وهي تساوي نفس القيمة إلا أن عليها توقيع آدم بدلًا من «فان جوخ».

- هي تساوي عندي أكثر من لوحة «فان جوخ»؛ فهي إهداء من صديق. ولكنك تبالغ قليلًا من ناحية القيمة.

- بالطبع، عندما أموت ويعرفني الناس كما عرفوا «فان جوخ» بعد موته ويُقدرون فني فستكون قد ربحت اليوم أغلى رهان في حياتك.

- تبدو لي فكرة جيدة.. ألا تريد أن تراهنني مجددًا؟

- أراهنك على ماذا؟

- لا أعرف، ولكني مستعد للرهان المقبل.. تعجبني بعض هذه اللوحات وسأكون محظوظًا بالرهان من أجلها.

- عندي فكرة.. نحن المفروض أننا سنستقل سيارة أجرة الآن إلى الفندق من أجل حجز الإفطار والاستعداد له، فلنوقف ثلاث سيارات مرة أخرى ونسأل عن متحف خليل.

- مرة أخرى؟

- نعم، ولو عرفه أحدهم لك لوحة أخرى.

- ولو لم يحدث؟

- ستدفع أنت حساب الإفطار.

وافق «ماركو» متحمسًا وأخذ ينظر حوله ليحدد أي لوحة سيأخذ لو كسب الرهان مرة أخرى. واختار لوحة الفتاة التي أشارت إليها «داريا». ابتسم آدم ورفض الرهان على تلك اللوحة، وطلب من «ماركو» اختيار لوحة أخرى. وبالفعل اختار «ماركو» لوحة لنيل القاهرة.

في الشارع أوقف آدم أول سيارة أُجرة. لسوء حظ آدم وقف سائق يبدو لأول وهلة أنه هارب من بعض الأحكام الجنائية. ارتسمت على وجهه كل علامات الاشمئزاز والمعاناة والتهور. أوجس في نفسه خيفةً آدم. بهدوء وحذر وخوف مال نحو السائق ليسأله، وبعد أن كاد يسأل عن المتحف صمت للحظة:

- نعم.. أين أنتم ذاهبون؟
- ممم.. ما هو اسمك؟
- نعم! اسمي! حضرتك من رجال المباحث؟
- ما هو اسمك؟
- علي.. أنا علي هنداوي. أين تريد الذهاب الآن؟
- متحف «محمد محمود خليل» من فضلك.
- متحف مَن؟
- شكرًا يا أستاذ علي.. آسفين على تأخيرك.

سكت السائق بهدوء وحاول التحكم في أعصابه، وبدا لآدم أن السائق يستعد للإمساك بقطعة من الحديد تحت كرسي القيادة

للاعتداء عليه. تصور آدم نفسه وهو في الشارع غارق في دمائه وحوله ضيوفه في ذهول. انتبه آدم من تخيلاته على صوت السائق يسأل مرة أخرى بهدوء يغلف تهديدًا شديدًا:

- حضرتك من رجال المباحث؟

سكت آدم وأحس بالخطر. مال آدم على السائق وهمس في أذنه:

- الرائد آدم عبد البديع، مباحث أمن دولة. أنت تعرف خليل ولا لأ؟

- لا والله يا باشا، أقسم بالله وأنا صايم ما أعرفه.

- طيب انطلق، ولا أريد أن أراكَ اليوم في الزمالك. انطلق فورًا.

انطلق السائق بسرعة شديدة وهو يسب آدم في سِره بكلمات، من حظ آدم أن لم يسمعها. ولعله لو سمعها لما فهمها أيضًا. أُعجب آدم باللعبة. يسأل عن المكان، ولو أحس بالخطر يكرر نفس الموقف. تكرر الموقف مرتين، وفاز آدم بالرهان هذه المرة. ركبوا جميعًا عائدين للفندق استعدادًا للإفطار على حساب «ماركو».

كان منظر الغروب جميلًا جدًّا من على المركب النيلي الكبير. ازدحم المركب بالركاب حتى أن «ماركو» وجد صعوبة بالغة في حجز مائدة واحدة لأربعة أشخاص وقت الإفطار. قبل الغروب بدقائق تزاحم الجميع من أجل الحصول على الطعام. تعجب «جارديني» من الزحام حول الطعام ونظر باستغراب شديد نحو أمٍّ خرجت من وسط

الزحام في حالة يُرثى لها وقد ظفرت بطبق كبير مليء بالأطعمة حتى أنها كانت تحاول التوازن حتى لا ينهار تل الطعام في الطبق. الأعجب أن هذه الأم وضعت ذلك الطبق أمام طفل لا يتعدى الخامسة من عمره وانطلقت عائدةً مرة أخرى نحو مائدة الطعام الكبيرة.

ظل «جارديني» يتابع هذا المشهد في دهشة كطفل يشاهد مشهدًا من فيلم صامت لـ«شارلي شابلن». وأشار بيده لآدم نحو الزحام. أخبره آدم أنه بعد دقائق، وعند موعد المغرب سينهمك الجميع في التهام الطعام وسيكون بمقدورهم الحصول على الطعام في هدوء.

عادت «داريا» تسأل آدم عن فتاة اللوحة:

- نعم، أستطيع الاعتراف أمامكم أنها حبيبتي، وأتمنى أن أكون معها لأطول وقت ممكن.
- وأين هي الآن؟
- ليست مصرية.
- من أين؟
- سكت آدم للحظة فأعادوا عليه السؤال.
- من بلدكم.. إنها إيطالية مثلكم.
- هذا عظيم، فلو قَبِلْتَ العمل معنا فستجتمع معها قريبًا وتستطيع أن تراها وتقضي وقتًا أطول معها.

- بالفعل، وهذا أكثر ما يُشجعني على قبول فكرة العمل في إيطاليا. وبالطبع شرف لأي فنان العمل في بينالي البندقية.

- احكِ لنا عنها.. أين قابلتها.. كيف تبدو؟

- ستتعجبون أنني قابلتها لأول مرة في أحد المعارض الفنية في بداية هذا العام ولكنها فتنتني، هي جميلة بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.. رائعة الجمال، رقيقة، فنانة. لست شاعرًا لأستطيع وصفها.. ولهذا فقد رسمتها.

- عندي فكرة.. لو أردت أن ترسل لها هدية أرسلها معي وسوف أقابلها في أي مكان وأعطيها هديتك.

أعجب آدم بفكرة «داريا» الرومانسية وأخبرها بأنه سيختار هدية ويرسلها معها. اتفق آدم مع «داريا» على اللقاء في اليوم التالي لشراء الهدية، بينما تحجج «جارديني» و«ماركو» بأنهم ينوون زيارة الأهرامات في الصباح، وبالتالي فلن يستطيعوا الخروج معهم صباحًا. اتفق آدم على المرور على «داريا» في الفندق بعد الانتهاء من لقاء بعض طلبته وتَفَقُّد مشروعاتهم الفنية. عاد بعدها آدم ليفكر في فكرة جديدة، فسأل «داريا» إن كانت تفضل أن ترافقه مع «جارديني» و«ماركو» في لقاء مفتوح مع طلبته بالكلية. أُعجبت «داريا» بالفكرة بينما أصر «جارديني» و«ماركو» على زيارة منطقة الأهرامات صباحًا.

انطلق أذان المغرب فانهمك الجميع في تناول الطعام وسط دهشة «جارديني». بعد قليل استطاع آدم وضيوفه الوصول للبوفيه. أحضروا

القليل من الطعام. استمتع الجميع بالحوارات حول آدم وحياته وعمله معهم بالبندقية.

مرت ساعتان والجميع في الباخرة التي ظلت تتجول في النهر. وبعد فترة من الهدوء بعد الإفطار بدأ صوت الموسيقى يعلو، وبعد قليل حدث هبوط حاد في مستوى الأغاني وانطلقت الفتيات يتسابقن في الرقص. لم يستطع آدم أن يتحدث مع ضيوفه فاضطروا جميعًا للخروج من القاعة واللجوء للهدوء على ظهر الباخرة. ظل آدم يتحدث مع «جارديني» لمدة ساعة على الأقل في انتظار عودة السفينة للمَرْسَى.

أمسى الوقت متأخرًا والجميع شعر بتعب شديد من طول اليوم. ما إن رست السفينة حتى عاد الضيوف للفندق وانطلق آدم لإيقاف سيارة أجرة أمام الفندق. أوقف أول سيارة. كان يشعر بإرهاق شديد ولم يكن حتى يريد أن يستأذن من السائق أو أن يجادله حول الطريق أو الأجرة. ركب بجوار السائق مباشرة وأشار إليه بالانطلاق فورًا.

- ما هذا؟ أين تريد أن تذهب يا أستاذ؟

- الرائد آدم خليل عبد البديع.. أمن دولة!

- أهلًا بحضرتك.. آسف والله لم أعرف.. أنا...

- لا داعي.. انطلق بسرعة.. وبالمرة لا أريد سماع الأغاني.. أريد هدوءًا شديدًا.

- تحت أمرك يا باشا!

14

بعـد أن عاد الجميع إلى غُرَفهم بالفندق. أخذ «ماركو» حمامًا دافئًا قبل أن ينام. شـعر جسده بالاسترخاء التام واستعد لنوم عميق. ارتدى رداء الحمام الخاص بالفندق وربط منشفة فوق رأسه كما تفعل أغلب النسـاء ليجفف شـعره الطويل. خرج من الحمَّـام ليفاجأ بـ«جارديني» جالسًـا بمنتهى الهدوء أمامه ومعه شـنطة تَسَـوُّق ورقية من النوع الذي تُباع فيه الملابس. أذهلته المفاجأة وتوقف فجأة!

- كيف دخلت هنا؟!

- حقًّا؟ هل هذا سؤال؟ أنت تعرف أنني أستطيع التسلل لخزينة بنـك بعد منتصف الليل والخروج دون حتى أن أظهر على أية كاميرا وتتعجب أنني دخلت غرفة في فندق؟

- أنا أسـأل لأتعلم منك. ما زلتَ تُدهشـني كل يوم. لن أسـتبعد حتى أنك تكون هبطت على الشرفة من سطح الفندق.

- كلما كبرت في السـن قـلَّ اعتمادك على عضلاتك وجسـدك وزاد اعتمادك على عقلك. وقد علَّمَتني الأيام أن العقل أقوى بكثير، لا حدود لقوة العقل. قد تسـتطيع بجسـدك وعضلاتك

الدخول لأي مكان بطريقة ما، لكن عقلك يستطيع أن يهديك عشرات الطرق المختلفة والمُبتكَرة.

- نعم، ولهذا الاعتماد على عقلك مع جسدي وعضلاتي يبدو مثاليًا.

- «ماركو».. ذَكِّرني منذ متى تعمل معي؟

- سنيور «جارديني».. منذ تسع سنوات وأنا أُجيب عن هذا السؤال تقريبًا كل يوم!

- بعد هذه السنوات، لو فرضنا أن هناك شيئًا واحدًا فقط أريدك أن تتعلمه جيدًا مني، أتعلم ما هو هذا الشيء؟

- أتمنى من الله أن تُحدد أنت الإجابة عن هذا السؤال ولا تُغَيرها.

- «ماركو»...

- نعم سنيور «جارديني».. ما هو هذا الشيء «الواحد» الذي يجب أن أتعلمه منك؟!

- أن تعتمد على عقلك أنتَ وليس عقل أي شخص آخر.. ولا حتى أنا.. مقتنع؟

- طبعًا.. لقد تعلمتُ ذلك منك.. من الآن سأعتمد على عقلي أنا.

- عظيـم.. الآن انـسَ عقلـك تمامًـا واسـتمع لما سـأقوله لك. أريـدك أن تحفـظ مـا سـأقوله لـك وتُنفـذه بالحـرف الواحد وبالثانية الواحدة.. اسـمع، ولا تجادلني ولا تسألني أيَّ سؤال منذ هذه اللحظة، وأنا أعدك أنني سأجيب عن كل أسئلتك بعد انتهاء العملية بسلام.

ناوله «جارديني» الشـنطة وبدأ «جارديني» يشرح بهدوء وثبات كل خطوات العملية المتوقعة. استمعَ «ماركو» باهتمام بالغ.

ثـم خَلَـد إلـى النوم وعقلـه مـا زال يعمل في سـرعة مدهشـة. في الصبـاح اسـتيقظ «ماركـو» في السـابعة لتنفيـذ تعليمـات «جارديني» بالحرف الواحد وبالثانية الواحدة.

استيقظ «ماركو» في السـابعة صباحًا على مكالمة من الفندق، كما كانت تعليماته لهم قبل أن ينام. اتجه للحمام حيث اغتسـل سـريعًا ثم ارتدى الملابس الرياضية التي أحضرها له «جارديني»: قميصًا رياضيًّا أبيـض عاديًّـا جـدًّا، حـذاءً رياضيًّا من نفـس النوع. و«بنطلون» أسـود واسـعًا مريحًا من نفس النوع أيضًا. وفوق رأسه وضع قبعة رياضية من نفس النوع أيضًا. بدا كشـابٍّ رياضي يسـتعد لتمريـن ألعاب قوى بعد قليـل في الشـمس. يبدو البنطلـون عاديًّا جدًّا إلا فـي تفصيلة صغيرة. الجيب الأيسـر عادي جـدًّا، أما الأيمن فقد تحسـس «ماركـو» داخله فوجـد الجيب ممتـدًّا بطـول البنطلون حتـى الركبة، وهناك أسـطوانة صغيـرة داخله لا يكاد يلحظها أحد من الخارج. أخذ «ماركو» محفظةً

صغيـرة، بعضَ النقـود، هاتفَـه ونظارتَه الشمسـية، وانطلـق نحو قاعة الإفطار.

فـي تمام الثامنـة صباحًا كان «ماركـو» يتناول إفطـاره بالفندق مع «جارديـني». بـدا للجميـع من عمال الفنـدق أن الثنائي يسـتعد لجولة سياحية. بعدها بالفعل ذهب «جارديني» مع «ماركو» وحجزا معًا سيارة من سيارات الفندق للذهاب لمنطقة الأهرام. كما اتفق «جارديني» مع الفندق على إرسال السيارة ذاتها في الثالثة عصرًا لتُعيدهم إلى الفندق.

في تمام التاسـعة انطلقا، وعند العاشـرة كان «ماركو» و«جارديني» في منطقة الأهرامات. اشـترى الثنائي تذاكر الدخول. استأجرا إحدى العربـات ذات الخيـول إلـى الهرم الأكبـر. وعند مدخل الهـرم الأكبر تـرك «ماركـو» «جارديني» وترك معـه هاتفه المحمـول وانطلق وحده عائـدًا نحو منطقة الدخـول. لم يجد أي صعوبة أن يجد سـيارة أُجرة. طلب من السـائق التوجه إلى ميدان الجامعة في الجيزة. انطلق السائق سـريعًا وهو يحلم بمكافـأة كبيرة من ذلك الشـاب الأجنبي الرياضي. عند ميدان الجامعة طلب «ماركو» من السائق أن يتجه نحو شارع النيل حيث إنه سيذهب إلى صالة الألعاب الرياضية «جولدز جيم» المعروفة في المنطقة. أشـارت عقارب السـاعة لبضع دقائق قبل منتصف النهار بعد أن منح «ماركو» مكافأة سخية للسائق. ظل «ماركو» حريصًا طوال الوقـت علـى أن يرتـدي نظارته الشمسـية التـي أخفت نصـف وجهه والقبعة التي أخفت شعره حتى لا يتعرف السائق عليه أبدًا.

لم يدخل «ماركو» الصالة الرياضية وانتظر حتى انتصف النهار كما أمره «جارديني» تمامًا. عند الساعة الحادية عشرة وتسع وخمسين دقيقة سمع أذان الظهر. عندها بدأ يمشي نحو متحف «محمد محمود خليل». حفظ ونفذ كل كلمة وكل حرف من حروف «جارديني» كأنما كان يُمليها له في أذنيه. المسافة من صالة الألعاب حتى المتحف تستغرق خمس دقائق، قطعها «ماركو» في هدوء وبطء شديدَيْن حتى لاحت له حديقة المتحف الخلفية. ولاحظ أن المدخل الخلفي مفتوح مما جعله يشعر بالراحة. يبدو المكان كما كان في اليوم السابق.. شديد الهدوء. عليه أن ينتظر لأكثر من عشر دقائق أخرى حتى تأتيه الإشارة.

الإشارةُ التي أخبره بها «جارديني» هي خروجَ شخص من المدخل الخلفي للمتحف يرتدي قميصًا أسود و«بنطلون» من الجينز القديم. ذلك الشخص يعمل بالمتحف وخروجه يعني أن المكان خالٍ. انتظر «ماركو» ولم يخرج الرجل في اللحظة المنتظرة. بدا القلق على وجه «ماركو» إلا أنه تذكر كلمات «جارديني»:

- لو تعدت الساعة الثانية عشرة والنصف ولم يخرج الرجل، الغ العملية فورًا وأوقف سيارة أجرة وعُد وقابلني عند الهرم الأكبر. سيكون عندنا الوقت لمحاولة أخرى يوم الخميس، ومحاولة أخيرة يوم السبت قبل عودتنا.

أشارت عقارب ساعته إلى الثانية عشرة وخمسٍ وعشرين دقيقة. شعر «ماركو» بالإحباط كالطالب الذي قضى ليلته يذاكر استعدادًا

للامتحان وما إن وصل للجنة وهو مستعد تمامًا، أعلن المراقب تأجيل الامتحـان. دقيقتان ويغـادر «ماركو». ليس معه حتـى هاتفه المحمول ليعرف لماذا لم يظهر الموظف. نظر «ماركو» مرة أخيرة في سـاعة يده التي أوشـكت على الإشارة لتمام الثانية عشـرة والنصف. موعد إلغاء أو تأجيـل العملية. رفـع «ماركو» عينيه ليُوقف سـيارة أجرة وعلامات الإحباط بدت بوضوح على وجهه.

***

قبـل ذلـك بسـاعات قليلـة وفـي صباح ذلـك اليـوم، اسـتيقظ آدم واسـتطاع بالـكاد أن يفتـح عينيه ببطء شـديد مـن فرط الإرهـاق. قام متثاقلًا وهَمَّ بإعداد فنجان من القهوة السـريعة، إلا أنه تذكَّر أنه صائم. مشـى متثاقلًا إلى الحمَّام حيث اغتسـل وارتدى ملابسـه بسـرعة. مرَّ بسـيارة أجرة على «داريا» واصطحبها معـه لمبنى كلية الفنون الجميلة بالزمالـك. مـن المفترض أن أغلب الطلبة كانـوا صائمين يومها إلا أن دخـول فتـاة أوروبية جميلة يبـدو أنه جذب الانتباه وبشـدة، خاصة أن «داريا» كانت ترتدي فسـتانًا يصل إلى الركبة. بالنسـبة لها فهو فسـتان رسـمي ليوم عمل، أو على الأقل لائقًا لمناسبة عامة. أما بالنسبة لطلبة الكليـة، فهو فسـتانٌ قصير للغاية، حتى أن الأصوات كلها سـكتت في فناء الكلية. ولم يُسـمع سـوى همهمات مع اسـتغفار البعض وحملقة البعض الآخر، والقليل من مَصْمَصَة الشـفاه لبعض الفتيات. باختصار كان الحـدثُ جَلَـلًا في الكليـة، والكل دفعه الفضـول ليعرُف مَن هذه

الزائرة الأوروبية الجميلة.

لـم يكن مـن المعتاد في الكليات المصرية رؤية فتاة ترتدي فستانًا قصيـرًا، حتـى أن «داريـا» نفسـها أحسـت بالرهبـة مـن كثـرة العيـون المُصوَّبـة إليهـا. في البدايـة ذهبت مع آدم إلى مكتبـه، ويبدو أن الخبر انتشـر سـريعًا، فبعد ثلاث دقائق فقط هرولت د. سلوى في مكتب آدم لتعرف مَن هذه الزائرة التي يتكلم عنها الطلاب مع لفيف من الأساتذة وجميع عُمال الكلية. هدأت قليلًا عندما عرفت أنها «داريا» وسـلَّمَت عليها سـلامًا حارًّا كأنها ابنة خالتها التي تُقيم في الخليج ولم ترها منذ سنوات. احتضنتها وحاولت أن تُظهر للجميع أنها صديقة قديمة وهي تتحدث معها بلُكنتها الإنجليزية الركيكة.

- «داريا» حبيبتي.. أهلًا بكِ في الكلية.
- أهلًا د. سلوى.
- لـو أننـي أعـرف أنـكِ سـتزورينا كنـت فَرَشْـت أرض الكلية بالرمال.
- ولماذا تفعلين ذلك؟!
- الرمال يا «داريا» تُستخدم عندنا لاستقبال الضيوف المهمة.
- آه فهمت. عندنا في إيطاليا نستقبلهم بالزهور.
- نعم، ونحن نفعل ذلك أيضًا، أحيانًا.

استـمر المهرجـان وتوافـدت وفـود مـن أعضـاء هيئـة التدريـس

للترحيب بالزائرة الجميلة في مكتب آدم، وتطور الموقف حتى جاء د. عماد وكيل الكلية بنفسه للترحيب بالضيفة. لو لا أن عميد الكلية كان في إجازة سنوية لكان هو أيضًا موجودًا وسط المُرحبين. كلية الفنون الجميلة كانت في الماضي قِبلةَ فناني العالم، وكان وجود الفنانين الأوروبيين فيها أمرًا طبيعيًا. أما الآن فدخول فنانة أوروبية حَرَم الكلية أصبح أشبه بدخول «مارلين مونرو» سجنًا مشددَ الحراسة مخصصًا للرجال. ولكي يَفُض آدم الاشتباك اعتذر للجميع بأنه و«داريا» يجب أن يُديرا حوارًا مفتوحًا مع بعض طلابه عن «بينالي» البندقية في إحدى قاعات الكلية.

اعتقد آدم أن الأمر انفضَّ على خير، وأنه سيلتقي مع طلبته كالمعتاد لمناقشة بعض مشاريعهم أثناء الإجازة الصيفية ثم يغادر. فوجئ آدم يومها بامتلاء قاعة المشاريع كمدرجات الدرجة الثالثة يمينًا ويسارًا يوم مباراة الأهلي والزمالك في يوم إقامة المباراة الفاصلة لتحديد بطل الدوري. لم يكن عدد الطلبة يتناسب مع كون اليوم من أيام الإجازة الصيفية وفي شهر رمضان أيضًا.

على الرغم من الإحراج الذي بدا على «داريا»، إلا أن د .آدم بدأ بتعريفها للطلبة. حدَّثهم لدقيقتين عن «بينالي» البندقية، وعن مدينة البندقية الساحرة، وفتح الحوار. الكارثة التالية كانت في اللغة. طلبة كلية الفنون الجميلة والمفترض أنهم أرقى فناني المستقبل في مصر يتحدثون الإنجليزية بالكاد، حتى أن آدم فكَّر في الاستعانة بمترجم

يترجم له هو شخصيًّا اللغة الإنجليزية التي تحدث بها الطلبة. لم يجد آدم حلًّا سوى أن يسأل الطلاب بالعربية ويقوم هو بالترجمة لـ«داريا» والعكس.

ومع صعوبة التواصل وتعدُّد اللكنات الإنجليزية في القاعة من اللكنة الإيطالية التي تتحدث بها «داريا» للإسكتلندية التي يتحدث بها آدم، للصعيدية التي حاول بها بعض الطلبة (إلا قليلًا منهم)، مع كل ذلك فقد كان الحوار مُمتعًا. تحدثت «داريا» عن تفاصيل كثيرة. حكت عن مدينتها المائية الساحرة، عن حواريها ومجاريها المائية، والمقاهي العتيقة. تحدثت باستفاضة وحُب عن الـ«بينالي» وتاريخه منذ بداياته في نهاية القرن التاسع عشر وعن دوراته وفنانيه.

بعثت «داريا» في عقول وقلوب الطلاب الشوقَ لرؤية تلك المدينة الساحرة وذلك الملتقى الفني الكبير. تساءل بعض الطلبة: لِمَ لا تُقام مثلُ تلك المعارض الضخمة في مصر؟ أخبرهم آدم أن هناك «بينالي» يُقام في الإسكندرية؛ إحدى عواصم الفن في المنطقة، ولكنه ليس بشهرة ولا ضخامة «بينالي» البندقية. وأخبرهم أيضًا أن «بينالي» الإسكندرية ثاني أقدم «بينالي» عالمي بعد «بينالي» البندقية. تعجب الطلبة بشدة. أحس آدم أنه كمَن يُخبر مُشجعي الكرة في مصر أن مصر حصلت على كأس العالم من قبلُ ثلاثَ مرات. من العجيب أن طلبة كلية الفنون الجميلة قسم التصوير الزيتي لا يعلمون شيئًا عن المعارض الفنية التي تُقام داخل مصر. حتى أن أحدهم لم يحضر أي

معرض خارج أسوار الكلية.

- ألم تذهب لأي معرض في أي بقعة في مصر؟
- لا.
- ولا في القاهرة؟ ولا في دار الأوبرا؟
- لا.
- ولا حتى في ساقية الصاوي؟!
- لا والله يا أستاذ.
- والله أخاف أن أسألك إن كنت أصلًا حضرت أي معرض بالكلية أو في مدرستك!
- لا طبعًا حضرت الكثير.
- ما شاء الله.. الحمد لله يا أخي.

تساءل آدم: كيف مثلاً لمُخرج كبير أن يتعلم الإخراج ويُطور من نفسه وموهبته إذا ظل طوال عمره يشاهد أفلامًا محلية فقط؟

بالنسبة لفنان مثل آدم، فإن ما قاله للطلاب هو أمر بديهي تمامًا، لكن هذا الأمر نفسه بدا جديدًا لمعظم الطلاب. آدم مُنفتح على ثقافات كثيرة منذ ولادته. فأمه وأبوه كانا من ثقافتَيْن مُختلفتَيْن. كما أنه سافر كثيرًا وحضر عشرات المعارض وزار مئات المتاحف. لم تكن زيارة «داريا» للكلية مُخططًا لها، لقد تم كل شيء عفويًّا ودون

تخطيط مُسبق، لكنها كشفت أن هناك من المفاهيم التي يجب أن تُدرَّس للطلاب ما قد يكون أهمَّ من تدريس المادة العلمية وحدها.

مر الوقت سريعًا على «داريا» وآدم في المحاضرة. لا يعلم آدم هل استمتع بها طلابه بالفعل أم أنهم كانوا لا يزالون مُستمتعين بوجود فتاة أوروبية جميلة بينهم في الكلية؟! عقارب الساعة الكبيرة المُعلقة في قاعة المحاضرات كانت قد تخطت منتصف النهار ببضع دقائق. لقد انتهى الوقت المخصص للطلبة. وما زال يريد أن يصطحب «داريا» لشراء هدية لحبيبته.

لم يكن الخروج من القاعة أو من الكلية بأسهل من الدخول. د. عماد سأل سلوى عن «داريا» وعن أسباب وجودها في مصر. وعرف منها أن هناك أيضًا «جارديني» و«ماركو» معها. عندما خرج آدم و«داريا» من القاعة وَجَدَا د. عماد في الانتظار. داعب د. عماد «داريا» ببعض العبارات المُجامِلة. لم يكن آدم يُطيقه أبدًا. دعا عماد «داريا» وضيوفها لندوة في الكلية في اليوم التالي بعد أن عرف أنهم سيغادرون القاهرة يوم السبت. رحَّبَت «داريا» بالعرض ووعدت بعرض الأمر على «جارديني» و«ماركو» أيضًا.

أراد د. عماد أن يدعو «داريا» لشرب القهوة في مكتبه، ولكن آدم اعتذر له. غادر آدم و«داريا» وسط تَرقُّب عيون الطلاب والحسد والغيرة في عيون عماد وسلوى. استقلَّ آدم و«داريا» أول سيارة أُجرة.

15

عند الواحدة والنصف وسبع دقائق، وقف «ماركو» أمام «جارديني» بالقرب من أقدام أبي الهول.

- لقد تأخرت سبع دقائق كاملة، أعتقد أن التأخير حدث في شارع الهرم. مهما بلغت دقة الخطة فلن تصمد أمام مرور تلك المدينة!

- لقد تم كل...

- أعلم، لقد وصلت الأمانة وبدقة في موعدها، والخطة تسير بنجاح.

- نظر «ماركو» حوله واقترب من «جارديني» هامسًا في أذنه:

- بابا «جارديني»، ما حدث اليوم هو أعجب ما مر بي طوال سنوات عملي معك، شيء لا يُصدقه عقل ولا أعتقد أنه سيحدث مجددًا أبدًا.

- لقد أثرتَ فضولي، يجب أن تحكي لي.

- بالطبع.. عندما كنت في انتظار الإشارة في الثانية عشرة والنصف تمامًا...

- «ماركو».. «ماركو».. ليس هذا وقته بالتأكيد. سنتسمتع بوقتنا الآن و سنتكلم كثيرًا لاحقًا.

- ولكنني أيضًا أريد أن أسأل عن أشياء عجيبة كثيرة.

- لقد اتفقنا ألا تسألني.. سأقول لك كل شيء في الموعد المناسب.. الآن دعنا نلتقط بعض الصور معًا هنا مع أبي الهول والأهرامات.. أمامنا ساعة وثلث قبل أن يصطحبنا السائق.

- دعني ألتقط لك صورة سنيور «جارديني».

- سيلفي «ماركو».. سيلفي.. سنستخدم هاتفك هنا وهاتفي عند الهرم.

لم يكن «ماركو» ليسأل «جارديني» عن أي شيء، فقط التقط الصور وتسلَّق الهرم الأكبر وركب الخيل، وأمضى ساعة رائعة مع «جارديني». بعدها عرف أن «جارديني» غيَّر توقيت جهازه المحمول وأخَّره لساعة حتى تبدو الصور الملتقطة بينها فارق زمني يكفي للانتقال من مكان لآخر. كما حرص الماكر «جارديني» على أن تكون هناك صور عليها تاريخ اليوم والساعة الثانية عشرة والنصف ظهرًا. أي أن تلك الصور تكفي لإثبات أن «ماركو» لم يغادر هضبة الأهرامات.

في الثالثة مساءً تمامًا، وحسب الاتفاق، كانت سيارة الفندق في الانتظار. استقل «جارديني» و«ماركو» السيارة عائدَيْن إلى الفندق في الزمالك. في الفندق حرص «جارديني» مرة أخرى على أن يشكر موظف الاستقبال على حُسن تنظيم الرحلة لهم من وإلى منطقة الأهرام. كان العجوز «جارديني» مُنهَكًا، ولكنه أشار إلى «ماركو» أن يتناولا الطعام أولًا. كان المطعم شبهَ خاوٍ إلا من بضع مناضد شغلها سائحون. بعد أن طلبا الطعام اعتدل «جارديني» وباغت «ماركو»:

- استمتع بطعامك ولا تأكل كثيرًا. بعدها اذهب مباشرةً إلى حجرتك وحاول أن تنام.

- ليس هذا موعد نومي سنيور «جارديني».

- «ماركو».. افعل ما أقوله لك.. ستحتاج للنوم والراحة الآن حتى لا تتعب مما سيحدث هذا المساء.

- وماذا سيحدث هذا المساء؟!

- سيتم إلقاء القبض عليك يا «ماركو»!!

- نظر «ماركو» لـ«جارديني» باندهاش وانعقد لسانه. سكت للحظة، وعندما همَّ أن يسأل «جارديني» عما يقصد، فجأة انشقت الأرض عن آدم و«داريا» أمامهما على المنضدة.

- كيف كان يومكما؟

- كان يومًا عظيمًا زُرنا الأهرام وأبا الهول.. التقطنا العديد من الصور الجميلة.. ماذا عنكما؟

- لقد ذهبنا للكلية عند آدم حيث عقدنا جلسة نقاش مع الطلبة والأساتذة. قبل أن أنسى.. لقد طلبوا منا أن نذهب غدًا كلنا، وأنتما معنا، لندوة أخرى في الكلية. هل لديكما خطط سياحية أخرى غدًا؟

- لا، كنت فقط أريد أن أستكمل زيارتي لمتحف خليل وأتجول فيه لبعض الوقت قبل أن أسافر.

- اتفقنا، لنذهب يوم السبت كلنا للمتحف قبل السفر، أما في الغد فسوف نذهب للكلية.

- اتفقنا.. وأين ذهبتم بعد الكلية؟

- آدم اشترى هدية ذهبية جميلة لحبيبته الإيطالية، وسوف آخذها لها معي. ما رأيكم؟

فتحت «داريا» العلبة وفيها خاتم من الذهب الأبيض الخالص يعلوه حجر كريم. كان الخاتم جميلًا ولافِتًا للنظر جدًّا. أبدى «جارديني» إعجابه الشديد بالخاتم وأكد أن حبيبته ستحب الخاتم بكل تأكيد.

- عليك أن تحذر يا د. آدم. عندنا في إيطاليا إن أهديت امرأتك خاتمًا ذهبيًّا فأنت قد وقعت في الفخ. ستعتقد أنك تتقدم للزواج منها. لن يكون هناك مَفَر.

- سأخبرها أنني قد أرسلت لها بهدية، وعلى أي حال قريبًا سألحق بكم في إيطاليا ولعلي أشتري الخاتم الثاني سريعًا.

ظل «ماركو» وقتها ناظرًا للفراغ، لا يكاد يسمع لما يُقال حوله. حاول استيعاب ما قاله «جارديني» قبل لحظات عن الشرطة التي ستقبض عليه في المساء. كيف، وأين، ولماذا؟ هل رآه أحد؟ هل يمزح معه «جارديني»؟ لم يكن من المعتاد أن يمزح معه «جارديني» في مثل هذه الأمور. انتظر «ماركو» أن يرحل آدم و«داريا» حتى يُكمل «جارديني» حديثه. بالفعل رحل آدم الذي كان صائمًا واتفق مع الجميع على اللقاء في صباح اليوم التالي للذهاب للندوة. بقيت «داريا». وبقي «ماركو» منقبضَ القلب وساكنَ الوجه. لم يستطع حتى أن يأكل، ولم يستطع أن يتكلم مع «جارديني» في وجود «داريا».

كان على «ماركو» الانتظار، ولكن يبدو أن «داريا» لم تكن تريد نومًا أو راحة ساعتها. حاول «ماركو» التخلص منها دون فائدة. لم يكن أمامه إلا أن ينصرف هو. اتفق مع «داريا» و«جارديني» على اللقاء في المساء. انصرف «ماركو» وفي ذهنه أن يذهب لاحقًا ليستكمل حديثه مع «جارديني». دخل حجرته وأضاء الأنوار ليجد «جارديني» جالسًا في هدوء على حافة فراشه!

هذه المرة لم يهتم «ماركو» بكيفية دخول «جارديني» حجرته، ولا حتى كيف استطاع ذلك العجوز الماكر الوصول لحجرته قبله. وسأله بسرعة:

- لماذا سيتم إلقاء القبض عليَّ؟

- اخلع بنطلونك أولًا.

- نعم؟!

- عندما تأتي الشرطة ويفتشون متعلقاتك، هل تريد أن يعثروا على بنطلون فيه جيب سري يكفي لإخفاء لوحة؟

- إممم.. لا طبعًا.

- «ماركو».. ذَكِّرني منذ متى تعمل معي؟

- سنيور «جارديني»، لماذا ستأتي الشرطة هنا أصلًا؟

- منذ متى يا ماركو؟

- تسع سنوات ونصف سنيور «جارديني».

- بعد هذه السنوات، لو فرضنا أن هناك شيئًا واحد فقط أريدك أن تتعلمه جيدًا مني، أتعلم ما هو هذا الشيء؟

- أنا أريد أن أعلم لماذا ستأتي الشرطة فقط!

- التفاصيل يا «ماركو».. التفاصيل.. يجب أن تفكر في كل التفاصيل. نجاحك وفشلك يكمن في التفاصيل الصغيرة. أنت الآن ضابط بوليس في القاهرة وتمت سرقة لوحة ثمنها 50 مليون دولار من متحف. وتصادف أن آخر شخصين رَأَيا اللوحة في اليوم السابق كانا تاجِرَي لوحات عالميين من

إيطاليـا. أضف إلى ذلـك أن مدير أمن المتحف بنفسـه رآهما بعد أن شـاهدا اللوحة. هذه اللوحة سُرقت بعدها بـ24 ساعة. ستتهم مَن؟

سكـت «ماركو» تمامًا وقد استوعب القنبلة التي ألقاها «جارديني». لا بد أن «جارديني» لديه الحل لتلك الورطة، وإلا لما ورَّطهم فيها أصلًا. لاحظ «جارديني» الوجوم على وجه «ماركو» فضحك بشدة وهدَّأه.

- الموضـوع بسـيط. كان يجب علـيَّ أن أرى المـكان واللوحة لأضـع الخطـة. ولا يوجـد أي دليل مـن قريب أو بعيـد أن لنا أية علاقة بالسرقة. في جميع الأحوال سيتم حصر كل مَن زار المتحف في الأيام الأخيرة عن طريق الشهود أو الكاميرات.

- إذًا لنسافر فورًا قبل أن يقبضوا علينا.

- بالعكـس.. على العكس تمامًا. لو سـافرنا سـيكون ذلك أكبر خطأ. تذكَّر.. التفاصيل.

- كيف؟!

- لو سـافرنا الآن واكتشـفوا السـرقة بعدها بسـاعات وتم رصد اسـمَيْنا وقـاد آدم الشـرطة لشـخصياتنا لأصبحنـا المتهمَيْـن الأولَيْن ولتم إخطار الإنتربول باسمَيْنا ولتعرَّضْنا لمشـاكل مع الشـرطة الإيطالية. وسـيكون وقتها عليك إثبات سبب سفرك للقاهرة وتفريغ مكالماتك قبلها ومشاكل لا حصر لها.

- وماذا لو لم نسافر الآن؟

- بالضبط، نحن سائحان، جئنا مع «داريا» في مهمة عمل، زُرنا الأهرامات والبواخر النيلية وعقدنا الندوات. سيتم تفتيشنا بدقة ولن يجدوا أي شيء. طبعًا بعد أن تتخلص من ملابسك الرياضية بما فيها الحذاء. أنا سأتخلص منها بمعرفتي.

- تقصد أنك تتعمد أن يتم تفتيشنا؟!

- بالضبط، أنا أريد أن يتم استجوابنا وتفتيشنا ومراقبتنا حتى نغادر القاهرة بسلام ولا نترك أي خيوط. الآن اخلع ملابسك وناولها لي وحاول النوم، ولننتظر الشرطة هذه الليلة.

- هل تعتقد أنهم اكتشفوا السرقة؟

- المفروض أننا الآن في الرابعة عصرًا، وأن المتحف يغلق أبوابه في الثانية عصرًا. حسب كل الحسابات من المفترض أن يتم إبلاغ الشرطة بين الثانية إلى الثالثة مساءً. المفروض أن تنقلب المدينة. صحافة.. إعلام.. شرطة.. تذكّر ما حدث في باريس. يومها طارت الأخبار و انقلبت المدينة كلها في ساعات.

- واللوحة، أين هي؟

- لا تقلق، هي الآن في الطريق إلى لندن. فقط أتمنى أن تدخل لندن قبل أن تُعلَن السرقة.

- شعر «ماركو» بالارتياح أخيرًا. كل مرة يثبت ذلك العجوز أنه يعرف جيدًا ما يفعل. أعطاه الملابس للتخلص منها. توجه «جارديني» نحو الباب ليخرج. توقف فجأة عندما أمسك بالباب، التفت لـ«ماركو» قائلًا بلهجة أبوية:

- «ماركو»، أحقًّا تثق فيَّ؟

- بالطبع، 100% بلا أدنى شك.

- سأطلب منك طلبًا واحدًا من الآن حتى نهاية العملية، وأرجوك أن تستمع لي جيدًا.

- كُلِّي آذان صاغية.

- عِدْنِي من هذه اللحظة ألا تسألني عن أي شيء أفعله أو أطلبه منك طوال العملية حتى انتهائها تمامًا. بعدها ستقُص عليَّ ما فعلتَ وسأجيب عن كل تساؤلاتك. أما الآن فكن في رحلة واستمتع.

- أَعِدُكَ سنيور «جارديني»، ولكن عِدْنِي أنت أيضًا أن تُجيبني عن أسئلتي بعد انتهاء العملية.

أطرق «جارديني» بوجهه مُوافِقًا مُبتسِمًا. ابتسم «ماركو» لـ«جارديني» في وُدٍّ وظهرت علامات الرضا على وجهه قبل أن تنقلب للاستغراب الشديد مرة أخرى وهو يعيد على مسامع «جارديني» ما قاله من قبل:

- لقد كان اليوم عجيبًا حقًّا!

16

خـرج «جاردينى» وخَلَد «ماركو» للنوم. عـاد «جاردينى» لحجرته ومعـه ملابس «ماركو». قص الجيب الطويل أولًا ليبدو طبيعيًا. أخرج مـن حجرتـه تلـك الحقيبـة المُعدَّة فـي الفنـدق لراغبي كـيّ وتنظيف الملابس. وضع فيها الملابس الرياضية. أما الحذاء الرياضي فقد قطع قماش إحدى الفردتيـن لتبدو أنها قُطعت بالصدفة، ثم وضع الفردتَيْن في شنطة بلاستيكية صغيرة.

خـرج «جاردينـي» مـن حجرتـه وهـو يعلـم تمامًـا زوايـا وأماكن كاميـرات المراقبـة في الأدوار. دخل أولًا إلى حجـرة للعمال لتجميع نفايات الـدور، وبالداخل وجد مصرف النفايات العمومي حيث ألقى الحذاء. عاد مرة أخرى للدور، وبكل حرص مرَّ على بعض الحجرات حتـى وجد حجـرة معلقًـا على بابهـا لافتة «ممنـوع الإزعـاج»، فترك الملابـس على البـاب ليبدو أن صاحـب الغرفة هو مَن يطلب غسـلها وكيها.

هبـط بغدها «جاردينـي» للبار حيث جلس وبـادل البارمان الحوار حيـث تعرَّف عليه وعلى تاريخ عمله كلـه بالمكان. لم يكن هناك أحدٌ

بالبـار في ذلك الوقت، إنه وقت الإفطـار في رمضان. ظل «جارديني» ينتظر أي أخبار عن سـرقة اللوحة ولكن شـيئًا لم يحدث. لعل الشرطة تتكتم الأمر؟ ظل يشرب وينتظر ويفكر لكن ظلت الأمور هادئة للغاية.

تلقـى اتصالًا هاتفيًا من «داريا»، قالت إنها سـتنام مبكرًا اسـتعدادًا لنـدوة الصبـاح. اتفقا على اللقـاء في بهو الفندق في العاشـرة صباحًا. قال في نفسـه لعلَّ الشـرطة تأتـي قبل موعـد الندوة. عـاد «جارديني» لحجرته ليُجري بعض الاتصالات لعله يعرف من مصادره ما حدث.

اسـتيقظ «ماركـو» فوجـد حجرتـه غارقـة فـي الظـلام. قـام مُتثاقِـلًا ونظـر فـي السـاعة، كانـت تُشـير للعاشـرة ليـلًا. يبـدو أن «جارديـنـي» حـاول الاتصـال بـه. تـرك لـه علـى هاتفـه رسـالة علـى الهاتـف تقـول كلماتهـا: «مشـهد النيـل مـن حجرتـي رائـع». فَهِـمَ «ماركـو» أن «جارديني» يريـد أن يتكلم معه فـي حجرته، فذهب إليه على الفور. كانت تبدو على «جارديني» آثار الخمر الذي كان يملأ عَبَقُـه غرفـةَ «جارديني» بالكامـل. وبالفعل، فقد كان مشـهدُ النيل من حجرته رائعًا.

- ماذا حدث يا سنيور «جارديني»؟

- هـؤلاء المجانين، أغلقوا المتحف دون أن يراجعوا محتوياته. فقـط أغلقـوا البـاب وانصرفـوا كأنهـم كانـوا في زيـارة لبيت العائلة. أكاد أُجَن من المسئولين عن ذلك المتحف!

- يبدو لي ذلك شيئًا جيدًا.. اللوحة في أمان؟

- اللوحة تم تسليمها، ولكني لن أُغادر القاهرة قبل أن يتم اكتشاف السرقة وتفتيشي. هؤلاء مجانين. في المرة القادمة سنأخذ منهم بعض اللوحات ونطلق صفارة الإنذار!

لاحظ «ماركو» أن «جارديني» تحت تأثير الخمر وصوته قد يعلو فوضع يده على فم «جارديني».. فَهِمَ «جارديني» وهمس لـ«ماركو»:

- بهذه الطريقة يمكن أن تذهب غدًا وتأخذ لوحة «جوجان» أيضًا.. ثم تُطلق صفارة الإنذار.. مجانين!

لم يستطع «ماركو» أن يمنع نفسه من الضحك. وضع «ماركو» «جارديني» في سريره كما يفعل دائمًا في البندقية وتأكد أنه سينام وهمس في أُذنه:

- لا تقلق، في الصباح وعندما يفتح المتحف أبوابه، سيتم اكتشاف كل شيء، وسيعتقدون أن شخصًا تسلل ليلًا. سأذهب قليلًا للملهى الليلي هنا في الفندق ثم أعود لأنام. نومًا هانئًا سنيور «جارديني».

هبط «ماركو» لبهو الفندق واتجه نحو البار، شرب بعض الكئوس سريعًا ثم لم يلبث أن شعر بالملل. أخرج هاتفه المحمول الحديث. أخذ يتأمل صور الهرم. عاد «ماركو» لحجرته وأخبر «خدمة الغرف» أن يوقظوه في الثامنة صباحًا.

في الصباح تَقابَل «ماركو» مع «جارديني» و«داريا» على مائدة

الإفطار. كانت نفس المائدة التي قابلوا عليها آدم وسلوى منذ يومين. نفس المكان الجميل المُطِل على النيل في منطقة الزمالك الراقية بالقاهرة.

مر عليهم آدم ليصطحبهم للذهاب إلى الندوة. هذه المرة ارتدت «داريا» ملابس أكثر احتشامًا. لم تكن تريد أن تلفت الانتباه كما حدث في اليوم السابق. في الكلية كانت الأمور مختلفة عن اليوم السابق. لقد أعلن د. عماد بأن «كلية الفنون الجميلة تقيم ندوة كبيرة بالتعاون مع (بينالي) البندقية العريق»، كانت الدعوة عامة ولافتات الترحيب في كل مكان. وجدوا في استقبالهم السيد عميد الكلية ورئيس جامعة حلوان والعديد من الشخصيات الفنية والعامة وبعض كبار العاملين بوزارتَي التعليم العالي والثقافة.

أثار المشهد رهبة في نفس آدم. متى استطاع د. عماد أن يوجه الدعوات لكل هؤلاء في يومٍ واحد؟! وكيف استطاعوا أن يُلَبوا الدعوة مع قصر الوقت؟ كيف تم الترتيب والإعداد لندوة بهذا الحجم في كبرى قاعات الكلية في يومٍ واحد؟!

عجبًا.. فها نحن نُنجز شيئًا في زمن قياسي، بل في لا زمن.. دون تلكؤ أو تذرُّع بضيق الوقت، فقط إذا أردنا، فما لنا معظم الوقت.. لا نريد؟!

من بين الحضور أحد أصدقاء آدم، وهو وكيل وزارة الثقافة ورئيس قطاع المتاحف «منير شعبان». يعرفه آدم جيدًا حيث إنه أيضًا أحد أهم الفنانين التشكيليين في مصر. كثيرًا ما تبادلا حضور المعارض الفنية.

آدم يعرف أن شعبان فنان حقيقي، وأن عمله الإداري في الوزارة مجرد «أكل عيش» كما يُقال في مصر. مصدر دخل فقط، حيث إن الفن في مصر لا يقيم بيتًا ولا يأوي أطفالًا. لو أنك فنانٌ تشكيليٌّ أو كاتبٌ روائيٌّ فلتبحث لنفسك عن مصدر دخل.

ويبدو أن د. عماد أيضًا ادَّعى أمام رئيس الجامعة وعميد الكلية أنه هو مَن دعا «داريا» وضيوفها لزيارة مصر. وأن له يدًا كذلك في ترشيح آدم نفسه لـ«بينالي» البندقية. استنتج آدم ذلك عندما عرف من شعبان أن د. عماد هو مَن دعاه ودعا السيد وزير الثقافة نفسه أيضًا.

ها هو د. عماد يقف على باب القاعة ويستقبل الضيوف كأنه هو صاحب الفرح. أشار عماد لـ«داريا» و«جارديني» و«ماركو» للصعود نحو المنصة المُعدة لهم. وبينما آدم يستعد للصعود معهم، أشار له عماد بأن يجلس بين الحضور ومنعه من الصعود معهم. سلوى لاحظت الأمر وهدَّأت آدم الذي كاد أن يترك القاعة. جلس آدم مع الحضور على مَضَض ومعه سلوى وشعبان وبقية الحضور. قام د. عماد بتقديم الندوة وأدار الحوار. تحدثت «داريا» كثيرًا، وتحدث «جارديني» قليلًا، ولم يتحدث «ماركو» على الإطلاق حيث تعجَّب معظم الحضور من ذلك الشاب الوسيم وما دوره في الندوة. تحدث الحضور كلهم بالإنجليزية وقام د. عماد بالترجمة قدر المستطاع. وحرص على إضافة لَمَساته الخاصة مثل أن الضيوف يُرحبون بالسيد رئيس الجامعة والسادة وكلاء الوزارات.

استغرقت الندوة ثلاث ساعات كاملة اندمج فيها الحضور في المناقشات. شعر «جارديني» بالسعادة بوجوده وسط ذلك الجمع من الفنانين. بالتأكيد لو وصلت معلومة عن اختفاء لوحة شهيرة من القاهرة لعرفوا كلهم فورًا. الغريب أن شيئًا لم يحدث على الإطلاق ولليوم الثاني. في نهاية الندوة كانت الساعة تقترب من الثانية ظهرًا وهو موعد إغلاق المتحف أبوابه. لو حالفه الحظ وتم اكتشاف السرقة ساعة الإغلاق فسيكون من المحظوظين. ببساطة لأنه ومساعده قضوا اليوم كله بين المئات من المهتمين بالفن ولم يغادر الكلية طوال اليوم، أي أنه لن يكون أصلًا موضع أية شبهة. أما إذا تكررت المأساة وأغلق المتحف أبوابه دون اكتشاف السرقة فستكون كارثة. حيث إن اليوم التالي هو يوم الجمعة وسيكون المتحف مغلقًا بالطبع، ولن يعاود العمل قبل صباح السبت، وهو نفس يوم سفرهم عائدين.

انتهت الندوة وانصرف الحضور. بقي آدم وسلوى ود. عماد والضيوف. يبدو أن د. عماد بدأ يشعر بأن هؤلاء جميعًا جاءوا من أجله بالفعل. لقد اختلق القصة وصدَّقَها! سلَّم على د. آدم وهو يُودعه وقال إنه سيدعو الضيوف الإيطاليين على الإفطار في أحد المطاعم الفاخرة في الزمالك، وأنه بالفعل قام بالحجز. لم يجد آدم ما يقوله فاستأذن وسلَّم على الجميع وانصرف. تبعته سلوى، فهمت سلوى أن أسلوب د. عماد لم يكن مناسبًا. حاولت تهدئة آدم، وكالعادة لم تستطع. كانت سلوى قد أدركت أنها لا تُمثل أي شيء بالنسبة لآدم،

لو حمل آدم في قلبه ذرة مَعَزَّة خاصة لها لَهَدَأ حين هدَّأته.

هكذا هـي المرأة حين يعشـقها الرجل؛ هي الوحيـدة القادرة على مُصالحتـه. هي التـي يحزن معها ويهـدأ عندما تربت علـى كتفيه. هي الوحيـدة القـادرة علـى قيادة مشـاعره. ولكن للأسـف كانت سـلوى تعرف أنها ليست هي تلك المرأة لآدم!

***

مـر اليـوم سـريعًا. آدم في بيته وحيدًا. الباقون حضروا الإفطار مع د. عمـاد ثم عادوا بعدهـا للفندق. لم يحتج «جارديـني» أن يتبادل أي كلام مـع «ماركو»، كانت نظراته المُحبطة واضحة وكأنه يقولها بعينَيْه. هـؤلاء مجانيـن. يجب حبسـهم كلهـم في مستشـفى كبيـر للأمراض العقلية! تأكد «جارديني» أن أنظمة التأمين عنده في البيت أعقد وأفضل مائـة مرة من متحف يضم قِطَعًا بمئات الملايين من الدولارات! ها قد مـر يوم الخميس وهو يعلم جيدًا أن المتحف يغلق أبوابه يوم الجمعة. ليـس لديـه الكثير من الوقت. قد يحالفه الحظ ويتم اكتشـاف السـرقة صبـاح السـبت. ولكـن إن لـم يحدث ذلـك، فعليـه أن يتصـرف فورًا وينتقل للخطة البديلة. مر يوم الخميس في هدوء.

يـوم الجمعة التقى «جارديني» و«ماركـو» و«داريا» بآدم مرة أخرى علـى مائدة الإفطار الرمضانية في الفندق. اتفق آدم مع «داريا» على أن يرسل صور جواز سفره وبعض الأوراق لِتَسْتَكمِل هي إجراءات تعيينه فـي «بينالـي» البندقية. ظهر الفرح الشـديد أخيرًا على وجـه آدم وهنَّأه

الجميـع على هذه الخطوة الهامة فـي حياته الفنية والعملية، والعاطفية أيضًا.

قبل أن ينفض الجمع، طلب «جارديني» من آدم أن يسـتكمل معهم زيـارة متحف خليل في الصباح قبل أن يتجهـوا إلى المطار. أبدى آدم ترحيبًـا كبيـرًا واتفـق مع الجميـع على المـرور عليهم فـي الفندق في العاشرة صباحًا لاسـتكمال الزيارة لساعة أو اثنتين قبل الاتجاه لمطار القاهرة.

وقد كان..!

17

السبت الحادي والعشرون من أغسطس سنة 2010 ميلادية، الموافق الحادي عشر من شهر رمضان عام 1431هجرية كان يومًا تاريخيًّا في القاهرة. في ذلك اليوم تم اكتشاف سرقة لوحة «آنية وزهور»، والمعروفة باسم «زهور الخشخاش»، وهي من أعمال الفنان العالمي «فان جوخ». سُرقت اللوحة التي تُقدر قيمتها بخمسين مليون دولار تقريبًا من متحف «محمد محمود خليل وحرمه» بالجيزة. لم يعلم أحد ولم يتوقع أحد أن تكون اللوحة قد سُرقت قبل ذلك التاريخ بأيام. يومها انقلبت الدنيا وأُعلنت حالة الطوارئ والتأهُّب القصوى في أروقة وزارتَي الداخلية والثقافة، فضلًا عن النيابة العامة والصحف المصرية ووكالات الأنباء العالمية ووسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي ونشرات الأخبار. كيف انقلبت الدنيا يومها؟

نعود مرة أخرى لصباح ذلك اليوم، حيث فتح أحد موظفي المتحف أبوابه في التاسعة والثلث صباحًا. فض الشمع الأحمر على الباب الرئيسي وقام بفتح الأقفال. من المفترض أن يتم الفتح في التاسعة صباحًا ولكن لأنه كان يومًا من أيام شهر رمضان، والموظفون

صائمون، كما أن هناك عزوفًا عامًّا من الجماهير عن زيارة المتحف، فلم تكن هناك أدنى مشكلة في التأخير عن موعد فتح المتحف.

وقف جندي بسيط من جنود الحراسة على باب المتحف، بينما أخرج الموظف دفتر التذاكر ودفتر تسجيل الزيارة والذي نادرًا ما يكتب فيه أي شخص. بالنسبة للموظف كلها إجراءات روتينية يقوم بها كل يوم ولا يتغير شيء. بل لا يزور المتحف أحد باستثناء القليل من الأجانب، خاصةً في شهر رمضان. في الدقائق التالية وحتى العاشرة والنصف بدأ توافد الموظفين على المتحف. أغلبهم اتجه فورًا لمكتبه في الطابق الأسفل حيث اعتادوا على تبادُل الحديث مع قراءة الصحف. وكالعادة لم يأتِ أحد من المديرين: مديرة المتحف، مدير الأمن، وكبار موظفي وزارة الثقافة. من المعتاد أن يتأخر الجميع، خاصةً أن ذلك التاريخ وافق شهر رمضان، حيث يسهر الجميع حتى الصباح ويقضون أغلب النهار في سُبات عميق!

نعى ذلك الموظف البسيط حظه وهو يُزيل الشمع الأحمر ويفتح أبواب المتحف. لو أنه من المديرين لنام هو أيضًا حتى الظهر على الأقل. لِمَ يستيقظ مبكرًا؟ هو لا يعمل في مجمع التحرير أو مرور مدينة نصر. على العكس تمامًا فهو يكاد يكون شبه متأكد أن أحدًا لن يأتي لهذا المتحف أبدًا، اللهم إلا بعض الأجانب أو السياح. مَن هو المصري المخبول الذي سيستيقظ من نومه مبكرًا يوم السبت، وفي رمضان، ليزور متحفًا فنيًّا؟؟ جالَ بخاطر ذلك الموظف أن المصري

الأصيل حتى وإن زار باريس وعزم على زيارة اللوفر فلن يستيقظ مُبكرًا أبدًا من أجل هذه الزيارة. عاد وتذكَّر أنه قد يكون محظوظًا من جهة أخرى. فهو سيفتح أبواب المتحف فقط ثم يعود لقبو القصر حيث مكتبه ليصلي ركعات الضحى ويغفو قليلًا حتى يأتي بقية الموظفين تباعًا. لم ينسَ الموظف أن يوصي جندي الحراسة بالخارج ببيع التذاكر لمَن يأتي من الزائرين إن حدث. عملية بيع تذاكر الدخول لا تعني ذلك الجندي من قريب أو بعيد، إلا أنه كان يتحين تلك الفرصة بين الحين والآخر. بما إن معظم زوار المكان من الأجانب فقد كان ينتظر نفحة سخية من هؤلاء الفنانين الأجانب. ربما أعطاه أحدهم ورقة بعشرة دولارات أو باليورو أو حتى بالين الياباني.. لا يهم. لم يزر المتحف أبدًا أحد من العرب، فقط الأوروبيون وبعض المصريين في حالات نادرة.

جلس الجندي في مَلل واضح يتأمل المارَّة في الشارع. كانت الساعة حوالي العاشرة صباحًا، واليوم من أيام السبت الهادئة. هدوء شديد أحاط بالمنطقة كلها. مجرد جندي صائم يحلم بكوب الشاي الصباحي. ينتظر بفارغ الصبر أن ينتصف النهار فيغير ورديته في الحراسة. لم يكن يقرأ أو يكتب، والأعجب أنه لم يسبق له أن دخل المتحف من قبل. هو فقط يحرسه من الخارج ولا يعرف عنه أي شيء. يعرف بالكاد أنه يحرس متحفًا.

اقتربت سيارة أجرة من المدخل الرئيسي للمتحف حيث جلس

الجنـدي. توقفـت أمامه بالضبـط. نزل منها الشـخص الجالس بجوار السـائق وتبعه ثلاثة أجانـب كانوا على المقعد الخلفـي. لم يكن ذلك إلا آدم، «جارديني»، «ماركو» و«داريا». اصطحبهم آدم بناءً على طلب «جارديني» ليزور الدور الأعلى ويُشاهد باقي القِطَع الفنية بالمتحف.

سلَّم آدم على الجندي وسأله عن التذاكر.

- تحت أمرك يا معالي الباشا.

- نريد أربعَ تذاكر للمتحف.

- من عينيَّ الاثنتين، كل عام وأنت بخير.

فهمَ آدم تلميح الجندي وأخرج مبلغًا من المال يكفي لشراء التذاكر ولمكافأة الجندي أيضًا. أخذها الجندي بفرح وراح يُرحب بالأجانب باللغـة العربية دون أن يفهـم أحد منهم ما يقـول، إلا آدم بالطبع. تقدم الجميع نحو الحديقة الأمامية الكبيرة وعبروها نحو المدخل الرئيسي للقصر. وقـف «جارديني» ينظر لتمثال في آخـر الحديقة وعند مدخل القصر. لمحه آدم فسارع بالقول:

- وهـذا التمثال لـ«كيوبيـد» هو قطعة أصلية، مـن المفترض أن يكون إحدى قِطَع المتحف وليس لتزيين الحديقة.

بعدها استكمل «جارديني» التقدم نحو المدخل، وهناك لمح دفتر الزائرين.

- لا أعتقد أنني رأيت هذا الدفتر في المرة السابقة.

- ولا أنـا.. يبدو أن شـخصًا تذكَّـر هذا الدفتر فجـأة اليوم.. هل تحب أن تكتب شيئًا؟

سكت «جارديني» وهمَّ بالاعتذار ولكنه بعد لحظة تردُّد عاد ورحَّب.

- لِمَ لا؟ لنكتب جميعًا.

لـم يكن مع أيٍّ منهم أيُّ قلم، نادى آدم الجندي مرة أخرى وأعطاه عشرة جنيهات إضافية وطلب منه قَلَمًا. خرج الجندي ليبحث عن قلم في الخارج تـاركًا الجميع عند مدخـل القصر. اقتـرح «جارديني» أن يتحركـوا ليُشـاهدوا المتحف حتى لا يضيع الوقت. صعدوا السـلالم مـرة أخرى. عند الطابـق الأول لاحظ الجميع أن باب قاعة لوحة «فان جـوخ» كان لا يزال مُغلَقًـا. العجيب أن أحدًا لم يُعلـق أو يتحرك نحو القاعة التي شاهدوها من قبل. أراد «جارديني» بأية طريقة أن يتأكد من اكتشاف السرقة أثناء وجوده بالقاهرة. توجه الجميع نحو الطابق الثاني حيث شرح لهم آدم كأنما يأخذهم في جولة في بيته:

- الـدور الأول الـذي زُرناه فيـه مُقتنيات قليلة، وهـو عبارة عن ثمانـي قاعات. أما الدور الثاني ففيه سـبع قاعات فقط، ولكنه يحتـوي علـى مقتنيـات وكنـوز أكثـر. أهمهـا لوحـة عملاقة لـ«كلود مونييه» لجسـر فوق مُسـتنقَع. وهي لوحـة قَيِّمة جدًّا، وهي الوحيدة لـ«كلود مونييه» في مصر.

بـدا الاهتمام والحَماس علـى وجه «جارديني» كطفـل تُحدِّثه عن لعبة جديدة. قفز فوق السلالم كشابٍّ في العشرين، وبالفعل فقد قضى ساعة كاملة يتأمل اللوحات والتماثيل والقِطَع الأصلية في انبهار كامل. سـاعة كاملة ظل آدم يقوم بدور المُرشـد ويشرح تاريخ كل قطعة كأنما هو في إحدى محاضراته بالجامعة. أفاق الجميع بعد مرور السـاعة أن الوقـت يمضي سـريعًا. صار علـى «جارديني» و«ماركـو» و«داريا» أن يعـودوا للفندق للخـروج النهائي من الغُرَف والتوجُّـه للمطار. حاول آدم مـرة أخـرى الاتصال بعبـد القادر، ولكـن كالعادة لم يجـد إجابة. عندمـا نزلوا للـدور الأرضي هرع الجنـدي نحوهم بالقَلَـم، كتب كلٌّ منهم بعض كلمات الشـكر في دفتر الزائرين. توجَّه «جارديني» لدورة الميـاه وعـاد. وعندما همـوا بالمغـادرة دخـل فجأة مجموعـة أخرى مـن الزائريـن. ظهرت الدهشـة على الوجوه. سـلَّموا عليهـم ودعاهم «جارديني» لتدوين بياناتهم بالدفتر أيضًا. كانوا خمسة من الإسبان في زيارة للقاهرة. تعرفوا عليهم بسـرعة ثم انصرف آدم ومجموعته. فجأة وقف «جارديني» والتفت للخلف ونادى الإسبان قائلًا:

- لا تنسـوا لوحـات «جوجـان» و«فان جـوخ» و«مونييـه»؛ إنها أروع ما في المتحف.

ها قد فعلها العجوز. في بضع دقائق سـيتم اكتشاف السرقة. بعدها سـيتم إبلاغ كبار المسئولين الذين سـيقومون بدورهم بإبلاغ الشرطة. وبعدها ستتم مراقبة المطارات وإيقافهم هم بالتحديد لأنهم مُسجَّلون

في دفتر المتحف. سيتم التحقيق معهم وتفتيشهم بكل دقة ثم الاعتذار لهم ومرافقتهم بكل أدب واحترام إلى الطائرة. وبذلك يخرجون تمامًا من دائرة الشبهات.

وبالفعل، لم تمضِ نصف الساعة إلا وقد فتح أحد الزائرين الإسبان بـاب الغرفة ورأى ما رأى من بعثرة في مُحتويات الغرفة وبودرة ملونة علـى الأرض وإطـار لوحـة فارغ من لوحتـه. وكالنار في الهشـيم طار الخبر حيث اندفع الزائرون باحثين عن أي موظف في المتحف. اتجه الإسبان نحو مكاتب الموظفين، وجدوا أغلبها مهجورًا إلا من مكتب واحـد. مـا إن اقتحمـوه حتى وجـدوا الموظـف نائمًا. أيقظـوه وظلوا يحدثونه بالإسـبانية تارة فلم يفهم، وبالإنجليزية تارة أخرى فلم يفهم. وكان عبـد القادر قد وصل هو أيضًـا. جاء على صوتهم وفَهِم منهم أن هناك كارثة. اندفع الجميع للأعلى حيث فوجئوا بالمشهد المروع. هنا تقمص عبد القادر دور وزير الداخلية وأمر الموظف بإغلاق المتحف فورًا والاتصال بمديرة المتحف.. وبالشرطة.

18

- سرقة؟ ما الذي سُرق؟ أية لوحة؟ «فان جوخ»؟ هذه كارثة! متى حدث هذا وكيف؟! سأتصل بالسيد وكيل الوزارة فورًا.. وأنت اتصل بالشرطة فورًا. يجب أن يُلقى القبض على السارق بأسرع ما يمكن. وفَتِّش كل زائري المتحف. لا أحد يغادر إلا بعد حضور الشرطة.

هكذا هتفت «مريم باهر» مُديرة المتحف أثناء قيادة سيارتها. بحركة لا إرادية فقد ضغطت فجأة على المكابح حتى كادت السيارة التي خلفها أن تصطدم بها. مريم أيضًا فنانة، مثلها مثل آدم وعبد القادر، ومثل مديرها ووكيل الوزارة منير شعبان وحتى وزير الثقافة نفسه. كلهم يُدركون جيدًا ما معنى أن تضيع لوحة لـ«فان جوخ». قد يقول أحد الخبراء إن ثمنها خمسون مليون دولار، ولكن قيمتها لا تُقدر بثمن. هذه هي اللوحة الوحيدة لـ«فان جوخ» في مصر. وقد سَبق أن سُرقت وأُعيدت. ومن الناحية القانونية، فهذه اللوحة ملك للدولة، وهي عُهدة مثلها مثل باقي قِطَع المتحف كله.. عادت تتصور أمامها رئيسَها وهو يُوبِّخُها.

- لقد بدَّدتِ عُهدةً تُقدر بخمسين مليون دولار. سيتم تحويلك للنيابة بتُهمة إهدار المال العام.

يا لَهُ من كابوس. كم من مرة بعثت بالرسائل والمُكاتبات لمديرها لإصلاح كاميرات المراقبة وأجهزة الإنذار ومنع السرقة! ولم يُجِب أحد. رفعت يديها بالاعتذار لقائد السيارة التي كانت خلفها والتي كادت تصطدم بها. ثلاث سنوات كاملة وهي تكاد تتوسل لمنير أن يُبدل الكاميرات وأن يُتم تحديث نظام منع السرقة، وهي فقط تسمع الوعودَ والمُوافقات الشفهية. كل مرة يقول لها إنه سيرفع مُذكرة لوزير الثقافة الذي كان دومًا يَفخر بأنه صديقه الحميم. وتمر الأيام والشهور ولا يحدث أي شيء. المتحف، بل والقصر كله، يحتاج للترميم منذ زمن. عادت وفكَّرت أنها غير مسئولة، هذه سرقة وليست تبديدًا. والسرقة مسئولية الأمن. هناك جنود الحراسة والحراسة الداخلية، وهناك مُدير الأمن. فليسألوا مديرَ الأمن إذًا. قالتها وهي تُوقف سيارتها على جانب الطريق وتطلب بأصابع مرتعشة رقمَ وكيل الوزارة «منير شعبان».

فقط رنين الهاتف دون مُجيب. تصبَّبت عَرَقًا. مسحت العَرق من على جبينها وعدَّلت من وضع غطاء رأسها. أحسَّت برعشة في كل أطرافها. هل تقود السيارة نحو المتحف؟ هل سيتم القبض عليها؟ هل تعود للمنزل؟ هل تتصل بمحامٍ؟ تبًّا لمنير، يجب عليه أن يرد فورًا لأعرف ما يجب عليَّ فعله!

***

تقلب «منير شعبان» في فراشه طويلًا. اعتاد أن يقضي لياليه مع أصدقائه من الفنانين ثم ينام نهارًا، خاصة في رمضان. يوم السبت هو عطلة رسمية. سمع اهتزازات هاتفه المحمول وهو يتقلب. مد يده وأسكت الهاتف وتقلب على الجانب الآخر. ساد الهدوء أرجاءَ الحجرة مرة أخرى إلا من صوت التكييف الرتيب الذي بعث في روح منير مزيدًا من الهدوء والرغبة في المزيد من النوم. وما إن تراءت أمامه الأحلام مرة أخرى حتى عاد هذا الطنين المُزعج لجهاز المحمول. شعر بالانزعاج والغضب الشديدَيْن. مَن ذا الذي يريده في صباح يوم السبت في رمضان وبعد سهرة حتى الفجر. أسكت هاتفه مرة أخرى دون أن ينظر فيه. بتثاقل شديد فتح عينيه ونظر للساعة المُعلقة في الحجرة والتي كانت تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا. أغلق عينيه مرة أخرى وهمَّ بالنوم ولكنه عاد وسمع طنينًا آخر. يبدو أن هناك أمرًا ما. اعتدل في فراشه وأمسك الهاتف. هالَهُ ما رأى. خمس عشرة مكالمة لم يتم الرد عليها ورسالة نصية واحدة.

أضاء المصباح المُجاور لفراشه، وبسرعة التقط نظارته الطبية ووضعها وفتح الرسالة الوحيدة، ووجد أمامه كارثة. سطر واحد في رسالة واحدة من «مريم باهر» مديرة المتحف. أربع كلمات فقط نزلت على رأس منير كالصاعقة:

«سُرقت لوحة زهور الخشخاش»!

اتصل فورًا بمريم والتي كادت تبكي خلال المكالمة.

- اهدئي يا مريم.. إن شاء الله سنجدها.. سأتصل فورًا بفؤاد بيه وسأطلب منه أن يتحدث مع وزير الداخلية. هل طلبتم الشرطة؟ أنا في الطريق فورًا.

قالها وقام يقفز بسرعة كشابٍّ في العشرين من عمره، ولم ينتبه أن صوته العالي وصُراخه أثناء المكالمة قد جذب زوجته وأبناءه للحجرة. شرح لهم الكارثة باقتضاب وغادر المنزل مُهروِلًا. في الطريق إلى المتحف هاتَفَ فؤاد حسين وزير الثقافة وأخبره بالكارثة!

خلال الثلاثين دقيقة التالية كانت اللوحةُ حديثَ مصر كلها من أسوان إلى السلوم. وزير الثقافة انطلق إلى مكتبه حيث تحدث مع وزير الداخلية. وزير الداخلية أمر بإغلاق منافذ القاهرة البرية والجوية وتفتيش جميع المسافرين والحقائب تفتيشًا دقيقًا. تقدم السيد وزير الثقافة ببلاغ للنائب العام للتحقيق الفوري في كارثة سرقة لوحة تُقدر بخمسين مليون دولار من متحف قومي. التقط الصحفيون الموجودون بديوان عام وزارة الداخلية الخيط، ولم تمضِ دقائق حتى نزل الخبر كالصاعقة على المواقع الإخبارية كخبر عاجل. بعدها نصح المستشارُ الإعلامي لوزير الثقافة السيدَ الوزير بإصدار بيان رسمي للاعتراف بالسرقة فورًا منعًا للشائعات ودرءًا للمسئولية عن الوزارة.

قبل الواحدة عصرًا كان السيد النائب العام في مقر المتحف ومعه بعض وكلاء النيابة، وحوصر المتحف برجال الشرطة. التف حول النائب العام عشرات من الصحفيين ودخل معه من المدخل الرئيسي

للقصر منير ومريم وعبد القادر. حدث زحام شديد حول النائب العام أثناء دخوله القصر مما أدى لتدافع الصحفيين، فاصطدم أحد الصحفيين بتمثال «كيوبيد» الموجود في مدخل القصر فوقع وانكسر قطعًا صغيرة في حضور النائب العام والصحفيين!

خيَّم الصمت على الجميع وأمر النائب العام بخروج كل الصحفيين وانتظار بيان صحفي منه بعد الانتهاء من التحقيقات الأولية. انصرف الجميع إلا النائب العام ووكلاءه مع منير ومريم وعبد القادر. وما إن دخلوا حتى فوجئ النائب العام بخمسة أجانب مُحتجزين بشكل غريب ومهين:

- مَن هؤلاء؟!

- هؤلاء مَن كانوا بالمتحف وقت اكتشاف السرقة. لم نسمح لهم بالرحيل.

- وهل تم تفتيشهم؟

- تم تفتيشهم كلهم تفتيشًا دقيقًا ولم نعثر معهم على أي شيء.

- خذ من كل واحد منهم صورة جواز سفره وبياناته ومحل إقامته بالقاهرة، ثم أطلق سراحهم فورًا.

ثم انطلقوا نحو السلم المؤدي للطابق الثاني، وهنا وقف النائب العام ونادى عبد القادر مرة أخرى:

- من أي بلد هم؟

- إسبانيا.

- وهل كان هناك زوار غيرهم اليوم في المتحف؟

هنا قاطعه منير بثقة:

- هـذا المتحـف لا يزوره أحد عـادةً، ونحن فـي رمضان. حتى إنني أَعْجَب أن هناك زوارًا اليوم...

هنا قاطعه عبد القادر:

- لا بالعكس، لقد قال لنا الإسبان إن هناك أربعة أشخاص كانوا هنا هذا الصباح. ثلاثة إيطاليين ومصري.

- مصري؟!

انطلقـت كلمة «مصري» تقريبًا في نفس التوقيت من مريم والنائب العام. أضاف النائب العام:

- السـيد اللواء مدير الأمن هنا بالخارج. اذهب فورًا إليه وأَعْطِه كل التفاصيل حول ذلك المصري فورًا.. ولا تنسَ الإيطاليين، وإن كنتُ أعتقد أنهم زوار مثلهم مثل الإسبان. أي مصري هذا الذي يستيقظ مبكرًا في رمضان يوم العطلة ليذهب لمتحف؟ بالتأكيد نحن الآن أمام خيط مهم، وغالبًا أمام السارق نفسه!

انطلق عبد القادر خارجًا من حيث أتى إلى حديقة القصر قاصدًا مدير الأمن. شرح له الموضوع وأشار له أن هناك دفترًا للزائرين، وأن الزائرين الإسبان هناك فليسألهم. وشرح له أن هناك مصريًّا زار المتحف صباحًا. دون أن يُدرك عبد القادر أن ذلك المصري هو صديقه آدم!

- الموضوع بسيط. أين نجد أشرطة كاميرات المراقبة؟

- أية أشرطة؟

- كاميرات المراقبة بالمتحف!

- لا أعتقد أن ذلك الموضوع مهم!

- ماذا؟! كيف تُقلل من أهمية كاميرات المراقبة في متحف مثل هذا؟!

- أعني... أقصد... أن بعض هذه الكاميرات لا تعمل بكفاءة!

- لا تعمل بكفاءة؟!

- لا تعمل على الإطلاق.. بعضها... أغلبها!

هنا نادى اللواء مدير الأمن على أحد مساعديه وأمره بفحص فني لكل أجهزة الإنذار والكاميرات، واستدعاء الحُراس وجنود الحراسة المكلفين بحراسة المتحف. دقائق وجاء جندي الحراسة وهو يرتعد خوفًا من مدير الأمن. وقف بجوار عبد القادر كتلميذ فاشل أمام ناظر المدرسة وهو يستعد لفصله على أقل تقدير. حتى هذه اللحظة لم يكن ذلك الجندي يعي أيًا مما حدث أو يحدث حوله. التفت إلى

عبد القادر والذي كان يعرفه جيدًا.

- أستاذ عبد القادر، ماذا حدث بالمتحف؟

- تمَّت سرقته.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. ما الذي سُرق؟ إيراد التذاكر أم أموال المرتبات؟!

- لم تُسرق أموال على الإطلاق، سُرقت لوحة.

- لوحة؟ ماذا تعني بلوحة؟!

- صورة.. رسمٌ معلقٌ على الجدار.

- آه.. الحمد لله بسيطة. والله لقد كنت أعتقد أنها التذاكر! حيث إننا الحمد لله عندنا ما لا يقل عن عشرة زائرين.. مما يعني مبلغًا كبيرًا!.. ولكن طالما الموضوع صورة يبقى بسيطة إن شاء الله. الموضوع لا يحتاج كلَّ هذا الزحام والسادة اللواءات و...!

- بسيطة؟! كيف يا زينهم؟! هذه اللوحة غالية جدًّا.. ثم إنها في عُهدة المتحف.

- خلاص، اخصموا ثمنها من راتبي والأمر لله!

- كم يبلغ راتبك يا زينهم؟

- ثلاثمائة جنيه يا عبد القادر باشا!

19

توقفت سيارة الأجرة الخاصة بـ«جارديني» و«ماركو» و«داريا» عند مدخل قاعة المسافرين بمطار القاهرة الدولي. حمل كلٌّ منهم حقيبة واحدة صغيرة. بسرعة وبساطة أنهوا جميع إجراءات السفر وجلسوا في قاعة الانتظار لدرجة رجال الأعمال. ظل القلق باديًا على وجه «جارديني». هل يُعقل أن يمر اليوم أيضًا دون اكتشاف اختفاء لوحة كتلك؟! قد يكون ذلك مثيرًا حقًّا. إن حدثت تلك المعجزة فهو أمام أمر مُحيِّر. الجانب السلبي من تلك الكوميديا السوداء أنه سيغادر دون أن يتم تفتيشه أو سؤاله، وقد يُواجِه اتهامات لاحقة وهو في غِنى عن كل ذلك. أما الجانب الإيجابي من الموضوع أنه يبدو أن اكتشاف اختفاء اللوحة قد يتأخر لأيام أو أسابيع. هذا الاحتمال يبدو أقرب للهذيان، ولكن ماذا لو تم اكتشاف السرقة بعد أسبوع أو اثنين؟ بالتأكيد لن يخطر على عقل أي عاقل وقتها أن اللوحة غير موجودة أصلًا منذ أسابيع. وبالتالي فلن يكون هو من المشتبه فيهم أصلًا. حاول كتم ضحكة كادت تظهر على وجهه أمام «داريا» و«ماركو». نظر في ساعة يده، ساعة واحدة تبقَّت على موعد إقلاع طائرة الخطوط الإيطالية.

ساد الهدوءُ التام قاعةَ الانتظار. نظر «جارديني» مرة أخرى بقلق في ساعة يده، بينما رشف رشفة أخيرة من قهوته. لم تُعجبه القهوة وظل يشعر بالقلق. أحس بهدوء شديد يلف المكان من حوله. لم يكن «جارديني» يعلم أن ذلك هو الهدوء الذي يسبق العاصفة!

وعلى بُعد أمتار قليلة منهم في المطار نفسه كان الخبر قد وصل. صدرت الأوامر بتفتيش جميع الركاب والأمتعة حتى تلك التي تم بالفعل شحنها على متن الطائرات والتي كانت تستعد للإقلاع. انقلب ميناء القاهرة الجوي رأسًا على عقب. إجراءات تفتيش صارمة. البحث داخل جميع الحقائب صغيرة وكبيرة. هناك لوحة صغيرة مفقودة وقد تكون في أحد الجيوب السرية في أي حقيبة. تكدست طوابير المسافرين وتم تعطيل إقلاع الطائرات. امتلأ المطار كله بقيادات الأمن، وفي أقل من ساعة صار هناك العشرات من الصحفيين والمُراسلين يُتابعون محاولة إحباط تهريب اللوحة!

في تلك الأثناء ظل الفريق الأمني يُعاين ويُفتش كل شبر في المتحف. عثروا على دفتر الزوار ووجدوا عبارات باللغة الإيطالية. التحقيقات مع الزائرين الإسبان أيضًا أثبتت وجود ثلاثة إيطاليين مع رجل مصري صباحًا. محاولة تفريغ كاميرات المراقبة لم تُسفر عن أي شيء. أغلب الكاميرات لم يكن يعمل أصلًا! تم إبلاغ السلطات بضرورة إيقاف الطائرات المتجهة لإيطاليا تحديدًا والتحقيق مع الركاب بالكامل مع تشديد إجراءات التفتيش.

وبالفعل مع وصول «جارديني» لبوابة السفر هالَه المشهد. تكدُّس كبير وتفتيش يدوي دقيق بقيادة قيادات أمنية كبيرة. تم إعادة جميع الحقائب للركاب لفتحها وتفتيشها يدويًا وبدقة. كما تم إبلاغ الركاب أن الطائرة ستتأخر دون تحديد السبب. في الطابور الطويل وقف «جارديني» يليه «ماركو» ثم «داريا». وظلوا يتبادلون الحديث مع بعضهم البعض ومع بقية الركاب عن سبب حدوث ذلك العطل:

- يبدو أن هناك بلاغًا بوجود قنبلة!

- أو عمل إرهابي، ربما كانوا يبحثون عن أسلحة!

- أو مخدرات!

- لا أعتقد.. الأسلحة تظهر من خلال الأشعة، وعادة يتم البحث عن المخدرات بواسطة كلاب مُدربة.

- إذن ما السبب؟! تهريب أموال؟! هل يستطيع أحدكم أن يسأل؟

- سألنا ولا توجد إجابة.

وهكذا استمر الحال حتى الخامسة عصرًا. أصاب التعب والإعياء الجميع. مضى ميعاد إقلاع الطائرة. تأكد جميع الركاب أن هناك حالة ارتباك واضحة لدى سُلطات المطار، وأصبح أكبر همهم أن تغادر الطائرة البلاد بعد كل هذا التعب حتى ولو تأخرت عن موعدها. بعد الخامسة بقليل، وبعد أن تم تفتيش أغلب المسافرين،

جاء دور «جارديني». حانت اللحظة التي خَطط لها طويلًا، أن يتم فتح حقيبته وتفتيشه ثم الاعتذار له، ليركب بعدها الطائرة مُعززًا مُكرمًا. وبالفعل تقدم منه أحد الضباط، طلب جواز سفره، سأله عن محل إقامته بالقاهرة وسبب الزيارة. أجاب أنه في رحلة سياحية. ثم تفتيش الحقيبة بكل دقة. وبالفعل، اعتذر له الضابط وأمر أحد الجنود باصطحابه للطائرة لِكِبر سنه! شكر «جارديني» الضابط في امتنان وغادر إلى الطائرة منتظرًا «ماركو» و«داريا».

مر طاقم الطائرة بعد تفتيشهم أيضًا إلى الطائرة استعدادًا للإقلاع. جاء الدور على «داريا». نفس الإجراءات. السؤال عن جواز السفر، بعض الأسئلة الروتينية، ثم تفتيش الحقيبة بدقة شديدة. مرت «داريا» بهدوء ووقفت في انتظار «ماركو». جاء الدور على «ماركو»، وبعد الأسئلة الروتينية السريعة تم فتح حقيبته وتفتيشها تفتيشًا دقيقًا هو الآخر. كان الضابط المُكلف بالتفتيش قد ملَّ من تفتيش مئات الحقائب بلا أية نتيجة. وعندما كاد يُغلق حقيبة «ماركو» لامست يده شيئًا صلبًا بالحقيبة. فتحها مرة أخرى وأزاح بعض الملابس فوجد أسطوانة.

- ما هذه؟!

- هذه لوحة!!

هبطت كلمة لوحة على الضابط كالصاعقة. سحبها بسرعة وأمسك بجهازه اللاسلكي ينادي على القوات!

- القوات، السيد مدير الأمن، برجاء الحضور إلى بوابة المغادرة رقم 6 الآن فورًا.. أية لوحة هذه؟

كان الضابط لا يكاد يتحدث الإنجليزية إلا بصعوبة شديدة. لم ينتظر إجابة من «ماركو» وفتحها ونظر للوحة. كانت لوحة آدم والتي رسم فيها أيضًا آنية وزهور. كل ما كان يعرفه هذا الضابط وقتها هو أنه يبحث عن لوحة صغيرة الحجم وفيها آنية وزهور. وها هو في يده لوحة صغيرة الحجم وفيها آنية وزهور. لم يكن ليلتفت للتفاصيل الصغيرة كالتوقيع مثلًا. حيث إن التي يبحث عنها تحمل توقيع «فان جوخ»، والتي بين يديه عليها وبوضوح توقيع آدم. نقل الضابط بصره بين «ماركو» و«داريا» التي وقفت تنظر للأمر كله باستغراب شديد. أيقن الضابط أنهما معًا فصاح فيهما بشدة:

- أرجوك، انتظر على هذا الجانب، وأنتِ أيضًا معه.

- هذه اللوحة هدية من صديق مصري وهو فنان مصري.

- هدية من صديق مصري؟! تقصد هو الذي سرقها وأعطاها لكم لتهربوها خارج البلاد.. خطة في منتهى الذكاء، ولكنها انهارت أمام قوة الإجراءات الأمنية الصارمة!

هنا جاء مدير الأمن وحوله العشرات من الضباط ومسئولي المطار والصحفيين. ما إن حضروا حتى طمأن الضابط مدير الأمن.

- تمام يا افندم، كما جاء في البلاغ، لقد تم إحباط عملية التهريب، يبدو أن اللص مصري، وأنه أعطى اللوحة لهذين الشابين الإيطاليين. وها هي اللوحة!

- شكرًا يا حضرة الضابط، ولكن أرجوك أمسك اللوحة بحرص، هذه اللوحة التي تحملها تساوي خمسين مليون دولار.

ارتبك الضابط عندما سمع الرقم وأعاد اللوحة داخل الأسطوانة الخاصة بها وسلمها فورًا لمدير الأمن. وقف «ماركو» و«داريا» في حيرة من أمرهما. لم يتخيلا أبدًا أن يتم اتهامهما بسرقة لوحة كلوحة «فان جوخ» لمجرد أن معهما لوحة لا تساوي عدة آلاف من الدولارات. اللوحة مختلفة تمامًا وعليها توقيعٌ واضح لآدم. المشكلة أن أغلب الحوارات دارت حولهما بالعربية فلم يفهما شيئًا. كما أن محاولات التحدث مع ضباط الشرطة بالإنجليزية فشلت تمامًا، فضلًا طبعًا عن المحاولة بالإيطالية.

وبين الحاضرين ووسط الزحام وعلى بُعد أمتار وقفت صحفية شابة طموحة. أرادت أن تسبق الجميع وتنال سبقًا صحفيًا قد يدفع بها لأن تكون مذيعة شهيرة بالقنوات الفضائية يومًا ما. التقطت هذه الصحفية الخيطَ فورًا، وبعد لحظات كانت تطلب الرقم المباشر لرئيسها في تلك المحطة الإخبارية الشهيرة:

- نعم يا أستاذ إبراهيم. خبر عاجل للغاية. اقطع البث الآن قبل أي شخص آخر وأَعْلِن خبرَ العثور على لوحة أزهار

الخشاخيش!... نعم؟ ما اسمها؟ «الخشخاش؟»، نعم هذه التي أعنيها. أَعْلِن فورًا أن سلطات مطار القاهرة بالتعاون مع وزارة الداخلية وبفضل تكاتف جهود وزارتَي الثقافة والداخلية... نعم؟ والإعلام أيضًا؟ أكيد طبعًا.. بفضل توجيهات السادة الوزراء واهتمام القيادة السياسية تم إحباط تهريب اللوحة مع شابين من إيطاليا! نعم يا افندم. متأكدة.. أنا رأيت الشابين واللوحة بعيني. هم أمامي الآن. من إيطاليا. حضرتك اقطع البث وَذِع الخبر على ضمانتي!

وبالفعل، قام رئيس المحطة الإذاعية بقطع البث وإذاعة خبر العثور على اللوحة سليمة بفضل توجيهات القيادة السياسية وتكاتف جهود وزارات الإعلام والثقافة والداخلية والعدل. وقت قطع الإذاعة كان منير شعبان يقود سيارته متجهًا إلى مكتب وزير الثقافة ليُتابع الموقف معه أولًا بأول. أدار مؤشر المذياع بسيارته ليستمع لنشرة الأخبار لعل هناك أي جديد عن السرقة، وإذا به يستمع لبيان الإذاعة حول العثور على اللوحة!

فرحة عارمة اجتاحت قَسَمات وجه منير. رقص قلبه فَرحًا وكأن شخصًا ما أزاح حجرًا مِن على صدره. ذرفت عيناه الدمع من الفرح وهو يحمد الله أن الموضوع مر على خير. يا لَهُ من يوم عصيب. لقد نسي حتى أنه صائم، وأنه في رمضان. لم يلتفت لهاتفه الذي لم يهدأ منذ الصباح. الكل يسأل ويطمئن عليه. أمسك هاتفه أثناء قيادة سيارته

ولم يعبأ بكمٍّ الأخطاء التي ارتكبها ولا بسائقي السيارات الذين صبوا لعناتهم عليه!

تحدث على الهاتف الخاص المباشر لوزير الثقافة:

- الحمد لله يا فؤاد.. الموضوع مر بسلام. عثروا على اللوحة في المطار. كانت مع شابين إيطاليين كما اعتقدنا. وهي بحوزة سلطات المطار الآن.. طبعًا طبعًا أنا متفق معك بشدة. هناك تقصير، ويجب محاسبة المُقصرين. الحمد لله أن الوضع انتهى بسلام!

أنهى الوزير المكالمة واسترخى في مقعده الوثير وارتسمت على وجهه ابتسامة واسعة. نادى على مدير مكتبه بسرعة:

- أريد المسئول الإعلامي في الوزارة. أريد بيانًا صحفيًا فورًا بالعثور على اللوحة. ويتم عرض البيان عليَّ شخصيًا ثم إرساله لجميع الصحف ووكالات الأنباء فورًا!

20

«أعلن السيد فؤاد حسين وزير الثقافة المصري في بيان رسمي بثته وكالات الأنباء تَمَكُّن أجهزة الأمن المصرية من إحباط محاولة تهريب لوحة «زهور الخشخاش» للفنان «فان جوخ»، بعد ساعات قليلة من سرقتها من متحف محمد محمود خليل، وتمكنت الأجهزة الأمنية بمطار القاهرة من ضبط اللوحة بحوزة شاب إيطالي حاول تهريبها للخارج».

كان ذلك نص البيان الصحفي العاجل، والذي تم بثه من مكتب وزير الثقافة المصري لجميع الصحف ومحطات الإذاعة والأخبار المصرية والعالمية بشكل عاجل.

كان تعامُل الأمن مع «ماركو» و«داريا» حذرًا للغاية. من ناحيةٍ فقد شعر ضابط الأمن أنه ألقى القبض على اثنين من كبار المجرمين، حتى أنه بدأ يحلم بالشهرة والمكافأة. ومن ناحية أخرى فقد كان حريصًا في تعامُله معهم لأنهم من الأجانب، وخاصة أنه تم إخطار السفارة الإيطالية بناءً على طلب مدير الأمن. حيث طلب حضور مندوب عن السفارة مع مترجم أثناء إجراء التحقيقات. تم إيداع «داريا» و«ماركو»

حجرة مغلقة ولمدة ساعة تقريبًا لم يتبادلا أي حديث خوفًا من وجود أية أجهزة للتنصت أو كاميرات للمراقبة.

بعدها بساعة واحدة حضر مندوب السفارة ومعه المترجم وبدأ التحقيق والذي أنكر فيه «ماركو» و«داريا» معرفتهما بأي شيء يخص أية لوحة مسروقة، ودار الحديث حول اللوحة المضبوطة، وأنها هدية من فنان مصري. بالطبع لم يصدق الأمن كل ما قيل، وأصر على التحفظ على اللوحة حتى يحضر مندوب وزارة الثقافة بنفسه. أيقن «ماركو» أن الطائرة قد أقلعت بدونهما وتحدث بالإيطالية مع مندوب السفارة والملحق الثقافي بالسفارة وشرح الموقف لهما. وطلب من الملحق الثقافي أن يُلقي نظرة على اللوحة ليتيقن بنفسه أن الأمر مُزحة سخيفة. اللوحة المضبوطة عادية جدًّا وتحمل توقيع فنان مصري اسمه آدم. وبالفعل طلب مندوب السفارة رؤية اللوحة، وما إن رآها حتى ابتسم؛ تيقن أن «ماركو» على حق. تحدث الملحق مع المترجم والملحق الأمني وهاتف السفير سريعًا.

دقائق قليلة وأصدرت السفارة الإيطالية بالقاهرة بيانًا رسميًّا ينفي جُملةً وتفصيلًا العثور على لوحة «فان جوخ» المسروقة مع شابين إيطاليين. وطالب البيان السلطات المصرية التأكد من الأخبار قبل إذاعتها. انقلبت الدنيا رأسًا على عقب. فقد صدر ساعتها بيانان رسميان: أحدهما من مكتب وزير الثقافة، والآخر من السفارة الإيطالية. بعض الصحف المصرية كانت قد صدرت بالفعل بأنباء

العثور علـى اللوحة. عاد الوزير ليتحدث مع منير مرة أخرى، فالأخير من المفترض أن يكون بالمطار:

- منير، أين أنت؟!

- أنا في الطريق إلى المطار فورًا يا فؤاد بك.

- كان من المفروض أن تكون هناك منذ ساعة.

- لقد كنت أفطر.. كل عام وأنت بخير.

- أكمل إفطارك بالمطار أو حتى لا تفطر، السفارة الإيطالية نفت العثور على اللوحة، ألم تبلغني أنت أننا عثرنا عليها؟

- كيف نفوا الخبر؟ بعد دقائق سأكون في المطار.

- من أين أتيت أنت بأخبار العثور على اللوحة؟!

- من كل وكالات الأنباء والصحفيين.. إنه خبر مؤكد.

- مَن هو مصدرك يا أستاذ منير؟!

صمت منير طويلًا وعندما انفعل الوزير عليه أخبره بأن الخبر أُذيع فـي الإذاعة. استشـاط الوزيـر غضبًا وأمره بأن يكون فـي المطار، وأن يُعايـن بنفسـه اللوحة ويتأكد مـن صحتها وصحة الخبـر. وإلا فليُفرِج فورًا عن الإيطاليين قبل دخول الوزارة في أزمة دبلوماسـية وسياسـية، فضلًا عن الأزمة الثقافية والأمنية أيضًا!

وبالفعـل، بعـد قليل فـي المطار انهار شـعبان وهو يـرى اللوحة، واندفـع متهمًـا رجـال الأمـن بالجهل والتسـبب في هـرب اللصوص الأصليين. وظل شـعبان يعتـذر لـ«ماركـو» و«داريا». قبـل أن يرحلا أوقفهما رجل من المحققين وسألهم عن طريق المترجم:

- هل قلتم إنكم أنتم بالفعل مَن كنتم في المتحف صباحًا؟
- نعم، لقد زُرناه زيارة عادية.
- وهل رأيتم لوحة «فان جوخ» صباحًا؟
- لا، لقـد رأينـا لوحة «مونييه» فقط اليوم. كنـا نتجول في الدور الثاني.
- ومَن أيضًا كان معكم في الزيارة؟
- فنـان مصري يعـرف المتحف جيدًا. وهو أيضًا مَن رَسـم هذه اللوحة.
- مصـري ويعرف المتحـف جيـدًا، وكان بالمتحـف صباحًا.. عظيـم.. قبـل أن يُخلَى سـبيلُكم اتركوا اسـمه وبياناته وكل ما تعرفون عنه.

بعدهـا أُخلِيَ سـبيل «ماركو» و«داريـا» وانتهى الموضـوع بتوجيه الاعتـذار الرسـمي لهمـا وللسـفارة الإيطالية. اسـتقلَّا الرحلـة التالية ليلحقا بـ«جارديني» في إيطاليا!

***

في رد فعل أمني سريع وحاسم تم إبلاغ القوات وتوجهت قوة أمنية ضخمة لتُداهم منزلَ آدم لإلقاء القبض عليه والتحقيق معه. كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً، وكان آدم يستمتع ببعض الموسيقى الهادئة في بيته عندما سمع طرقًا شديدًا على باب المنزل انخلع له قلبه. فوجئ آدم بقوات الأمن تقتحم بيته ومعهم ضابط برتبة كبيرة يأمرهم:

- فتشوا البيت فورًا. فتشوا كل ركن. نريد أن نعثر على اللوحة.

اندفع شكري جار آدم، صاحب الشقة متشفيًا في آدم بين الضباط. أقحم نفسه بين الحاضرين ووقف يتابع ما يحدث في شقة آدم. وقف آدم مذهولًا مما يحدث حوله وحاول أن يسأل الضابط عن الأمر. أخبر آدم الضابط أنه سمع بأمر اختفاء لوحة «فان جوخ» من الإذاعة ومن بعض الأصدقاء في المتحف. قبل أن يُجيب الضابط سمع أحد الجنود يصرخ بحماس:

- يا افندم. لقد وجدت اللوحة.

نظر الضابط لآدم نظرة انتصار وآدم لا يزال في حالة ذهول.. وقبل أن ينطق بأي حرف سمعوا نفس الجندي يصرخ بحماس أقل:

- يا افندم.. أعتقد أنني وجدت لوحة أخرى.. لستُ متأكدًا.. هناك لوحات كثيرة هنا.. المكان هنا يبدو كمعرض لوحات.

ابتسم الضابط مرة أخرى بفخر أكبر وهو ينظر لآدم:

- لوحات كثيرة.. كم لوحة سرقت إذًا؟ واضح أنك مُحترِف.

- سَـرَقْت؟ هذه لوحاتي.. أنا أستاذ دكتور بكُلية الفنون الجميلة قسم التصوير الزيتي.

نظر له الضابط بريبة وتحرك نحو المرسم ونظر للوحات. وبالفعل كانت كلها تحمل توقيع واحد لآدم.

- هل تعرف متحف محمد محمود خليل؟

- نعم، طبعًا أعرفه جيدًا.

- تحرياتنا تؤكد أنك كنت اليوم هناك قبل اكتشاف السرقة.

- لقد سمعت الخبر بالفعل في الإذاعة قبل الإفطار وذُهلت.

- أَجِبْنِي، هل كنتَ في المتحف صباح اليوم؟

- نعم، كنت هناك و...

قبـل أن يُجيب نادى الضابط على أحد جنـوده وأمره بإلقاء القبض فـورًا على آدم واقتياده معهم لقسـم الشـرطة لاسـتكمال التحقيقات. كمـا أمر الضابط جنوده بحصر اللوحات وفـرز أية لوحة تحتوي على زهور وضمها ضمن أحراز القضية للعرض على خبير من خُبراء وزارة الثقافة.

تدخَّل شكري فجأة في الحوار:

- نعم يا حضرة الضابط. أعتقد أن آدم هو اللص. لقد رأيته ومعه عصابته من الأجانب. ومستعد للشهادة بذلك في أي وقت!

نظر له آدم بدهشة ولم يرد، خاطب الضابط مرة أخرى:

- حضرة الضابط، هناك لَبْسٌ في الموضوع. أنا أعرف لوحة «فان جوخ» أفضل من خُبراء وزارة الثقافة. اللوحات هنا كلها لي، وعليها توقيعي. أنا أستاذ دكتور ولست لصَّ لوحات!

- تفضل معنا أولًا وسنرى كلَّ شيء لاحقًا بالقسم.

ذَهِلَ آدم واستسلم للجنود وهم يقتادونه كالمجرم أمام جيرانه. المصيبة الأكبر كانت في جمع عشرات من لوحاته تحمل كلها توقيعه هو لعرضها على خبراء من وزارة الثقافة.

***

في تلك الأثناء كانت الأمور مشتعلة في أروقة وزارة الثقافة. أعلى قيادات سياسية في البلد تحدثت مع وزير الثقافة لمعرفة آخر المستجدات في القضية. الأوامر كانت صارمة بمحاسبة المتسببين في السرقة حتى ولو عادت اللوحة. بيان الوزارة بالعثور على اللوحة تم توزيعه ونشره وصدرت بالفعل الصحف ليلًا تحمل البيان. لذلك وعندما تلقى الوزير مكالمة منير شعبان والتي أخبره فيها بأن اللوحة ليست هي المسروقة. أُسْقِط في يد الوزير، لقد أصدر بيانًا رسميًّا بناء على مكالمة هاتفية فقط. تأخر الوقت وحل الليل والوزير ما زال في مكتبه والموضوع يتطور إلى الأسوأ كل دقيقة.

فجأة دخل مدير مكتب الوزير مهرولًا إلى مكتبه:

- سيادة الوزير، «عمر الكاتب» على الهاتف ويريد أن يتحدث مع معاليك الآن.

- عمر الكاتب، وماذا يُريد؟!

- هو الآن على الهواء في برنامجه «العاصمة اليوم» وتحدث بشكل سيئ جدًّا عن سرقة اللوحة وأنباء استعادتها وأنباء أخرى عن عدم استعادتها، ومدير الإعداد بالبرنامج طلب أن يتحدث مع حضرتك الآن على الهواء.

- هل قلتَ له إنني في المكتب؟

- طبعًا.. أفضل من أن أقول إن الوزير ترك الأزمة وعاد لبيته، أو أنْ أعتَذِرَ بأي عذر آخر.

- حوِّل المكالمة لمكتبي فورًا.. والله لأحولك للتحقيق يا منير كما ورَّطني هذه الورطة.

بعد دقائق تكلم الوزير على الهواء مباشرة، حيث أكد أن اللوحة سُرقت وأكد بيان الوزارة الأول.

- ولكن حضرتك قرأنا بيانًا آخر يُفيد بأن اللوحة تم العثور عليها.

- للأسف، فهذه الأخبار عارية من الصحة.

- الأخبار أم البيان؟

- لم يتم العثور على اللوحة.

- أنا بين يديَّ الآن بيانان، بيان رسمي من وزارة الثقافة يُفيد بالعثور على اللوحة مع شابين إيطاليين قبيل مغادرتهما من مطار القاهرة. وبيان رسمي آخر من السفارة الإيطالية يُفيد بأن هذه الأنباء عارية من الصحة.

- بالفعل، أنا أنفي العثور على اللوحة.

- وبيان الوزارة؟

- كان هناك تضارب في الأنباء من قِبَل الأستاذ منير شعبان وكيل الوزارة وسوف نحاسب المسئولين عن الإهمال والسرقة تنفيذًا لتوجيهات السيد رئيس الجمهورية. لن يفلت المُقصِّرون بهذه الفعلة أبدًا.

21

معنا على الهواء مباشـرةً في مداخلة مباشـرة الأستاذ «منير شعبان» وكيـل وزارة الثقافـة ومدير قطـاع المتاحف، أهلًا بحضرتك يا أسـتاذ منير.. ما الذي حدث؟

حكـى منيـر كل مـا يعـرف عـن الحـادث مُسـترجِعًا أحـداث يوم السـبت الأسـود منذ اسـتيقظ على الخبر وحتى السـاعات الأولى من صباح الأحد. في هذا الحوار المباشـر نفى العثور على اللوحة وأعلن مسـئوليته عن تضـارب التصريحات فـي الوزارة، ولكنه قبـل أن يُنهي المكالمة فتح على نفسه بابًا كبيرًا لم يستطع أن يُغلقه بعدها أبدًا.

من ناحية لأنه وللمرة الأولى - ورغم تحمُّله مسئولية التصريحات المُتسـرعة - ألقـى باللـوم علـى الوزيـر مباشـرةً. ومـن ناحيـة أخرى فقـد اعتـرف منير ضمنيًّا وعلى الهواء مباشـرةً أن هنـاك تقصيرًا داخل الوزارة، وكان من الطبيعي أن تتم محاسـبة المُقصِّرين. لقد أهدى منير للنيابة العامة ليلتها الخيط الأول لاتهامه وآخرين بالتقصير والإهمال؛ فقـد قـرر منيـر أن السـرقة تمت لأنـه خاطبَ الوزيـر لتغييـر كاميرات المراقبة القديمة والتي تم تركيبها من خمس عشـرة سـنة إلا أن الوزير

لـم يَسْـتَجِب. باءت محاولاته لاحقًا بإلصاق التهمة للوزير بالفشـل، لقوة علاقة الوزير بالسـلطة ولسـهولة إثبات وجـود تقصير في القطاع الذي يرأسـه منير. وبالتالي فكما يقولون فقد ارتدَّت رصاصة منير إليه هـو شـخصيًّا. ففي الصباح، وبعد عدة سـاعات لم يسـتطع خلالها أن يُغلق عينيه، تم استدعاؤه للنيابة العامة للتحقيق.

ليلًا، وأثناء عرض البرنامج، بات آدم الليلة في قسـم الشـرطة قبل عرضـه على النيابة فـي الصباح للتحقيق. تم تحريز عشـرين لوحة من لوحاته رغم وضوح توقيعه عليها جميعًا. حتى أن آدم طلب من الضابط في القسـم أن يطلب صورة للوحة المسروقة ويقارنها بلوحاته، ولكن الضابط لم يُعره أيَّ انتباه. تعامَل ضابط الشـرطة بقسوة مع لوحاته. تم إتلاف بعضها أمامه وسط دهشته وعجزه. فكر للحظة، كيف يتعاملون مـع هذه اللوحات بهذه الطريقة؟ وكيف لو أن اللوحة المسـروقة التي تساوي ملايين الدولارات كانت بينها بالفعل؟

كانت ليلة كارثية قضاها آدم في مَحبسه بين المُجرمين والمُتهمين. حاول بعضهم الحديث معه ولكنه انكفأ على نفسـه، أغمض عينيه بعد أن باءت كل محاولاته للدفاع عن نفسـه بالفشـل ولم يسـتطع أن ينام! شعور عميق بالأسى أن يقضي فنان ليلته بين المجرمين والقتلة. خليط من الظلم والذل والانكسار استسلم له آدم تمامًا. على عكس الآخرين. هنـاك مَن يصرخ أو يسـتغيث. صمت آدم تمامًا فجلـس صامتًا. قضى وقتًا طويلًا محاولًا إبعاد بعض المُتحرشين من المجرمين المسجونين

معه. تحمَّل تحرشـهم به وسرقة ما معه من جنيهات من محفظته، ولم يَـرُد أو يطلب الغوثَ أو يصرخ كما يفعل الآخرون. صمت حتى تركه المجرمون وناموا، أما هو فقد انكفأ على جنبه صامتًا.

لم ينطق بكلمة في الصباح. لم يَرُد سلامًا لأحد. ابتلع الأمر كله في كبرياء وسكت عن الكلام. سِيق كالمجرمين مُكبَّل اليدين لمبنى النيابة حيـث كان وكيل النيابة يُحقق فـي القضية. أثناء الانتظار وقبل العرض على النيابة رآهم كلهم هناك.

رأى آدمُ صديقَه عبد القادر مراد وسـكرتيرته سـعاد، أو سوسو كما كان عبـد القـادر يُطلـق عليهـا. رأى صديقـه الفنان منير شـعبان. رأى أيضًـا مديـرة المتحف مريم باهـر. الجميع كانوا هنـاك و معهم الكثير مـن موظفي وحُراس المتحـف. وقف الجميع في الانتظار. اسـتغرق التحقيـق الواحد ما بين نصف سـاعة إلى سـاعة. أثنـاء الانتظار حاول منيـر وعبد القـادر تجاذُب أطـراف الحديث مع آدم، إلا أنـه ظلَّ على صمته. لم ينطق.

تعجَّب منير وعبد القادر من وجود آدم. فقد كان الجميع تقريبًا من موظفي وزارة الثقافة على العموم والمتحف على الخصوص إلا آدم. وظل آدم صامتًا وحده مَذهُولًا مُعترِضًا بطريقته.

داخل حجرة النيابة جلس السـيد «شريف المنشاوي» وكيل النائب العام يُطالع أخبار القضية التي شغلت الرأي العام طوال اليوم السابق. تلـك القضية التي نالت اهتمام أعلى قيادات سياسـية في البلاد. كانت

مُعاينة النيابة في اليوم السابق كارثية. كاميرات تصوير لا تعمل، أجهزة كشف السرقة لا تعمل، جهاز كشف المعادن عند دخول المتحف لا يعمل، دفتر الزوار غير مُستخدم غالبًا، تقريبًا لا توجد حراسة داخلية في المتحف، إجراءات فتح وإغلاق المتحف كانت شكلية تمامًا. اختصارًا.. كان الوضعُ كارثيًا! أدرك منذ الوهلة الأولى أنه حتى وإن لم تتمكن النيابة من التوصل للسارق، فإن هناك الكثير من الإهمال والتقصير في القضية. لعل أحد المسئولين عن المتحف يكون متواطئًا أيضًا مع السارقين. لوجود كمٍّ هائلٍ من إهمال بهذا الحجم، وُسِّعت دائرة الاشتباه لتشمل العديد من المسئولين بالمتحف وبالوزارة. إستعد شريف جيدًا لمعركة طويلة من الاستجوابات والاستنتاجات.

بين كل الأسماء المُقدَّمة للنيابة من مسئولين وجد هناك اسم واحد غريب: د. آدم عبد البديع، وهو غير مُتهم بشيء، ولكنه فقط مُشتبَه به كونه المصري الوحيد الذي زار المتحف يوم اكتشاف السرقة. تعجَّب شريف من سبب الاشتباه وقرر أن يبدأ به هو قبل أن يبدأ تحقيقاته مع المسئولين المُتهمين بالتقصير والإهمال.

في الخارج ظل آدم صامتًا إلى أن نُودِي على اسمه فتقدم وجلس بين يدي وكيل النيابة. والذي ما إن رآه حتى هوَّن عليه الأمر:

- الأوراق التي بين يدي تقول إنك من المُشتبه فيهم بدليل وجودك في المتحف قبل اكتشاف السرقة.

- بالفعل، ففي بلد مثل هذه، فزيارة متحف للفن الراقي جريمة، يُصنَّف فاعِلُها من المجرمين والمشتبه بهم!

- ولا يوجد أي شيء آخر في الأوراق غير بعض الأحراز لبعض اللوحات.

- دليل آخر يؤكد أنني مُجرم ومشبوه!

- الخُبراء أكَّدوا أن هذه اللوحات لا تَمُت بِصِلَة لتلك اللوحة المسروقة.

- وهل يحتاج الأمر إلى خُبراء ليعرفوا الاختلاف بين لوحاتي ولوحات «فان جوخ»؟! وهل يحتاج الأمر إلى خُبراء ليتمكنوا من قراءة توقيعي على لوحاتي؟! وهل يحتاج الأمر إلى خُبراء ليستبعدوا أنني سرقت لوحة لـ«فان جوخ» في الصباح، ثم ذهبت لبيتي ووضعتها بين لوحاتي ونِمْت؟!

- يبدو أن في الأمر سوءَ تفاهُم كبير. لماذا زُرت المتحف بالأمس؟

- سوء تفاهُم؟! الأمر كله معكوس. أنت تسألني لماذا زُرت المتحف؟ وأنا أسأل لماذا لا يَزورُه الناس كلهم؟! لماذا يذهب الآلاف لمشاهدة أفلام العيد الهابطة والتحرُّش بالفتيات، بينما يعزف نفس الناس عن زيارة دار الأوبرا للاستماع لسيمفونية أو لمشاهدة عرض مسرحي أو معرض لوحات؟! عندما

تنقلب الآية وأُصبح أنا الوحيد الذي يزور المتحف فأنا أكيد المتهم والمجرم في نظر ذلك المجتمع.

- أرجوك يا أستاذ آدم أن تهدأ. لنبدأ من أول الحكاية، مَن أنت؟ وما عملُك؟ ولماذا كنتَ هناك بالأمس تحديدًا؟

هدأ آدم واسترخى وبدأ يحكي منذ البداية. حكى عن حياته وعمله كفنان وأستاذ بكلية الفنون الجميلة. حكى كيف عرف «داريا» و«جارديني» و«ماركو». وحكى عن زياراته المُتكررة للمتحف، وعن صداقته لعبد القادر مراد مدير الأمن بالمتحف.

- د. آدم، هل رأيتَ صديقك عبد القادر مراد بالمتحف بالأمس؟

- لا، لم أَرَه.

- د. آدم، أنا شخصيًا سأكتفي بأخذ أقوالك على المحضر وستنتظر معنا بالخارج حتى إنهاء بعض الإجراءات.

- سكتَ آدم كأنَّ القرار لم يُعجِبه. توقع أو تمنى أن يُخْلَى سبيلُه فورًا. لم يُعلق وهو ينظر بعدم رضا نحو شريف والكاتب. قبل أن يُمسك بالقلم ويُوَقِّع باسمه تحت الأقوال. في هدوء استدار آدم، وقبل أن يَفتح البابَ ناداه شريف مرة أخرى كمَن تذكَّر أمرًا كان غائبًا عنه تمامًا:

- د. آدم، هل رأيتَ اللوحةَ المسروقة بالأمس أثناء زيارة المتحف؟

- لا، لـم أرها أمس، لم أَمُر على القاعـة التي بها اللوحة، وأظن أن باب القاعة كان مُغلقًا.

- ومتـى كانـت آخـر مـرة رأيـتَ اللوحـةَ بمـا إنك مـن مرتادي المتحف؟

- يـوم الثلاثاء الماضـي، رأيت اللوحة وكانت جميلة ومُسـتقِرة مكانها.

- كلامُـك خطيـر، معنـى ذلك أن السـرقة قـد تكون تمـت يوم السبت، أو حتى قبلها بأيام؟

- لا أعـرف، ولكنْ بالطبع المسـئولون عن فتـح وإغلاق وجَرْد المتحف يوميًّا هم مَن يعرفون.

- شكرًا يا د. آدم، أنا آسف لإزعاجك.

غادر آدم حُجرة وكيل النائب العام، إلا أنه ظل بمبنى النيابة مُنتظِرًا قـرارًا بالإفراج عنـه. وعاد من جديـد إلى صمته. خـرجَ الحاجب من حُجرة وكيل النيابة ونادى بأعلى صوته:

- عبد القادر مراد.

انتفـض عبد القادر واقفًا وهرول نحو بـاب الحجرة وهو يقول في سره: استُر يا رب!

22

دخل عبد القادر مراد على وكيل النيابة مُرتبِكًا منذ اللحظة الأولى، ومن النظرة الأولى أدرك شريف بحسه وخبرته في التحقيقات أن ذلك الرجل يُخفي وراءه الكثير. قد يكون ذلك «الكثير» فيضًا من الإهمال أو الفساد أو التواطؤ، أو حتى السرقة ذاتها. على كل الأحوال، وفي أحسن الفروض، فهناك تقصير أمْني، وعبد القادر هو المسئول الأول عن تأمين المتحف. بدأ البداية التقليدية بالاسم والسن والعنوان. تعجَّب شريف من كون عبد القادر من خريجي كلية الفنون الجميلة. عادةً ما يكون مديرو الأمن من رجال الأمن السابقين وليسوا من الفنانين. ولكن عبد القادر أجاب ببساطة أنه بالأصل موظف بوزارة الثقافة في قطاع المتاحف. بالنسبة له كلها وظائف إدارية لا فرق بينها. ومنذ اللحظة الأولى اتخذ عبد القادر موقفًا دفاعيًا شديدًا وأنكر كل الاتهامات وألقى بها على الآخرين في مهارة عجيبة.

- بصفتك مُديرًا للأمن، متى كانت آخر مرة رأيت اللوحة؟

- يوم الثلاثاء الماضي.

- ألا يُعد ذلك تقصيرًا من جانبك ألا تراجع وجود لوحة في

عُهدتك ثمنها 55 مليون دولار؟

- هي ليست في عُهدتي، بل هي في عُهدة أمينة العُهدة في المتحف. وهذه وظيفتها الوحيدة.

مر عبد القادر برشاقة ومهارة من المصيدة الأولى، وبدأ يستعيد ثقته في نفسه، بينما ظل شريف هادئًا يراجع أفكاره قبل أن يعاود الهجوم بحثًا عن ثغرة أخرى.

- أنت مدير الأمن في المتحف، لماذا لا تعمل الكاميرات والتي أعتقد أنها في عُهدتك؟

- بالضبط، هي في عُهدتي وأنا مسئول عن تشغيلها.

- عظيم، إذن أنت تعترف بالتقصير في صيانة وتشغيل الكاميرات.

- يا افندم أنا أعرف كل كاميرا مراقبة في المتحف، أعرف التي تعمل والتي لا تعمل والتي تحتاج فقط لبطارية ثمنها 50 جنيهًا لتعمل، أعرف كل شيء وذلك عملي. ولكنني تقدمت بطلبات كثيرة لمديرة المتحف لصرف المبالغ المطلوبة للصيانة ولكن لم يتم صرف أي مبلغ لي!

- وهل رفضَتْ؟

- لا، وافقت طبعًا وتقدمت بدورها بنفس الطلب للسيد مدير عام قطاع المتاحف.

- وهل رفض؟
- لا، وافق فورًا ورفع الطلب للسيد وزير الثقافة.
- وبالطبع وافق ورفعَ الطلب للسيد رئيس الوزراء.
- لا يا افندم، على حد علمي السيد وزير الثقافة ظل لفترة يُراجع ميزانية الوزارة للصرف على المتاحف فلم نتلقَّ منه الرد.
- منذ متى وأنتَ تنتظر؟
- سنتين على الأقل يا افندم.

سكتَ شريف وأخذ نفَسًا عميقًا. فقد نجح عبد القادر في الهروب من المناورة الثانية وأخذ يُفكر كيف يسأله في صميم عمله هو حتى لا يهرب كما فعل.

- أستاذ عبد القادر، بالأمس وعند اكتشاف الجريمة كان هناك جندي واحد يحرس المتحف من الخارج وهو تابع لوزارة الداخلية، أين حُراس المتحف من الداخل؟ هل من المفترض أن متحفًا كهذا ليس فيه حراسة داخلية؟
- لا طبعًا، خطة الحراسة تقوم على وجود ثلاثة حُراس داخل المتحف، كل واحد منهم مسئول عن دور كامل من أدوار المتحف.
- كلام جميل، أين كانوا؟

- للأسـف، فعندنـا حاليًا حـارس واحد فقط بعـد أن تقدم اثنان بالاسـتقالة. للأسـف الراتـب الشـهري للحـارس 300 جنيه مصريًا فقط. كيف نُعين حارسًـا يحـرس مليارات الدولارات ونعطيـه 300 جنيه فقط؟! للأسـف، كلما عيَّنَّا حارسًـا، يعمل لشـهر أو اثنين ثم يسـتقيل. وقد تحدثت في الأمر مع السيدة مُديرة المتحف...

- والتي رفعت الأمر للسيد وكيل الوزارة والذي بدوره...

- لا لا.. هـي وافقـت وتمَّ رفع الراتـب لـ500 في الشـهر، وكنا نستعد لتعيين حارسَيْن جديدَيْن.

مرة أخرى راوغ عبد القادر شـريف وتنصَّل من أية مسـئولية وألقى بهـا على رؤسـائه. لـم يكن شـريف مقتنعًا أن مدير الأمـن لم يُقصِّر في تأمين متحف مما أدى لسرقة لوحة ثمنها 55 مليون دولار على الأقل، عاد يُفكر كي ينقضَّ عليه مرة أخرى!

- أسـتاذ عبـد القـادر، قلتَ لي إن هناك حارسًـا واحـدًا كان من المفترض أن يكون موجودًا بالأمس، أين ذهب؟

- هو في إجازة مَرَضية، وقد قدَّم لي شـهادة مَرَضية مُعتمدة منذ أسبوع. وأنا عندي هذه الشهادة.

- وماذا عنك أنت؟ أين كنتَ وقت اكتشاف السرقة؟

- أنا كنتُ موجودًا بالمتحف بالأمس في مكتبي.

- لكن في حوالي الحادية عشرة والنصف صباحًا اختفيتَ ولم تكن موجودًا وقتَ اكتشاف السرقة.

- لا، أنا كنتُ موجودًا، يمكن فقط تركت مكتبي عشر دقائق لأُصَلي الظهر.

- أين كنتَ تُصَلي؟ في المتحف؟

- لا، في المسجد المُقابل للمتحف.

- ولكن لا يوجد مسجد مُقابل للمتحف.

- إنه على الجانب الآخر من الطريق الرئيسي. فقط أعبر الطريق وأكون هناك.

- ولكن الطريق الرئيسي لا يمكن عبوره أمام المتحف؛ حيث إن هناك حاجزًا من الحديد في منتصف الطريق لمنع عبور المُشاة.

- آه فعلًا.. حضرتك تعرف المنطقة جيدًا.. أنا فعلًا أمشي مسافة بسيطة حتى النفق، ثم أعبر النفق وأمشي نحو المسجد.

- أستاذ عبد القادر، حضرتك تمشي ثُلث ساعة للذهاب وثُلث ساعة للعودة، وتنتظر الأذان والإقامة، كل ذلك غير وقت الصلاة نفسها.. وصلاة السُّنَّة وغيرها.. بالتأكيد أنتَ تكون خارج المتحف لمدة لا تقل عن ساعة!

- كل عـام وحضرتك بخيـر. عمومًا أنا أُصلي في المسـجد في رمضان فقط. أيام مُباركة.

- وقـد حلَّت البركة عليك وتمَّت سـرقة لوحة ثمنهـا 55 مليون دولار لأنـه لم يتواجد أي شـخص تابع لأمـن المتحف وقت السرقة.

للمرة الأولى بدأ شريف يهدم جزءًا من دفاعات عبد القادر القوية. سـكت عبـد القـادر وقـد أدرك أنه سيُحاسَـب بـلا أدنى شـك. كانت خلاصـة اسـتجواب عبد القادر تأكيد شـكوك شـريف بوجـود إهمال وتقصير. فتح عبد القادر المجال لشـريف ليسـتجوب مُديرة المتحف ووكيـل الوزارة لشـئون المتاحف. وقد يصل الأمر لاسـتجواب وزير الثقافة. عاد شـريف يُفكر مرة أخرى فـي عبد القادر وعلاقاته بكل مَن كان مُتهمًا أو مُشتبهًا به في القضية.

- أستاذ عبد القادر، هل تعرف د. آدم عبد البديع؟

- نعم، طبعًا هو صديقي. فنان وإنسان مُحترم ومُرهف الحِس.

- لقد كان في المتحف بالأمس.

- هـو يأتـي كثيـرًا. آدم يعرف المتحـف أفضل مني ومـن مُديرة المتحف ذاتها.

- وذلـك يجعله خطيرًا جدًّا ومن المُشـتبه بهـم أيضًا. فضلًا عن وجوده بالمتحف.

- هـو فنـان، مثل مُخـرج السـينما الذي يذهـب كثيرًا للسـينما، وجـوده هنـاك منطقـي. ثـم دعنـي أُخبـرك بشـيء، اللوحـة المسروقة ليست أغلى لوحات المتحف، في القاعة المجاورة لوحـة لـ«جوجان» تُقدر بحوالـي 80 مليون دولار. وهناك في الطابـق الأعلى لوحة ضخمـة لـ«مونييه» قيمتها قد تصل أيضًا لنفس المبلـغ. لوحة «مونييه» كبيرة ويَصْعُب سـرقتها. ولكن لوحـة «جوجان» صغيرة ومهمـة. وآدم يعرف ذلك كله. أنا لا أُبالغ إن قلتُ إن آدم يأتي للمتحف على الأقل مرة كل أسـبوع لو ذكرت لي اسـم شـخصٍ آخر غير آدم لشـككت في وجوده في المتحف في ذلك اليوم المشئوم.

- آه فهمـت. عمومًـا سـنحتاج توقيعـك علـى الأقـوال. سـيتم استجواب بقية المُتهمين ثم سأعود إليك مرة أخرى.

أحـسَّ قلـب عبـد القـادر بالانقبـاض. وكيـل النيابـة لا يثـق فيـه وسيسـتجوبه مـرة أخرى. ثم كانـت الطامـة الكبرى فـي الجملة التي قالها وكيل النيابة بكل بسـاطة منذ لحظة. لقد ألقى وبمُنتهى البسـاطة بقنبلة كبيرة عندما قال «بقية المتهمين». وقتها فقط أدرك عبد القادر أنه «متهـم»، وأن الأمر لا يبدو بالبسـاطة التي توقعهـا. عاد يطلب من الله الستر في سره وهو في طريقه لخارج غرفة التحقيقات.

23

خارج حجرة وكيل النائب العام ظل آدم يُواصل احتجاجه الصامت. لم يتكلم مع أحد. حاول شعبان الحديث معه فلم يرد. عندما خرج عبد القادر من حجرة التحقيقات كان وجهُه مُسوَّدًا. صمت هو أيضًا لفترة. اقترب بعدها من آدم وهمس له أن وكيل النيابة سأل عنه وعن علاقته به. نظر له آدم بغير اكتراث ثم أطرق نظره للأرض مرةً أخرى وسكت. تراجع عبد القادر وقلّب بصره بين الحاضرين، وكان تقريبًا يعرف الجميع. نظر نظرةً طويلة لسكرتيرته سعاد ثم عاد وجهه للعُبوس وصمت. نادى الحاجب على مريم باهر مُديرة المتحف. هي الأخرى فنانة. كان مقر النيابة العامة يعج بالفنانين التشكيليين كقاعة من قاعات الأوبرا يوم افتتاح معرض أحدهم.

أثناء الانتظار سَرَت شائعة أن النائب العام قد يستدعي السيد وزير الثقافة للشهادة. بينما الجميع ينتظر لِما ستُسفر عنه الأحداث المتلاحقة فوجئ آدم بمَن يسأل عنه. وجد نفسه وجهًا لوجه أمام آخر شخص يتمنى أن يراه في هذه اللحظة وعلى هذه الحالة!

***

- أستاذة مريم، أين كنتِ وقتَ اكتشاف السرقة؟

- كنتُ في الطريق للمتحف.

- ما هي المواعيد الرسمية للمتحف في رمضان؟

- من التاسعة صباحًا حتى الثانية عصرًا.

- ولكنكِ كنتِ في الحادية عشرة والنصف صباحًا في الطريق للعمل.

- حضرتك تعلم أن العمل أقل في رمضان. كما أنني لستُ المسئولة عن فتح وإغلاق المتحف. هناك لجنة برئاسة أمينة العُهدة ومعها بعض الموظفين.

- أستاذ عبد القادر مراد قال في التحقيقات إنه رفع مُذكرة طالبًا فيها من حضرتك إصلاح الأعطال بالكاميرات وزيادة رواتب الحراسة الداخلية.

- بالفعل، وقد وافقتُ على زيادة الرواتب، وأما الكاميرات فقد...

فكررت مريم ما قاله عبد القادر عن الخطابات الموجهة من كل مستوى إلى الذي يليه والروتين المُصاحب للعملية، ولكنها أضافت:

- ولكنَّ هناك مبلغًا تم اعتماده بالفعل لإصلاح بعض الكاميرات.

- كم هو هذا المبلغ؟

- خمسة آلاف جنيه. بالإضافة لاثني عشر ألف جنيه أخرى ميزانية سنوية لتعيين حراسة داخلية.

- ولماذا لم يتم التعيين؟

- مَن قال ذلك؟ لقد وقَّعت بنفسي على عقود تعيين اثنين من الحُراس في بداية أغسطس.

- وأين هما؟ لماذا لم يتواجدا بالأمس؟

- لا أعرف.. يُسأل عن ذلك أستاذ عبد القادر المسئول عن أمن المتحف.

***

في هذه الأثناء، وخارج حجرة التحقيقات، فوجئ آدم بدكتورة سلوى ومعها دكتور عماد رئيس القسم. بدا د. عماد واثقًا جدًّا في نفسه وهو يتقدم د. سلوى بخطوات ثابتة مرتديًا بدلة أنيقة باهظة الثمن ونظارة شمسية. سلَّم آدم عليهم في فتور واستمر في صمته. حاول د. عماد التخفيف عن آدم وتهوين الأمر عليه.

- لا تَخَف، لقد تحدثت مع بعض المسئولين حين وصلت الأخبار. لا شيء عليك بالمرة.

- أعرف أنه لا شيء عليَّ ولكنني ما زلت هنا.

- دقائق وسيتم الإفراج عنك. اطمَئِن.

- كيف عرفت بوجودي هنا؟

- النيابة أرسلت تستفسر عنك وعن عملك بالكلية. كما طلبوا انتداب خبير ليفحص لوحاتك المُحرزة. أبشر يا د. آدم، فالنيابة العامة تعتقد أن مستواك الفني يقارب مستوى «فان جوخ».

- بل قُل إن النيابة العامة أصلًا لا تعرف مَن هو «فان جوخ»! ولولا الحادث لما سمع به أحد هنا أبدًا.

- لا تُبالِغ، إنها إجراءات روتينية. أتعلم أن هناك بعض لصوص اللوحات ممن يسرقون اللوحة ثم يرسمون فوقها لوحة أخرى بألوان أخرى لإخفاء ملامح اللوحة الأصلية. وبعد تهريب اللوحة تُزال الطبقة العليا وتعود اللوحة الأصلية.

- أعرف ذلك، ولكنني لستُ لصَّ لوحات.. هؤلاء المجانين تركوا متحفًا كهذا بلا حراسة. الناس كلهم مجانين لأنهم لم يُقدروا وجود هذا الكنز من الأعمال العظيمة في القاهرة. ولو أنهم سافروا لفرنسا مثلًا لدفعوا الكثير لزيارة اللوفر أو غيره من المتاحف.

- اهدأ يا آدم.. كلنا يعرف أن المجتمع لا يفهم في الفنون بشكل عام.

- إذن اللـص الحقيقـي هـو الذي وصـل بالمجتمع لهـذا الحد مـن التدنـي. نحن أصلًا بهـذا الإهمال والحـس الفني الهابط لا نستحق أعمال «جوجـان» و«فان جـوخ» و«مونييه». حتى التُّحَـف العظيمـة من التماثيل فـي الميادين العامة يُشـوهونها ويحفرون أسماءهم عليها.. قمة الانهيار والانحطاط!

- اهدأ يا آدم.. سأتركك لحظات ثم سنغادر المبنى معًا.

وبالفعـل فقـد أجـرى د. عماد بعـض المكالمـات الهاتفيـة والتي انتهـت باسـتدعاء وكيل النيابـة لآدم وتقديم الاعتذار لـه بعد الاطلاع علـى تقريـر خبير الأعمال الفنيـة. وتم الإفراج عن آدم مـن مقر النيابة العامة بضمان محل إقامته. عاد آدم لبيته مُنهَكًا صامتًا. لم يَسْـلَم يومها أيضًـا من تَحـرُّش جاره العجـوز كالعادة. هـذه المرة لم يُعِـرْه آدم أي اهتمـام ولم يرد عليه بالمـرة. ما إن دخل بيته حتى اغتسـل بماءٍ دافئ. ثم استلقى على فراشه ونام نومًا عميقًا.

***

استـمرت تحقيقات النيابة تقريبًا طوال اليوم. وشـملت العشـرات مـن العامليـن بالمتحـف وبـوزارة الثقافة وبقطـاع المتاحـف، وحتى مكتـب وزيـر الثقافـة شـخصيًّا. تفاصيل مخزيـة كثيـرة وردت خلال التحقيقـات من تبادُل للاتهامات إلى العشـرات مـن التقارير والمئات من المسـتندات. تقارير أمنيـة مُهمَلة، طلبات لترميـم المبنى وطلبات أخـرى لتغييـر الأجهـزة التي لا تعمـل. كلهـا تفاصيل ضلَّـت طريقها

بسبب الروتين الحكومي العميق. كشفت المستندات عن كم كبير من الفساد والإهمال الذي لم يكن ليظهر لولا اختفاء اللوحة. فقد اختفت تلك اللوحة التي كانت تستر عورات العشرات وتركتهم عرايا يواجهون القانون ويتبادلون الاتهامات بينهم. كلٌّ منهم يظن أنه ضحية، وأنه سيكون كبشًا للفداء. لم يجرؤ أيهم أن يعترف بأن هناك قُصورًا جماعيًّا في إدارة ذلك المتحف العظيم. بل إن ذلك الإهمال الذي تم كشفه في مكان واحد قد يكون مُتأصِّلًا في عشرات ومئات الأماكن الأخرى في انتظار تلك اللحظة التي قد تكشفه يومًا ما. لو علم «محمد محمود خليل» نفسه كل ذلك لما وَهَب القصر والتحف - هو أو زوجته - للدولة، ولأهداها لمَن يُقدّر المكان ويُحسن إدارته.

بعد عشرات من الاستجوابات أحس شريف بالإرهاق الشديد. قضى يومًا طويلًا شاقًا مليئًا بالعمل. تقارير من المعمل الجنائي، عشرات الاستجوابات، أقوال متضاربة أحيانًا ومتطابقة غالبًا، وتقارير ومستندات كثيرة قرأها وضمها لملفات القضية. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً، وقبل أن يغادر طلب أن يُنهي اليوم باستجواب آخر لعبد القادر مراد المسئول عن تأمين المتحف. كان قد نسي أمر عبد القادر تمامًا طوال اليوم. عاد وطلبه بالاسم. دخل عليه عبد القادر وقد ظهر عليه الإعياء الشديد والقلق.

- أستاذ عبد القادر.. كل الدلائل تشير إلى أن هناك مَن استغل كل الثغرات الأمنية وكل التقصير والإهمال وسرق اللوحة.

أغلب مَن تم استجوابهم اليوم يُعتبرون مُتهمين بالتقصير والإهمال إلا أنت.

- الحمد لله، ذلك خبر جيد جدًّا.. يا كرم الله.
- اصبر قليلًا.. هناك بين كل مَن حقَّقنا معه شخص واحد أو أشخاص تعاونوا مع اللص بشرح كل ذلك القصور. هناك مَن سرَّب له كل هذه المعلومات. هذا الشخص سيتم اتهامه بالسرقة وليس بالتقصير والإهمال.
- هل حضرتك تعتقد أنني أنا ذلك الشخص؟ لا يا افندم.. أنا لا أعرف أي شخص وليست لي علاقة بالسرقة تمامًا.. أنا مُقر بالتقصير والإهمال.
- دعني أكون مُحددًا معك.. عندما سألتك عن أموال الكاميرات وتعيين الحُراس أنكرتَ وقلتَ بالنص إنك كنت تستعد لتعيين شخصين. بينما أقوال مديرة المتحف والأوراق الرسمية المُوقَّعة منك تقول إنك بالفعل عَيَّنت شخصين. وللصدفة فهما أَخوان وقد رفعتَ راتبهما وعيَّنْتَهما وهما أشارا في تحقيق رسمي أنكَ طلبت منهما عدم الحضور إلا بعد شهر رمضان!
- نعم، لقد حدث ذلك بالفعل. تم اختيار الحارسَيْن وقد طلبت أن يكون العمل بعد رمضان حيث إن المتحف لا يزوره أحد

في رمضان.

- أستاذ عبد القادر، قبل أن تُراوغ مرة أخرى، الأخوان إسماعيل ومحمود عباس الحسيني هما ابنَا عم سعاد إبراهيم الحسيني، والتي تعمل سكرتيرة شخصية لك. ومع إنكارك وصول أية مبالغ لتغيير بطاريات الكاميرات، وجدنا أنك قمتَ بصرف مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه من أموال الوزارة لسعاد. يبدو لي أن هناك مَن استغلك أنت وسعاد وأقاربها للحصول على المعلومات.

هنا انهار عبد القادر، ولأول مرة قاطع وكيل النيابة مُعترفًا:

- حضرتك. أنا لا أعرف أي شيء عن سرقة اللوحة. سأعترف لك بكل شيء. سعاد الحسيني هي زوجتي الثانية، ولا أحد من عائلتي يعرف ذلك. وأولاد عمها شابان من خريجي الجامعة وليس لهما أي عمل. تلك هي الحقيقة. إهمال أو تقصير ممكن.. استغلال منصب ممكن.. ولكن سرقة.. مستحيل، لا يمكن أبدًا.

24

البندقية – بعد ثلاثة أسابيع

شـقَّ يختٌ كبير قنـاة البندقية الكبيرة بسـرعته، مُحدِثًا أمواجًا كبيرة على الجانبين. شـق طريقه المائي في دقائق نحو مَرْسَـى «سان زكريا» الشـهير والقريـب مـن ميـدان «سـان ماركو». لـم يتوقـف اليخت في المَرْسَـى واتخذ طريقًـا آخر بين قنـوات الجُزر الصغيـرة المتناثرة في قلب المنطقة التاريخية بالبندقية. على سـطح هذا اليخت كان المشهد مَهِيبًا، حيث وقف العشرات من رجال الحراسة الأَشِدَّاء.

مـر اليخت بمحـاذاة البيوت في الممرات المائيـة حتى توقف عند مَرْسَـى صغيـر. نـزل الرجـال جميعًا في موكـب كبير يُوحـي بوصول شـخص مهم للغاية، إلا أنه لم يكن هناك أي شـخص مهم في كل هذا الموكب. تقدم الجمع شخصًا يحمل علبة أسطوانية كبيرة. تقدم الرجل نحو باب منزل كبير يحمل لافتة نحاسية لامعة باسم «جارديني». طرق الرجـل الباب ففتـح له «جارديني» البـاب ودعاه للدخولِ تـاركًا كتيبة الحُراس بالخارج.

داخل المنزل الكبير كان كلٌّ من «ماركو» و«جارديني» في استقبال الضيف الهام والذي لم يكن سـوى مدير قسـم الفن التشـكيلي بصالة

«كريستي» للمزادات بلندن. جاء بنفسه وسط حراسة خاصة ليُسلم «جارديني» تلك اللوحة التي طالما انتظرها: «ماتا موا» لـ«بول جوجان». تصبَّب «جارديني» عَرقًا وهو ينتظر، فتح العلبة كطفل ينتظر هديةَ عيد ميلاده بفارغ الصبر.

احتاج «جارديني» لساعة كاملة لإخراج اللوحة وفَحْصِها فَحْصًا دقيقًا. بِحُكم خبرته وعِشقه لـ«جوجان» فقد عرف بعد نصف دقيقة أن اللوحة أصلية. مع ذلك أصرَّ على فحص أطرافها وألوانها وضربات الفُرشاة هنا وهناك. «جارديني» يحفظ أسلوب «جوجان» وألوانه. تأمَّل توقيع «جوجان» وسَنة رسم اللوحة. وعلى الطرف الآخر اسم اللوحة الذي كتبه «جوجان» بنفسه عليها. راجع أيضًا الأختام الموجودة على ظهر اللوحة والتي تؤكد أنها أصلية بما لا يدع مجالًا لأي شك. وما إن تأكَّد تمامًا حتى خلع نظارته ووضعها جانبًا ثم عاد للوراء خطوات وتأمَّل اللوحة كعاشق يستعد ليُقبِّل حبيبته للمرة الأولى.

ظل «ماركو» يتأمَّل «جارديني» في تلك الحالة. لم تكن تلك هي المرة الأولى، وغالبًا لن تكون الأخيرة. لم يكن أبدًا ليقطع على «جارديني» تلك اللحظة الرائعة. شعر كمَن يتأمَّل راهبًا يُصلي في محرابه. يرى الخشوع والعِشق في عينَيْه. قطع مدير كريستي تلك النشوة سائلًا «جارديني» أن يُوقِّع أوراق الاستلام والمِلكية. وقَّع «جارديني» الأوراق بالكامل، ودفع مبلغًا سخيًّا نظيرَ نقل اللوحة حتى بيته.

بعد انصراف وفد كريستي بدأ «جارديني» و«ماركو» إجراءات وضع «ماتا موا» داخل إطارها الفارغ وتثبيت اللوحة في مكانها داخل متحف «جارديني» الصغير. كانت لحظة جميلة تلك التي امتلأ فيها الإطار الفارغ. جميل هو شعور أن يكون الوصول لهدف طال انتظاره. تأمّل «جارديني» اللوحة طويلًا.

- والآن بعد وصول «ماتا موا» حان موعد إسدال الستار على القصة كلها.

- نعم.. أخيرًا.

- لقد كان يومًا عجيبًا بالنسبة لي، لقد نفَّذت خطتك بالحرف الواحد. ولكني كنت قد وعدتك في تلك الليلة في القاهرة ألا أسألك عن أي شيء حتى انتهاء العملية.

- نعم، أذكر ذلك.

- هل أستطيع أن أسأل الآن؟ هناك الكثير مما أحتاج أن أفهمه.

- اتركني أُعلق «ماتا موا» وأتأكد من الكاميرات وأجهزة منع السرقة والإنذار، بينما تُعد لنا أنت كوبيْن من الاسبرسو من ماكينتك، وسنجلس بعد دقائق. سأُجيبك على كل ما تريد. سأُخبرك بكل أسرار العملية.

انطلق «ماركو» خارجًا من متحف أو معرض «جارديني» الصغير بينما ثبّت «جارديني» اللوحة بدقة شديدة داخل الإطار الخاص. بدت

كعروس في فستانها. علّق اللوحة واتجه نحو ركن القاعة حيث يتم ضبط الإضاءة الخاصة بكل لوحة. اتجه لجهاز كمبيوتر خاص. أدخل كلمة السر ثم اختار بعض الإعدادات الخاصة فألقى كشّافًا صغيرًا ضوؤه على اللوحة فازدادت بهاءً وهيبة. بعدها تأكد من تفعيل أجهزة الإنذار والكاميرات، ثم غادر القاعة. بعد أن أغلق الباب وجد «ماركو» أمامه يدعوه للقهوة الإيطالية المُميزة.

على الأريكة الوثيرة في مكتب «جارديني» الفخم جلس «جارديني» مُسترخيًا سعيدًا مُنتظِرًا أسئلة «ماركو»!

- في البداية كانت عندي أسئلة كثيرة، ولكنَّ الآن هناك ثلاثة أسئلة مهمة فقط تدور في رأسي.

- قبل أن تسأل أريد منك شيئين، أما الأول فأنا قد وضعت لك الخطة وأنت نفّذتها ببراعة. أريدك الآن، وبعد أن انتهى الموضوع، وقبل أن أُجيبك، أن تحكي لي ما حدث بالتفصيل. وأما الطلب الثاني، بعد أن تحكي لي وأشرح لك، أن تعتبر الموضوع قد انتهى تمامًا وامْحُه من ذاكرتك تمامًا.. اتفقنا؟

- اتفقنا.

- احكِ لي يا «ماركو».. للمرة الأخيرة.. كيف أخذتَ اللوحة؟

***

في القاهرة كانت التحقيقات لا تزال مُستمرة بعد مرور أسابيع على اختفاء لوحة «زهور الخشخاش». أغلب الاتهامات كانت بالتقصير والإهمال. لم تعثر النيابة العامة على دليل مادي واحد تركه اللص. مما يؤكد أن العملية قام بها مُحترفون. كانت هناك شكوك تُساور وكيل النائب العام الأستاذ «شريف المنشاوي» أن هناك أحد المتهمين بالتقصير والإهمال على علاقة بالسارق. لا يمكن أن تُسرق لوحة كتلك دون تنسيق مع شخص بالمتحف. هل هو «عبد القادر مراد»؟ المسئول عن أمن المتحف. إحساسه أن ذلك الرجل لا علاقة له بالسرقة. أولًا لكونه المسئول الأول عن تأمين المتحف، وثانيًا لكونه المتهم الأول بالإهمال، وثالثًا لافتضاح أمر زواجه السري بسكرتيرته «سعاد الحسيني»، أو سوسو، كما كان الجميع يُطلق عليها.

مثل ذلك الشخص لا يمكن أن يُورط ويفضح نفسه بهذا الشكل. هو الآن بالفعل في ورطة كبيرة، سواء على مستوى العمل أو الأسرة. لا يعتقد أيضًا أن أحدًا من كبار المسئولين متورط في مثل تلك الجريمة. معظمهم مُتهم بالإهمال والتقصير، وتم بالفعل تحويلهم للمحاكمة. دائمًا ما يكون المتهم في مثل هذه الحالات من صغار العاملين. لم يكن يعمل في المتحف وقتها من الأمن إلا عامل واحد بسيط يُدعى إبراهيم. وحتى إبراهيم هذا ثبت أنه كان بقريته بالمنوفية في إجازة منذ الأسبوع السابق. وشهد أهله جميعًا على ذلك، وأكد عبد القادر شهادته. من العجيب أن يوافق عبد القادر على الإجازة

لعامل الأمن الداخلي الوحيد ولكنه برَّر ذلك بأنه لم يوافق، بل رضي بالأمر الواقع عندما هاتفه العامل من بلدته وأخبره بأنه يُعاني من مرض شديد ودرجة حرارة عالية.

فجأة تذكَّر شريف نقطة هامة جدًّا. لقد تم اكتشاف السرقة يوم السبت. مع كل ما تقدم من إهمال قد تكون السرقة تمت يوم الخميس، أو الأربعاء، أو حتى قبل ذلك بأسبوعين. قرر شريف استدعاء لجنة فتح وإغلاق وجَرْد المتحف ليعرف بالتحديد متى كانت آخر مرة رأوا فيها اللوحة رأيَ العين. وكانت النتيجة مُذهلة للغاية!

***

بدأ «ماركو» يروي لـ«جارديني» أحداث ذلك اليوم الذي لن ينساه أبدًا. في اللحظة التي استعد فيها «ماركو» ليعود من حيث أتى، اتجه نحو الشارع مُشيرًا بيده لأية سيارة أُجرة. رفع عينيه للمرة الأخيرة إلى مدخل المتحف وإذا بشخص يخرج من المدخل مرتديًا الملابس المُتفق عليها. وقف ذلك الشخص في الحديقة، أجرى مُكالمة سريعة من هاتفه المحمول ثم اختفى. هنا تدفقت الدماء في عروق «ماركو» وانطلق قلبه يخفق بسرعة شديدة وهو يعبر الشارع بثبات وهدوء لا يتَّسِقان مع العاصفة التي يشعر بها داخله الآن. اتجه بهدوء نحو مدخل القصر الخلفي كأي سائح أجنبي يدخل المتحف.

تذكَّر ساعتها لحظاته المماثلة في متحف الفن الحديث بباريس بعد منتصف الليل. نظريًّا لا توجد مقارنة بين تعقيد ليلة اللوفر وهذه

العمليـة التـي تبدو سـهلة. لقد حـذَّره «جارديني» كثيرًا من الاسـتهانة بأبسـط التفاصيل. أخبره أن خطأً بسـيطًا قد يُفسـد خطة مُحكمة، وأن تنفيـذ الخطـة بـكل تفاصيلهـا يـؤدي لنجـاح أعقـد العمليـات. دخل المتحف كما فعل في اليوم السابق تمامًا. كان يعرف أماكن الكاميرات ويتحـرك بهدوء كزائر عادي للمتحـف. كما أبقى على النظارة والقبعة حتـى لا تظهـر ملامحه فـي أي كاميـرا بالصدفة. وجد البهو الرئيسـي خاليًـا تمامًـا كمـا تركه فـي اليوم السـابق. صعـد درجات السـلَّم إلى الطابـق الأول. وجد بـاب قاعة «فان جوخ» مواربًـا وأقرب للإغلاق. دفعه بقدمه بهدوء، لا يوجد أي شخص بالداخل. عندما مر إلى داخل القاعة بسرعة انتهى هدوؤه، وفجأة أصبح أسرع عشرين مرة مما كان، كل ما فعله بعد ذلك لم يَستغرق دقيقتَيْن.

مـن جيبه الأيسـر أخـرج قفـازًا لإخفاء البصمـات. ارتداه بسـرعة فائقة وأغلق الباب بهدوء، ثم انطلق كالسـهم إلى الكرسـي الذي تركه «جارديني» أسـفل اللوحة منذ اليوم السـابق. شـعر بالارتياح، يبدو أنه لا أحـد يُراجـع أو حتى يُرتب تلك القاعة. قفز كالفهد فوق الكرسـي. أخـرج الأسـطوانة مـن جيبـه الأيمـن، ومنهـا أخـرج قاطعـة صغيرة. استخدم القاطعة في فصل اللوحة عن إطارها.

- كم هم طيبون هؤلاء المصريون! عندما قطعت لوحة كهذه في متحف الفن الحديث سَمِعَتْ باريس كلها صفارات الإنذار.

بهدوء وحَذَر شديدَيْن قطع «ماركو» اللوحة من إطارها. ثم نزل من فوق الكرسـي، وبهدوء لفَّ اللوحة ودسَّـها في الأسطوانة مع القاطع.

وأعـاد الأسـطوانة لجيبـه. نظر للكرسـي فإذا بعـض البـودرة الملونة انتشـرت عند لف اللوحة. أمسـك بالمنديل وأزال البودرة ومسح آثار حذائـه حتى لا يُعرف مقاسـه فيما بعد. وضع منديله فـي جيبه. عندما هـمَّ بإعـادة الكرسـي مكانه مرة أخرى سـمع صوتًـا مُفاجئًـا يأتي من الخارج. لم تكن الخطة تشـير لأية أصـوات. تمنَّى ألا يكون هناك مَن يـزور المتحـف في هذه اللحظة. اقترب وَقْـعُ الأقدام، واقترب هو من باب الحجرة ليسمع. سمع وقعًا لأقدام شخص واحد فقط. وللأسف فقـد كانـت الأقدام تقتـرب ووَقْعها يُشـير إلى أن صاحبهـا يقترب من الحجـرة ذاتها. خلع «ماركو» قفازه بسـرعة شـديدة وازداد انفعاله، لو دخـل أي شـخص الحجرة الآن ولـم يجد اللوحة لكانـت كارثة. عزم على الانتظار، لعل القادم يمر فقط من أمام الباب للقاعة التالية.

اقتـرب أكثـر من الباب واسـتعد نفسـيًّا، لو فتح أي شـخص الباب فسـيجري للخـارج فورًا. لـم يكن ذلك ضمـن الخطة ولكـن ما باليد حيلـة. اسـتعاد ذكريـات عمليـة متحـف الفـن الحديـث عندمـا قطع مسـافة كبيـرة جريًا بخمـس لوحات. مـا زال صوت الأقـدام يقترب. اسـتعد «ماركـو» للانطلاق. وقف الصـوت أمام باب القاعة مباشـرةً. لحظـات مـرت على «ماركـو» كالدهر. هل سـيمضي الضيـف الثقيل الذي يقف وراء ذلك الباب أم سيفتح الباب وتتعقد الأمور؟

لم يُمهل الشخص «ماركو» وقتًا طويلًا.

وانفتحَ الباب...!

***

نظر «جارديني» لـ«ماركو» باستغراب شديد!

- لم يكن ذلك في الخطة التي وضعتها.. لماذا لم تُخبرني بذلك من قبل؟!

- ألم تطلب مني أن نُؤجل القصة حتى تنتهي العملية؟

- أكمل يا «ماركو».. ماذا حدث وقتها؟

***

عندما انفتح الباب واستعد «ماركو» للانطلاق لم يدخل أحد للقاعة. استغرب «ماركو» ولكنه بادر بالخروج ونظر خارج القاعة فإذا بالموظف ذي البنطلون الجينز يقف صامتًا.

- تبًا.. لم يخبرني «جارديني» أن ذلك الرجل سيتبعني للقاعة. لا أحب المفاجآت في تلك الأوقات.

بمنتهى الهدوء وكأنما لم يرَ الرجل مشى كأنه أحد الزائرين. هبط درجات السلَّم في هدوء شديد. لاحظ أن الموظف الغامض أغلق باب القاعة خلفه. لم يلتفت «ماركو» ولم يهتم أصلًا إن كان ذلك الأبله قد مسح آثار أصابعه أم تركها. المهم أنه خرج ببساطة من حيث دخل. عَبَرَ الحديقة الخلفية في هدوء. شعر بارتياح أكبر وهو يعبر الشارع نحو النيل ويمشي مرة أخرى نحو المركز الرياضي. قطع هذه المسافة في ثلاث دقائق فقط هذه المرة. عند المركز الرياضي توقف مرة أخرى. نظر في ساعته. الساعة الآن الثانية عشرة وخمس وأربعين

دقيقة تقريبًا. لقد أتم العملية وعاد في خمس عشـرة دقيقة، وهي المدة التي حددها «جارديني» في خطته بدقة.

عمل مع «جارديني» سـنوات طويلة، لعلها أكثر مما عاشـه مع أبيه الفعلـي، ويثـق فيه كطفـــل صغير يتعلـق بأبيه وهو يحبو. يسـتند عليه فلا يشـعر أنه بحاجة لأن يمشـي وحده أبدًا. هو يمشي فقط في يد أبيه ويتبـع خطواتـه بدقة وهدوء. قد لا يتخيل أنه سـيأتي عليـه اليوم الذي يمشـي، بل ويجري أيضًا بدون تلك اليد. عندما يطلب منه «جارديني» القيـام بعمل ما فهو يقوم به بالضبـط كما طُلب منه. لا لأن «جارديني» هـو رب عمله، بل لأنـه يثق فيه تمامًا. يثق في رؤيتـه ودقته وتخطيطه. لقـد أثبت لـه «جارديني» المرة تلـو الأخرى أنه يعرف بدقـة ما يفعل. وعلـى الرغم من دروس «جارديني» ومحاضراته التي لا تنتهي، إلا أنه بالفعل تعلَّم منه الكثير. كان مما تعلم أنه لو أعطاك شـخص سـاعة من الزمـن للقيام بمهمة ما، اسـتخدم علـى أقل تقدير نصف هذه السـاعة للتخطيط الدقيق والتمرين والإعداد للمهمة. عندها فقط ستُدرك أنك لن تحتاج للنصف ساعة التالية للمهمة. ستحتاج لربع ساعة فقط!

ربع ساعة فقط!

خمـس عشـرة دقيقة فقـط هو الرقـم الذي جـال بخاطـر «ماركو» فـي تلـك اللحظة. يا له مـن ماكر ذلك العجوز! لقـد زار المتحف مرة واحـدة فقط، ومع ذلك خطَّط وحدَّد البدايـة والنهاية، وأخبر «ماركو» بأنه سـيحتاج فقط لربع سـاعة. وبالفعل، وكالعادة فقد صدق العجوز

الماكر. لقد أتم «ماركو» عمليات كثيرة مماثلة مع «جارديني». منها ما استغرق ليلة كاملة، منها ما استغرق ساعات طويلة. لا يذكر أبدًا أنه أتم عملية مثل تلك في ربع ساعة. ومتى؟ في الثانية عشرة والنصف من منتصف اليوم. هل بلغت دقة وثقة «جارديني» ذلك الحد؟ أم أنه ذلك المتحف الغريب. لا حراسة ولا كاميرات ولا أشعة غير مرئية ولا أجهزة إنذار ولا حتى زوار. للحظة شعر «ماركو» أن هذه اللوحة هدية سهلة.

- حتى لو أرادوا أن يُهدونا المتحف كله لما فعلوا كل ذلك. لولا «جارديني» لكنتُ أخذتُ معي لوحتين أُخريين. لو فعلتها لما استغرقت أكثر من نفس الوقت المحدد. نفس الربع ساعة. ها هو يحمل في جيبه 50 مليون دولار بمنتهى السهولة. دون دماء أو جري أو ليل أو انتظار. فقط في ربع ساعة، عند منتصف النهار!

قطع حبلَ أفكاره سريعًا ناظرًا نحو ساعة يده. ها هو في المكان المضبوط والوقت المُحدد بدقة أمام ذلك المركز الرياضي. عاد وتذكّر كلمات «جارديني» بدقة.

- بعدها بدقيقة واحدة.. بعد ستين ثانية فقط ستقترب سيارة أجرة عادية وستقف بالضبط أمام المركز الرياضي. لو نجحت مهمتك ستكون أنت أيضًا هناك وفي نفس الوقت. في تلك السيارة سيجلس شاب وفتاة في الخلف. كلاهما

يرتدي ملابس رياضية وملامحهما أجنبية. سينزل الشاب من سيارة الأجرة وستجده يرتدي بالضبط نفس ملابسك. نفس التصميم ونفس الألوان. بل ونفس المقاسات أيضًا. الفارق الوحيد هو أنه أيضًا يرتدي نظارة شمسية سوداء. عندما تجد ذلك الفتى بتلك المواصفات لا تتكلم معه. سلِّم عليه، سيركب السيارة مرة أخرى، اقترب من باب السيارة الخلفي وضع يديك في الجيب السري حيث الأسطوانة التي تحتوي على اللوحة. أخرِج اللوحة، وأعطِها له. سيأخذها، ويُسلم عليك وينطلق بسيارته.

كالعادة لم يَعُد من المستغرب لـ«ماركو» أن يحدث ما قاله له «جارديني» بالحرف الواحد. سلَّم اللوحة وانطلق الشاب الآخر بالغنيمة. إلى أين؟ لا يعلم. ولكن طالما أن «جارديني» رتَّب الأمر فلا خوف. شعر ساعتها بالارتياح الكبير كطالب قضى وقتًا طويلًا يُذاكر ويستعد للامتحان، وبعد أن أجاب عن الأسئلة شعر بالهدوء والاطمئنان. لقد أدى الامتحان وهو الآن سائح في القاهرة عليه فقط الاستمتاع بالجو الجميل والأهرامات والنيل. أوقف سيارة أجرة وانطلق عائدًا بالبشارة ليُقابل «جارديني» كما وعده عند الهرم.

***

- عظيم يا «ماركو».. لقد نفَّذت الخطة بدقة رهيبة. فقط ذلك الحارس الأبله، لا أعرف لماذا فتح باب القاعة، ربما دفعه الفضول لمحاولة مشاهدتك وأنت تأخذ اللوحة!

- يبدو ذلك، ولكن هل تُصدق ما حدث لي يومها؟!

- لماذا اعتبرتَ أن ذلك اليوم عجيبًا للغاية؟!

- سنيور «جارديني»، اعذرني على القصة الطويلة والتفاصيل المُملة. الخلاصة أنني دخلت متحفًا فنيًا كبيرًا في عاصمة دولة كبيرة في منتصف النهار، فخلعت لوحةً تُقدر بخمسة وخمسين مليون دولار في دقيقتين وخرجت وسط حفاوة من الحارس الوحيد المتواجد بذلك المتحف المهجور.. باختصار.. فأنا لم أرَ مثل ذلك ولا أتوقع أن أرى مثله أبدًا في حياتي!

25

بعـد إجازة عيد الفطر المبارك، ومع بداية العالم الدراسـي الجديد فـي كلية الفنون الجميلـة، حرص آدم على ألا يبدأ العام الدراسـي مع طلبتـه. أوضح لدكتور عمـاد طَلَبه بالحصول على إجـازة بدون راتب بحجـة العمل مع «بينالي» البندقية. أكدت د. سـلوى الموضوع ولكن كالعادة فقد تعنَّت د. عماد وطلب ورقة رسمية من الـ«بينالي» من أجل الموافقة على الإجازة. هدَّد د. عماد آدم؛ إما بالحصول على الخطاب الرسـمي وإمـا الانتظام بالعمـل، وإلا فسـيتم تحويله للتحقيـق بتهمة الانقطاع عن العمل.

لم يكن آدم بحاجة لأسباب أخرى ليَكره د. عماد الذي حصل على كرسـي لا يسـتحقه بالمرة؛ ولهذا فقد آثر الحديث مع د. سلوى لعلها تُخرجه من تلك الورطة. مر على مكتبها، فاتحها في الموضوع وطلب منها استعجال الطلب الرسمي من «داريا» ليسافر لإيطاليا ويبدأ العمل «بالبينالي». وعَدَته د. سـلوى بمراسلة «داريا» واستعجال الطلب. قبل أن يترك آدم المكتب نادته د. سلوى مرة أخرى.

- هل سمعت بآخر تطورات قضية «متحف خليل»؟

- لا، ماذا حدث؟ هل تم العثور على اللوحة أو السارق؟

- لا ولكني سمعت اليوم من د. عماد مفاجأة جديدة غير مُتوقعة على الإطلاق!

- ما هي هذه المفاجأة؟! لقد أثرتِ فُضولي.

- بعد إعادة استجواب لجنة فتح وإغلاق المتحف وأمين العُهدة اتضح أنهم جميعًا لم يروا اللوحة منذ عدة أيام قبل السرقة. أتعلم ماذا يعني ذلك؟

- ماذا يعني؟

- أتذكر يوم ذهبنا للمتحف مع «داريا» و«جارديني»؟ يبدو أننا كنا من أواخر مَن رأى اللوحة. اللجنة رأت اللوحة يومها ولم يرَ أي شخص منهم اللوحة بعدها.

- وماذا يعني هذا؟ هل سيتم اتهامنا مثلًا؟!

قاطعته د. سلوى سريعًا:

- بالطبع لا، ذلك يعني أن اللجنة كانت تفتح المتحف وتُغلقه دون التأكد من القِطَع. كانت تُوقع الأوراق فقط. مزيدٌ من الإهمال والتقصير.

- صدِّقيني يا د. سلوى، هؤلاء جميعًا لا يستحقون اللوحة. لو فهم أحدهم قيمتها لوضعها في عينيه ليلَ نهار. أما هؤلاء فمرتزقة. أمثال هؤلاء يستحقون العقاب لا أن يقوموا على

كنوز كهذه. وليسوا هم فقط، بل هم ووزيرهم وأغلب المصريين الذين لم يعرفوا بوجود اللوحة أو حتى المتحف إلا من صفحات الحوادث!

- اهدأ قليلًا، أتمنى أن يعثروا على اللوحة سريعًا. أخبَرَني د. عماد أنهم الآن يُعيدون استجواب بعض أفراد الحراسة البسطاء لعل أحدهم يكون له صلة بالسرقة.

صدمت الجُملة آدم كأنما صفعته د. سلوى على وجهه. صمت لبرهة ثم عاد ليُكمل الحديث قبل أن تلاحظ د. سلوى أيَّ تغيُّر في نبرته ووجهه.

- المهم، أرجو ألا تنسي موضوع «داريا». أنا أيضًا سأهاتفها وأطلب منها سرعة إرسال الطلب.

- لن أنسى، سأراسلها الآن.

***

ابتسم العجوز «جارديني» لـ«ماركو» وربت على كتفيه. لم يشك لحظة طوال الوقت أن «ماركو» نفَّذ الخطة بدقة شديدة وفي الوقت المُحدد. بأُبوَّة شديدة نظر «جارديني» لـ«ماركو» وهو يقول:

- الآن يحق لك أن تسأل ما شئتَ كي نُغلق هذا الملف. لقد أخبرتني أن لديك ثلاثة أسئلة، ما هو السؤال الأول؟

- نبدأ من حيث انتهينا، لماذا تركتنا بقبضة الشرطة المصرية وسافرت ببساطة، حتى أنني لا أستطيع نسيان وجهك وأنت تكاد تموت من الضحك عندما عُدتَ للبندقية. كيف تركتني ببساطة واعتبرتَ أن الموضوع بسيط؟!

- لأنه بسيط بالفعل. «داريا» لا تعلم أيَّ شيء، أنت تلميذي وأنا أثق أنك لن تتكلم بحرف، الخطة كانت دقيقة. أنا فقط لم يخطر على بالي قط أن سلطات المطار ستخلط بين لوحة آدم التي رسمها وبين رائعة «فان جوخ»، والتي من المُفترض أن تكون صُورتها قد وُزِّعت على المطارات. باختصار لقد كانت مصادفة عجيبة لكني كنت واثقًا أنه سيتم إخلاء سبيلكم بمجرد فحص الخبراء للوحة. لم يكن هناك أيُّ داعٍ للقلق.

سكت «ماركو» وقد ارتسمت على وجهه علامات الاقتناع، ثم ابتسم وهو يضيف:

- أما الموضوع الثاني الذي لم تُكلمني فيه أبدًا فهو، في ذلك اليوم العجيب، وبعد انتهاء العملية وحصولي على اللوحة، قابلتُ ذلك الشخص الذي أرسلتَه أنتَ لي. مَن هو ذلك الغريب الذي أخذ مني اللوحة وسافر بها؟

- هذا الموضوع أهم قليلًا، منذ بدأت التخطيط للعملية وضعت نصب عيناي الاستعداد بكل دقة لمواجهة أصعب الظروف. السؤال كان، ماذا لو تم اكتشاف السرقة بعد نصف ساعة من

السـرقة؟ سـيكون خروج اللوحة من مصر صعبًـا جدًّا ولفترة طويلة. وكان الحل في صديق قديم أعرفه. هذا الصديق يعمل مستشـارًا بـوزارة الخارجية بإحدى الـدول الأوربية، وهو من جامعـي اللوحات، ولي تعامـلات قديمة معـه. طلبت منه أن يرشح دبلوماسـيًّا من بلده في سفارتهم بمصر من أجل عملية بسيطة لقاء مبلغ مالي كبير.

- ولكنها مخاطرة، أنتَ لا تعرفه.

- تستطيع أن تقول إن صديقي المستشار جامع اللوحات هو أحد أهـم عُملائي. عنده لوحات لا أحد يعلـم مكانها إلا أنا. وهو لـن يُضحي بتاريخه وعمله وسُـمعته، وقبـل كل ذلك لوحاته التي يعشقها من أجل أي شيء. لقد عرَّفني بالرجل المناسب. هـذا الرجـل أخذ منكَ اللوحـة، وخرج من صالـة كبار الزوار دون تفتيش. ولحُسـن حظنا أن المصريين لم يكتشفوا السرقة برمتها إلا في الأسبوع التالي.

- رائـع، يومًـا ما سـتكون عنـدي شـبكة علاقات مثلك سـنيور «جارديني»، وسأُخطط وأُنفذ عمليات كبيرة كهذه.

- «ماركو».. «ماركو».. «ماركو».. ذَكِّرني منذ متى تعمل معي؟

- سـنيور «جارديني».. أكثر من تسـع سـنوات ونصف.. سوف نحتفل قريبًا بالذكرى العاشرة!

- بعد هذه السنوات، لو فرضنا أن هناك شيئًا واحدًا فقط أُريدك أن تتعلمه جيدًا مني، أتعلم ما هو هذا الشيء؟

- لقد تعلمتُ الكثير.

- «ماركو»!

- نعم سنيور «جارديني».. ما هو هذا الشيء «الواحد» الذي يجب أن أتعَلَّمه منك؟

- لا تتعجل الأشياء.. أنت رائع وسيأتي الوقت الذي ستُنفذ وحدك عمليات كثيرة.. ولكن ليس بعد.

سكت «ماركو» تمامًا.. يكاد يُكمل عامَه العاشر مع «جارديني» والرجل لا يثقُ في قدراته على التخطيط والتنفيذ. ألم يكن معه منذ أيام في القاهرة ورآه ينفذ العملية بدقة وفي دقائق قليلة؟! مَن في العالم يقدر على تنفيذ عملية كهذه بهذه الدقة والسرعة دون أن يترك بصمةً أو خيطًا وراءه؟ لماذا لا يثق فيه «جارديني»؟ ظهر الضيق على وجه «ماركو». أحسَّ «جارديني» بما يَجِيشُ في صدر «ماركو» فأراد تغيير الموضوع.

- والثالث يا «ماركو»؟

- الثالث؟

- أقصد سؤالكَ الثالث. لقد سألتني عما حدث بالمطار، وعن كيفية خروج اللوحة. ما هو سؤالك الثالث؟

- نعـم، تذكـرتُ الآن، وهـو السـؤال الأهـم.. مَن هو الشـخص الذي سـاعدني في المتحـف. ذلك الشـخص الغامض الذي خرج من المتحف ليُشير ببداية العملية وفتـحَ لي بابَ القاعة قبل خروجي.

- ذلك الشخص هو أحد العاملين بأمن المتحف. أمن المتحف يعمل أكثر من عشـر سـاعات في اليـوم. المُقابل المادي يكاد يكـون مائـة دولار في الشـهر. تخيل؟ مثل ذلك الشـخص لو أعطيته عشرة آلاف دولار فقد اشتريتَه بالكامل. ذلك الشخص يعـرف جيدًا جدًّا أي الكاميـرات تعمل وأيها لا يعمل. كما أن وجوده في المتحف طبيعي نظرًا لطبيعة عمله.

- ولكن ذلك الشخص قد يفقد عمله أو حتى يُسْجَن.

- نعـم، دعنا نتفق على شـيء. ذلك الشـخص ليـس عنده أدنى مشـكلة أن يقضي سنة أو اثنتين بالسجن بتهمة الإهمال مقابل الدولارات. أما بالنسـبة للعمل فقـد تَعاقَب على هذه الوظيفة البسـيطة العشـراتُ وكلهم تركوها لضعف المقابـل المادي. باختصار فهو لا يُبالي أبدًا بترك العمل.

أطرق «ماركو» رأسَه وفكَّر قليلًا.. لا تزال هناك حلقة مفقودة!

- وكيف وصلتَ أنتَ لمثل هذه المعلومات؟

- بالطبع هناك شريك أساسي لي في العملية كلها في مصر.

- نعم، هذا أيضًا ما اعتقدتُه. وكيف توصلتَ إليه؟

- دعني أخبرك بقصة قصيرة.. منذ شهرين كنتُ في معرض فني كبير في روما. قابلتُ ذلك المصري وتعرفنا وتقاربنا بسرعة. رأيت فيه فنانًا يملك حسًّا فنيًّا كبيرًا وعرض عليَّ أن نعمل معًا. أخبرته أنني سأطلب منه ذلك حين تحينُ الفرصة. وأثناء وَضْع الخطة تذكَّرته وتحدَّثت معه باختصار عن الموضوع. أمهلته يومًا واحدًا للتفكير. هاتفني في اليوم التالي. المهم أنه قَبل أن يساعدنا. لم أكن أستطيع أن أتكلم معه في التفاصيل عبر الهاتف أو الإنترنت. لذا فقد استخدمتك أنت و«داريا» دون أن تشعرا لزرع صديقي المصري في العملية.

ظهرت على «ماركو» علامات الاهتمام والتركيز الشديد.

- كيف؟!

- أتذكر يوم كنا في القاهرة وتناولنا الإفطار معًا على الباخرة النيلية؟ يومها خرجت على ظهر الباخرة وتناقشت معه وعرفت منه كل التفاصيل. يومها اكتملَتْ خطوطُ العملية. يومها حددتُ اليومَ والساعة. يومها عرفتُ موعدَ صلاة المصريين في رمضان، واتفقنا على التواصل مع عامل الأمن.

- لا يُمكن.. آدم؟! هل آدم شريكنا في العملية؟!

- نعم يا «ماركو». أنا مَن جعلك تأتي بـ«داريا» من أجل تغطية وجود آدم معي. آدم هو العقل المُدبر وراءَ سرقة اللوحة، ولولاه ما استطعنا أن نفعل أيَّ شيء!

26

غادر آدم مبنى الكلية مشيًا على الأقدام كعادته. ظل ذهنه مشغولًا طوال الطريق، حتى أنه كاد يتعرض للدهس مرتين في الطريق. وصل لبيته وقفز السلالم في سرعة ورشاقة حتى وصل لعتبة بابه. أدار المفتاح وقبل أن يفتح الباب أحسَّ بمَن يدفعه نحو الباب بعُنف فجأة. قبل أن يلتفت سمع صوت «شريف المنشاوي» وكيل النائب العام:

- أهلًا يا د. آدم، نحن في انتظارك منذ ساعتين.. يبدو أننا يجب أن نُعيد استجوابك مرة أخرى في ضوء آخر المُستجدات في القضية.

فجأة أحاط به رجال الداخلية وقيدوا حركته ودفعوه دفعًا نحو السلالم مرة أخرى، بينما وقف شكري مُتشفِّيًا بنظرات مُوجَّهة لآدم وكأنه يقول له: كنتُ أعلم أنك لصٌّ مُحتال. دفعه الجنود نحو سيارة ترحيلات تأخذه نحو المجهول!

- د. آدم.. آدم.. سأراسلها حالًا.. هل ما زلتَ تَسمعني؟ هل أنت بخير؟

التفت آدم فوجد نفسه ما زال واقفًا أمام د. سلوى في كامل حريته.. يبدو أنه بدأ يرى كوابيسَ اليقظة. للمرة الثانية استجمع شَتَات عقله

وحاول أن يبدو هادئًا.

- أنا شاكر جدًّا لكِ يا دكتورة.. أراكَ غدًا إن شاء الله.

لـم تكن المـرة الأولى التي يـرى فيها آدم هواجـسَ كتلك. حدث نفـس الأمـر حين تُوفيـت والدته. ظـل وقتها يراها معـه تُحدثه في كل أركان البيت. حدث هذا حين تركته حبيبتُه. وقتها قضى ساعات طوالًا يتحدث مع نفسه وهو يراها. وها هو الآن تُعاوده أحلامُ اليقظة، بل هي كوابيس اليقظة هذه المرة!

بسـرعة خرج آدم مـن المكتب وعَبَر الطُّرقات نحـوَ بيته. لم يصعد السلَّم، بل ظل يتجول حول المنزل باحثًا عن أي سيارة للترحيلات أو للشـرطة فلم يجد. همَّ بإجراء مُكالمة هاتفيـة ولكنه تذكَّر أن هاتفه قد يكون مُراقبًا لأي سـبب. اكتفى فقط بإرسـال رسـالة نصية قصيرة جدًّا لـ«داريا» كتب فيها بالإنجليزية: «أرجو الإسـراع بإرسال طلب العمل وشكرًا».

عـاد لبيتـه وأدارَ المِفتاح في الباب فسـمع صوتًا مـن ورائه. التفت فجأة فوجد صبيًّا من الجيران ينزل على السـلالم ركضًا. كاد قلب آدم أن يركُض خلف الصبي من شـدة اضطرابه فـي تلك اللحظة. لم يفكر حتـى في مداعبـة قططه كما اعتـاد أن يفعل معهم كل مـرة. فقط دخل بيته وأغلق الباب سـريعًا. آدم عـاش أغلب حياته بالقاهرة. في يوم من الأيـام كان بينـه وبيـن القاهرة ألـفُ خيط: أُسـرته، تعليمه، أبـوه، أُمه، أصدقاؤه، معارضه الفنية، عمله بالكلية، بيته. مع مرور السنوات ظلت

تلـك الخيوط تنقطع خيطًا خيطًا. فقد أباه ثم أمه. فقد معظم أصدقائه. فقـد المجتمع احترامه وفهمه للفن. فقد مسـتقبله الوظيفي لاعتبارات ليس من بينها الكفاءة. أحس آدم في تلك اللحظة أن الخيط الأخير قد انقطع. بل إن هناك خيوطًا جديدة تكوَّنت وباتت تجذبه نحو عالم آخر جديد. عالم يتطلع أن يكون جزءًا منه، وبأسرع وقت.

حسَـمَ آدم أمره وأخرج حقيبة ملابسـه ، بدأ بإعدادها. جمع كلَّ ما اسـتطاع من ذكريـات. لم يهتم كثيرًا بالملابـس. جمع صورَ ولوحات أمه. جمع ذكرياته وعمره في حقيبة كبيرة وبات ليلته وقد قرَّر أن تكون الأخيرة بالقاهرة. لم يستطع أن ينام. ظل يتصور أن هناك مَن قد يقتحم عليه بيته ليلًا. قضى ليلته في مكانه المفضل: يستمع لأم كلثوم وفيروز في شُرفة منزله مُتأمِّلًا شارعه الخالي ليلًا.

ما إن أشـرقت الشـمس حتى غادر آدم البيت متجهًا لأحد المقاهي القريبة من بيته. احتسى القهوة وطالع بعضَ الصحف اليومية بحثًا عن أي أخبـار خاصة باللوحة المسـروقة. في تمام التاسـعة غـادر المقهى نحـو إحدى شـركات السـياحة المنتشـرة بالزمالك، حيـث بحث عن أي مقعد شـاغر على أي طائرة مُتجهة لإيطاليـا في نفس اليوم. ووجد ضالته في طائرة مصر للطيران المُتجهة إلى روما عصرًا. لم يفكر كثيرًا فاشـترى التذكرة وأخفاها في ملابسه ثم مشـى كعادته للكلية. كان قد اتخذ قراره بالسـفر في جميع الأحوال. وصول الطلب والموافقة على إجازته كان السيناريو الأقرب لعقله، حيث ستُمَثِّل تلك الأوراقُ مُبرِّرًا

جيدًا لمغادرة البلاد. أما عدم وصول الطلب فسوف يَضعه في مُربَّع الاتهام كونه هربَ فجأة.

وبالفعل ما إن رأى د. سلوى حتى أخبرته بوصول الطلب من «داريا». استبشر آدم وطلب منها طباعة البريد الإلكتروني الذي حمل الطلب حتى يقدمه للدكتور عماد. طار بالأوراق لمكتب د. عماد وانتظره ساعة كاملة حتى عاد من إحدى المحاضرات. قدَّم له طلب الإجازة ومعها أوراق عمله بـ«بينالي» البندقية.

- بالطبع هذه فرصة عظيمة لفنان مصري. وها هي موافقتي وتوقيعي على الإجازة. بالتوفيق يا آدم. إن شاء الله نُقيم لك حفلًا صغيرًا للوداع في الأسبوع القادم.

- لا داعي، أعتقد أنني سأسافر غدًا على الأكثر.

اعتدل د. عماد وظهرت عليه بوادر الريبة، في الوقت الذي تذكَّر فيه آدم جيدًا علاقة عماد بالأمن.

- ولِمَ العَجَلة؟

- أريد أن أقضي أسبوعًا أو اثنين إجازة في إيطاليا قبل أن أُباشر العمل.. أحتاج بشدة لهذه الإجازة.

- عمومًا بالتوفيق يا آدم. الكلية ستفتقدك بشدة حتى انتهاء الإجازة. آه.. ولا تنسنا في إيطاليا.. أرسل لنا دعوات «للبينالي»، كم سيكون رائعًا أن ألقاكَ هناك وأرى عملكَ

وتمثيلكَ المُشرِّف للكلية ولمصر.

- إن شاء الله.

قالهـا آدم عازمًـا كل العزم من أعماق قلبه أن ينسـى د. عماد تمامًا بعد خروجه من مكتبه. لم يكن يريد أن يُقابله بعد الآن ولو صدفة. مدَّ يده ليصافـح عماد إلا أن الأخيـر هبَّ من مقعده الوثيـر واحتضن آدم كصديـق يُودع صديق عمره. تعجب آدم من مُبالغة د. عماد في وداعه، أيـن كانت تلك المشـاعر عندمـا كان يعترض على كل آرائـه وأفكاره ويرسم الخطط في الظلام ليفوز بكرسي لا يَحقُّ له.

غادر آدم الكلية مَشيًا للمرة الأخيرة. ظل يُودع طريقه اليومي بعينيه اللتين احمرتا من دمعتَيْن كبيرتَيْن أبتا أن تنزلا بسـهولة. ودَّع الشوارع، المقاهـي، وباعـةَ الصحـف والمحـلات. حتـى الصخـب والضجيج الـذي لم يكـن يتحملـه من قبل أحـسَّ بأنه سـوف يفتقـده. لأول مرة أزال السـماعات مـن أذنيـه وأوقـف «بيتهوفـن» وسـمع مهرجانـات الأغانـي الشـعبية المنبعثة من أحد المقاهي. سـمعها سـماع المُودِّع. وللمرة الأولى أحس بأنه سـيفتقد كل هـذا الضجيج وهذه النوعية من الأغنيات. لم يكن يعلم متى سيعود أو حتى إن كان سيعود يومًا أم لا.

في البيت ودَّع أركان بيته خاصةً مَرْسَـمه. ودَّع ما ترك من لوحات. ودَّع ذكرياتـه مع أمه وهي ترسـمه طفلًا. أغلق بـاب البيت وأغلق معه صندوقًـا كبيـرًا للذكريـات. حتـى القطط الصغيـرة، وضع لهـا ما بقي

عنده من طعامها وداعبها بعينٍ دامعة. لا شـك لديه أن شـكري سيقتل تلـك القطط الضعيفة ويسـتولي علي الشـقة. غالبًا ما سـيحرق ما فيها مـن لوحات وأثاث. داعب آدم القطط مودعًا إياها مهرولاً نحو رحلته الطويلة. أوقف أول سيارة أجرة قاصدًا ميناء القاهرة الجوي.

في المطار جهَّز أوراق سـفره كلها وأضاف لها أوراقَ طلبه للعمل فـي «بينالـي» البندقية. انتظـر في الطابـور الخاص بطائرتـه حتى حان دوره. نـاول الموظفـة تذكرتـه وجواز السـفر الخاص بـه. تطلَّعَت في الأوراق لبعض الوقت ثم باغتته:

أنا آسفة لن تستطيع السفر.. أنتَ لا تملكُ تأشيرةَ دخولٍ للأراضي الأوروبية!

***

صباح اليوم التالي

الجمعة 17 سبتمبر 2010

تقلب «جارديني» في فراشـه الوثير. كانت عقاربُ السـاعة تتجاوز العاشـرة صباحًا. كلما همَّ «جارديني» بالقيام غلَبته نوبة نُعاس جديدة. يبدو أنه أفرط في الشراب مرة أخرى في الليلة السابقة. عمومًا هو يَعي جيدًا عدم وجود أي ارتباطات أو مواعيد عمل يومها. ظل بين نُعاسـه وخُموله حتى كاد قلبه أن ينخلع عندما سمع صوت باب حجرته ينفتح في عنف ثم صوت «ماركو» يُغني بصوت عالٍ أغنية عيد الميلاد:

- عيـد ميلاد سـعيد.. عيـد ميلاد سـعيد.. عيد ميلاد سـعيييييد سنيور «جارديني».. عيد ميلاد سعيد.

- كفى.. أهكذا تُوقِظ شخصًا يوم عيد ميلاده؟ لهذا السبب أنت وحيدٌ بلا زوجة أو صديقة!

- كل عام وأنت بخير سنيور «جارديني».

بصعوبـة شـديدة اعتـدل «جارديني» وقـاوم رغبته فـي المزيد من النـوم، فوجـد «ماركـو» ومعه هديـة كبيرة. علبـة كبيـرة ملفوفة بنفس الألوان مثل هدية العام السابق.

- اليوم هو عيد ميلادك السـادس والسـتون سـنيور «جارديني»، وقد أحضرت لك هدية عظيمة.

- «ماركـو».. «ماركـو».. أنت تقول نفـس الـكلام، وغالبًا هذه ماكينة قهوة كالتي أتيتَ لي بها في العام الماضي.

- لا سـنيور «جاردينـي»، هديتي لك هذا العام جديدة لم يسـبق لي أبدًا أن أهديتها لأحد، ولكنكَ أبي الروحي.

- «ماركو».. «ماركو».. دَعْكَ من هذه المقدمات السخيفة وخُذ هديتـك للمطبخ مثـل كل عام.. واصنع لـي فنجانًا من القهوة فأنا أحتاجه بشدة.

- اتفقنا.. سأذهب لأصنع القهوة وأنت استمتع بحمّامكَ ثم افتح الهدية وقل لي رأيك بصراحة.

- لا داعي للخطط والفلسفة.. سأغتسل وأرجوك أريد قهوتي الساخنة فورًا.

- فقط عِدني إن لم تُعجبك الهدية أن تتمالك أعصابك وتُخبرني برأيكَ بمنتهى الصراحة.

- أتمالك أعصابي؟ لن أتمالك أعصابي لو أحضرتَ لي قهوة سيئة!

قام «جارديني» مُتثاقلاً للاغتسال. استمتع بحمّام دافئ كان يحتاجه بالفعل. ارتدى «روب» الحمّام وخرج يحلم بالقهوة الساخنة فلم يجد «ماركو». نادى بأعلى صوته:

- «ماركو».. القهوة.. أين أنتَ أيها الأبْلَه؟!

لم يسمع أية إجابة. سمع فقط صمتًا ثقيلًا. مشى مُتثاقلًا نحو المطبخ فلم يجد أي أثر لـ«ماركو». يبدو أن أحدًا لم يستخدم ماكينة القهوة. تعجَّب «جارديني»، أين ذهب «ماركو»! تلفَّت حوله فلم يجد أي شيء غريب. فجأة تذكَّر أن أضواء المطبخ كانت مُضاءة. قبل أن يُطفئ أنوار المطبخ وجد ورقة فوق مفتاح الإضاءة. كانت بخط «ماركو» وفيها كلمة واحدة:

«الهدية»

تبًّا لهذه الهدية اللعينة. هكذا هتف «جارديني» لنفسه. لم يكن يُحب مثل هذه الألعاب. ظل يفكر.. لِمَ يلعب معه «ماركو» مثل هذه الألعاب الطفولية؟ عاد مُسرِعًا نحو الغرفة وهو يتذكر كلمات «ماركو». ألهذا طلب منه أن يتمالك أعصابه؟

في الغرفة اتجه «جارديني» فورًا لهاتفه المحمول وهاتف «ماركو» الذي كان هاتفه مغلقًا. بسرعة وعصبية اتجه نحو علبة الهدية الضخمة. تعجَّب أولًا كيف لشخص في مثل سِنه أن يفتح علبة كبيرة مثل هذه. عندما لمس العلبة الكبيرة تحركت بسرعة شديدة وكادت تسقط من فوق المنضدة. تعجَّب «جارديني». يبدو أن العلبة الكبيرة فارغة. بسرعة شديدة قطع الورق الملون الذي زيَّن الهدية وألقاه جانبًا وفتح العلبة الكبيرة فوجد فيها علبة صغيرة بحجم الكف.

بدأ «جارديني» يتوتر وهو يقطع الورق الملون من حول العلبة الصغيرة.

- «ماركو»... إن كنتَ تسمعني فتعالَ فورًا.. سأتمالك أعصابي.. لا أُحب مثل تلك الألعاب فأنا لستُ طفلًا في الكشافة.

وكالعادة، سمع صمتًا. فتح العلبة الصغيرة فوجد فيها ورقة مكتوبًا فيها:

«سـنيور (جارديني)، لقد وعدتنـي أن تتمالكَ أعصابك. هديتك عند (ماتا موا).

صعقـت الكلمـات «جارديني»! تسـاءل عمـا يقصـده «ماركو» أن الهديـة عنـد «ماتا مـوا». هل وضـع الهدية عنـد اللوحـة؟ كيف دخل «ماركـو» الجاليـري الخـاص بـ«جارديني». المعـرض الخاص مغلق بكلمة مرور سـرية يكتبها عند الباب ولا يعلمهـا أحد غيره. هنا انطلق «جارديني» بسـرعة شديدة نحو الجاليري الخاص به. عند الباب وجد البـاب مغلقًـا كأن شـيئًا لـم يكن. لم تكـن هناك أية علامـات لاقتحام المكان. جهاز الحاسـب الرقمي الذي يُؤَمِّن المعرض في مكانه تمامًا ويبدو كأن أحدًا لم يلمسه. تلفت حوله خشية أن يكون «ماركو» هنا أو هناك، ثم كتب كلمة السر وأدار مقبض الباب فانفتح ببساطة.

أضـاء أنوار متحفه الخاص. التكييف يعمل ودرجة الحرارة مثالية. كل شـيء يبدو طبيعيًا هنا. فكر للحظة، ماذا يقصد «ماركو» بأن هديته عنـد «ماتا موا»؟ لا يمكن لـ«ماركو» أن يكـون قد دخل هنا. هل قصَدَ مكانًا آخر؟ هل في الأمر لغزٌ ما؟

لـم ينتظـر كثيـرًا، تقدَّم فـورًا نحو القاعـة التي كانـت تحتوي على رائعة «جوجان». وما إن وصل هناك حتى شهق من المفاجأة. لقد عاد الإطار خاليًا تمامًا كما كان قبل أيام، ولـم يكن هناك أي أثر لـ«ماتا موا» على الإطلاق!

27

فـي تلك الأثناء وقبل دقائق من الحادية عشـرة مـن صباح الجمعة كان آدم جالسًـا فـي أحد مقاعد الدرجـة الثانية في القطـار المُتجه من محطـة روما الرئيسـية «تيرميني» إلى محطة «سـان لوتشـيا» الرئيسـية بالبندقيـة. دقائـق قليلـة بعدها يصل القطـار للبندقية بعـد رحلة معاناة طويلة لآدم.

في اليوم السابق كانت موظفة شركة «مصر للطيران» قد أوقفت آدم لعدم حصوله على تأشيرة «الشينجن» الخاصة بالدول الأوروبية. حاول آدم أن يُقنعها بأنه لا يحتاج للتأشـيرة لأنه يحمل جواز سـفر بريطاني؛ كون والدته إسكتلندية. وبالفعل كاد يُتمم إجراءات السفر ببساطة لولا وجود اختلاف بسـيط بين اسـمه الأخير في الجواز البريطاني واسـمه الأخيـر في التذكرة. طلبت منه العودة لمكتب الشـركة لتعديل الاسـم على التذكرة ليوافق الاسم في الجواز البريطاني. ذَهِلَ آدم من الروتين وحـاول بشـتى الطرق تفادي العـودة مرة أخرى ولكنه فشـل. عاد آدم لمكتب الشـركة فـي المطار فوجد طابورًا طويلًا مـن العُملاء. تَوَجب عليـه انتظار دوره. بـدأ القلق يسـاوره. موعد إقلاع الطائـرة هو الثالثة

عصـرًا وهو الآن في الثانية والربع ولا يزال في الانتظار. حاول تخطي بعض العملاء وشرح مشكلته لكن أحدًا لم يُعْطِه الفرصة.

عندما وصل للموظف المُختص وبعد أن شرح له بسرعة الموضوع، رد عليه الموظف بكل هدوء:

- الموضوع بسيط للغاية.. مُجرد إلغاء التذكرة وإصدار واحدة جديدة.. لا تقلق.

- لكن الوقت ضيق!

- سأحتاج عشر دقائق فقط.. لا تقلق.

- لكن الطائرة ستُقلع بعد ربع ساعة!

- ربع ساعة.. دعني أتأكد.. بالفعل لقد أُغلقت البوابات.. ستُسافر في الطائرة التالية.. لا تقلق.

- وما هو موعد الطائرة التالية؟

- دعني أتأكد.. في العاشرة وعشر دقائق.. لا تقلق أبدًا.

- إنها فترة طويلة.. سأحتاج للانتظار في المطار لثماني ساعات.. هل هناك طائرة قبلها؟

- عفوًا، أنا أقصد العاشرة من صباح الغد.. هذه هي آخر طائرة مُتجهة إلى روما اليوم!

- هل أستطيع أن أطير إلى البندقية أو ميلان؟
- لا توجـد طائرة للبندقية، وطائرة ميلان أيضًا غدًا.. سـافر غدًا ولا تقلق.
- أتعـرف؟ لقـد أقلقتنـي.. سأُسـافر اليـوم ولو علـى أي طيران آخر.. أرجوك الغِ لي التذكرة ولا تقلق.

وبالفعـل قـام آدم بإلغاء الحجز والتوجُّه فورًا من صالة السـفر رقم «3» بمينـاء القاهـرة الجـوي إلـى صالـة السـفر رقم «1». هنـاك ذهب لإحدى شـركات السياحة وأخبرها أنه فنان وعليه حضور معرض فني هام في صباح اليوم التالي بالبندقية. وبعد عملية بحث واسعة تم العثور على مقعد واحد شاغر بإحدى طائرات الخطوط الألمانية «لوفتهانزا» المتجهـة لفرانكفـورت. ومنهـا يطير ليـلًا لروما ليصل فـي فجر اليوم التالي. لم يجد آدم مفرًّا من قبول الحجز. بعد سـاعتين، وفي الخامسة مسـاءً أقلعت به الطائرة من مصر متجهةً إلى فرانكفورت. بعد أن تأكَّد آدم مـن إقلاع الطائرة أغلق عينيه ونام. نـام نومًا طويلًا وعميقًا كما لم يفعل منذ زمن. حاول أن ينسى كلَّ ما حدث ويُفكر فقط فيما هو آتٍ!

لـم يسـتيقظ آدم إلا عندمـا أيقظتـه المُضيفـة الألمانية بعـد هبوط الطائـرة. لقد اسـتغرقَت الرحلة المباشـرة أربع سـاعات ونصفًا، نامها آدم كلهـا تقريبًـا. عندما اسـتيقظ كانت السـاعة في فرانكفورت تُشـير إلـى الثامنـة والنصـف من ليـل الخميس. كانـت أمامه سـاعة ونصف فقـط للانتقال للطائرة المتجهة ليلًا لروما. لـم يفتح آدم هاتفه أبدًا. لم

يكـن أحد يعلم أين هـو الآن. حتى «داريا» لم يخبرها. أراد أن يفاجئها بسرعة وصوله بعد إرسالها الأوراق اللازمة سريعًا.

استقلَّ آدم طائـرة روما في العاشـرة مسـاءً والتي أقلَّتـه للأراضي الإيطاليـة فـي سـاعتين إلا الربـع تمامًـا. كانت السـاعة قـد تجاوزت منتصـفَ الليـل عند خروج آدم من مطـار «ليوناردو دافنشـي» الدولي بروما، والمعـروف أيضـا باسـم «فيوميتشـينو». أوقـف آدم إحـدى سـيارات الأجرة وطلب من السائق التوجُّه لمحطة «تيرميني» الرئيسية للقطارات بروما. توجَّه السـائق دون أي تعليق. طوال الطريق ظل آدم يتأمـل الشـوارع المبتلة بفعل المطر مسـتمتعًا فـي ذات الوقت ببعض مقطوعات الموسـيقى الكلاسـيكية الهادئة التي انطلقـت من المذياع بصـوت منخفض. قفزت صورة سـائق الأجرة المصـري في وجه آدم وهو يتراقص على موسيقى الأغنيات الشعبية. المقارنة لم تكن بالطبع في صالح السـائق المصري؛ مما أعطى آدم شـعورًا عامًّا بالاسـترخاء والهدوء. لعله في هذه البلاد يجد ما فقده في وطنه!

مع وصـول آدم للمحطة وجدهـا مُغلقة تمامًا ووجد نفسـه وحيدًا واشـتد المطـر. أقلع القطـار الأخيـر قبل وصولـه بفترة طويلـة. عليه الانتظـار لأول قطار في الصباح. سـأل عن أي فنـدق قريب. دلَّه صبيٌّ هنـاك على شـارع قريـب ملـيء بالفنـادق الصغيـرة الرخيصـة. تذكَّر بنسيونات وسط البلد القريبة من محطة رمسيس. جرى آدم مع الصبي فـي الطرقات المُمطـرة وآدم يَجُر حقائبه خلفه. بسـرعة شـديدة وجد

حجرة في فندق صغير هناك. دفع ثمن قضاء الليلة واستطاع أيضًا بمساعدة موظف الاستقبال بالفندق أن يحجز تذكرة في أول قطار في الصباح يُغادر روما في السابعة صباحًا إلى البندقية.

كانت حجرة الفندق صغيرة ونظيفة، غير أنها كانت غير مُكيفة. فتح آدم الشباك ففوجئ بالضوضاء مع أصوات المطر الشديد. كما أن الماء بدأ يتسلل للحجرة. أغلق الشباك مرة أخرى. اغتسل آدم ثم نام.

في الصباح أيقظه موظف الفندق في السادسة حسب الاتفاق حيث جمع حقائبه واتجه للمحطة. كانت الحركة كثيرة في المحطة وحولها. آلاف المواطنين والسائحين والمُسافرين تجمَّعوا معًا في نقطة واحدة على الخريطة لينتشروا بعدها بعدة ساعات في عشرات المدن، بل والدول أيضًا. كانت رائحة القهوة الإيطالية تفوح في أرجاء المحطة بالكامل. تناول آدم قدحًا من القهوة واتجه يبحث عن الرصيف الذي سيستقلُّ منه قِطاره.

وها هو القطار قد شق طريقه عبر الأراضي الخضراء من روما إلى البندقية بعد رحلة صعبة لآدم. كانت مشاعره متضاربة جدًّا. كلما تذكَّر القاهرة والكلية والمتحف والتحقيقات واحتجازه بقسم الشرطة، أغمض عينيه وحاول طيَّ الصفحة بالكامل والاستبشار بما هو آتٍ.

قطع القطار الطريق في ثلاث ساعات وخمس وأربعين دقيقة بالتمام والكمال. قضى آدم معظمها في تأمُّل الأراضي الخضراء والاستماع لـ«باخ» و«موزارت» و«شوبان» و«بيتهوفن». عندما توقف

القطار في محطة «سان لوتشيا» بدأ قلب آدم يخفق بشدة. خرج بسرعة من المحطة واتجه لشباك تذاكر الأتوبيس المائي واشترى تذكرة صالحة لمدة أسبوع. سأل الموظف عن العنوان. المقر الرئيسي لـ«بينالي» البندقية بقصر «جوستنيان» بمنطقة «سان ماركو» بالبندقية.

استغرقت رحلة الأتوبيس المائي ما يزيد على الساعة. وصل للقصر في منتصف النهار تقريبًا. كانت هناك محطة للأتوبيس المائي أمام مقر الـ«بينالي» مباشرةً. كان الجو مُشمِسًا جميلًا والطبيعة المائية للبندقية كانت ساحرة كعادتها. ارتفعت أصوات دقات قلب آدم كالطبول وهو يتقدم ناحية المبنى الأثري العتيق. سأل في الاستقبال عن «داريا لوتشي» وترك جوازَ سفره مع الأمن.

اصطحبته موظفة الاستقبال الحسناء نحو مصعد القصر. القصر يتكون من ثلاثة أدوار فوق الدور الأرضي. مكتب «داريا» كان في الدور الثاني. المصعد قديم ويشبه إلى حد كبير المصاعد القديمة في القاهرة خاصة في منطقة وسط البلد. بل إن ذلك المصعد تحديدًا ذكّره بمصعد بيته بالزمالك مع أن الأخير كان نادرًا ما يعمل أصلاً. ارتفعت دقات قلب آدم لمستوى قياسي. صار كبطل أوليمبي في سباق المائة متر عَدْوًا. كلما سار نحو حجرة «داريا» زاد اضطرابه. وصل للحجرة. أدخلته الموظفة. لم تكن «داريا» بالداخل. اعتذرت له الموظفة لتعود.

- سنيور آدم.. أرجوك أن تستريح قليلًا، وأنا سأبحث عن «داريا» فورًا.. دقائق وتكون معك.

أغلقت المُوظفة بابَ الحجرة وتركت آدم وحيدًا مع دقات قلبه المتسارعة. وضع حقائبه جانبًا ثم استلقى فوق أقرب مقعد. كانت الرحلة طويلة. لم يتوقف قلبه بل ازداد الدم تدفقًا في عروقه. وقف مرة أخرى وراح يتأمل المكتب الواسع الجميل. فجأة وقعت عيناه على لوحة مُعلقة على الجدار خلف مكتب «داريا». تقدَّم آدم نحو اللوحة وهو يُحَدق بها.

كانت لوحةً يعرفها جيدًا.

تلك اللوحة لذلك الميدان الواسع الذي يتوسطه بُرج قديم كتلك الأبراج التي كانت تحمل أجراسَ الكنائس. البرج يشق السماء الممتلئة بسحب وغيوم أضافت رهبة كبيرة للمشهد. بينما امتلأ الميدان الواسع بالبشر.

لوحة يعرفها آدم جيدًا ولن ينساها أبدًا!

بينما هو ينظر للوحة لم يشعر بباب الحُجرة يُفْتَح بسرعة. أفاق من ذهوله وأفكاره على صوت يعرفه جيدًا يأتيه من خلفه تمامًا بالإنجليزية وبنفس اللُكنة الإيطالية المميزة:

- أعتقد أنكَ تبحث عني!

28

وقف «جارديني» مذهولًا أمام الإطار الخالي لا يُصدق ما يراه.

هل سرقه «ماركو»؟!

كيف؟!

ولماذا؟!

خليـط عجيب من الصدمة وعدم الفهم، مع عدم التصديق والإنكار. عـاد وتذكَّر «ماركـو» منذ دقائق وهو يطلب منـه أن يتمالك أعصابه. هل هذه دُعابة؟ نظر حوله جيدًا حتى وقع نظره على ورقة مُثبَّتة على الحائط تحت الإطار الفارغ. انحنى ليلتقط الورقة وكان فيها رسالة قصيرة:

«هـذه هي الورقـة الأخيرة. أنا مُتأكد أنكَ عنـد وعدكَ لي، مُتمالك لأعصابـك. وأنـك تتسـاءل فقط أين «ماتـا موا». كل عـام وأنت بخير سـنيور «جارديني». سـأكون في انتظارك قبل عشـر دقائق من الواحدة عصرًا في المكان المُحبب لقلبك:

في مقهى فلوريان»!

***

- أعتقد أنكَ تبحث عني!

- لا، ليس بعد الآن، لقد وجدتُ ما أبحث عنه، ولن أتركه أبدًا.

التفت آدم لـ«داريا»، نظر لها بحُب شديد حتى عاد البريقُ لعينَيْه من جديد. أخذ ينظر لها بشوق. لاحظ أن خاتمه الذهبي الأبيض ذا الحجر الكريم يُزين إصبعها. ابتسم ثم احتضنها بقوة. كانت تلك اللحظة التي طالما حلما بها معًا منذ أن رآها في دبي. لأول مرة في حياة آدم منذ رحيل والدته يشعر بعودة روحه إليه مرة أخرى. لقد انتظر تلك اللحظة لشهور طويلة.

- أخيرًا يا آدم.. لِمَ لم تخبرني أنكَ ستأتي بهذه السرعة؟ لَمْ تُخْفِ عني شيئًا من قبل!

- أردتُ أن أُفاجئكِ، أرجو أن تكون المفاجأة سارة.

- أحسن مُفاجأة في حياتي يا حبيبي.

احتضنها آدم مرة أخرى بحُب قبل أن تلفت نظرَه أنها في مكان عملها. سألته عن آخر أخبار اللوحة المفقودة.

- لا جديد، أُحيل مُعظم الموظفين للمُحاكمة بتهمة الإهمال، ولا يوجد أي دليل على السارق إطلاقًا.

- «جارديني» ثعلب عجوز، كنت أعلم منذ البداية أنه أفضل مَن

يقـوم بهذه المهمة؛ ولهذا فعندما فاجأتَنـي بفكرتكَ المجنونة لسـرقة اللوحـة لعـدم وجـود حراسـة كافيـة بالمتحـف، فقد أدركـتُ منذ اللحظة الأولـى أن «جارديني» يسـتطيع أن يُنجز المهمة في أسبوع.

- بل أنـتِ الثعلب الكبير يا حبيبتي، كيـف أقنعتِه دون أن يعرف أنكِ أنتِ وراء كل ذلك؟

- الموضـوع بسـيط يـا حبيبـي. «ماركـو» مسـاعد «جارديـني» هـو صديـق عزيـز وقديم لي. هـو الـذي أخبرني منـذ فترة أن «جارديـني» يريـد لوحة «ماتـا موا» فكانت هـي الطُّعْم. كانت مُهمتي أن أجد مَن يريد أن يشـتري «زهور الخشخاش» مقابل «ماتا موا» وعشرة ملايين دولار هي نصيبنا يا حبيبي.

- عشـرة ملايين دولار.. بصراحة أنـا لم أُفكر في المال مطلقًا.. فقـط كنت أريد أن أتركَ كل شـيء ورائـي وأكون معكِ أنتِ.. المهم.. وبعد أن وجدتِ المُشتري؟

- لقد عرفتُ مـن «ماركو» زيارة «جارديـني» لمعرض فني كبير برومـا منـذ شـهرين. كانـت فرصـة كبيرة لـكَ لتأتـي لإيطاليا ونتقابل من جديد بعد أن كنت مكتئبًا وحيدًا في أسوان. كانت أيضًا فرصة لتقابل أنتَ «جارديني» وحدكَ وتتعرف عليه ليبدو

الموضـوع وكأنه مُصادفـة بحتة. وبالطبع عندمـا قابلتَه أتقنتَ دوركَ وأخبرتَـه بحاجتـكَ للمـال واسـتعدادكَ للعمـل معـه. ابتلـع «جارديني» الطُّعم. عندما أخبرتَني يا حبيبي بأن رمضان هـو أنسـب شـهر لسـرقة اللوحـة، قابلـتُ «ماركـو» كصديق وأخبرتُه أنني سأسـافر قريبًا للقاهـرة في رحلة عمل. وقتها لم تكـن المعلومة تعني أي شـيء له. بعدها بأسـبوعين أرسـلتُ لـ«جاردينـي» مندوبًا يطلب منه القيـام بالعملية، وبالطبع فقد تذكـركَ «جارديني» بسـهولة وسـألكَ عـن المتحـف. وتذكَّر «ماركو» أنني سأسافر للقاهرة، وأنتَ تعرف الباقي.

- لا أُصدق أن فنانة رقيقة في مثل جمالكِ تكون بهذا الدهاء!

- كل امـرأة فـي العالـم تُصبح بهـذا الدهـاء وأكثر بكثيـر عندما تُحب يـا آدم.. أنا أيضًا فعلتُ ذلك من أجل المُغامرة ولنكونَ معًا، وليس من أجل المال، وإن كان المال مهمًّا أيضًا.

- ولِمَ أتيتِ للقاهرة معهما؟

- لأراك، أتذكـر حيـن كنت فـي الفندق و اتصلت بـك يا حبيبي لتأتي، فجئت سريعًا وسط دهشة د. سلوي التي ظنت أنك لن تأتي.

- كنـت أتلهف وقتها لرؤيتك بعدمـا التقينا عدة مرات بعد دبي،

ألم تشعُري بالخوف من فشل العملية؟

- حتى وإن حدث فلا يوجد أي دليل ضدي أو ضدك. أنا بالفعل جئت لمقابلة سلوى وتعيينك بـ«البينالي». وعندي عشرات الشهود. بل إن مدير البينالي نفسه كلفني بالمهمة. «جارديني» نفسه لا يعرف أنني علي أية علاقة بالموضوع برمته. هو ما زال يظن أنه استغلني لتغطية رحلته للقاهرة.

- ولن يعرف أبدًا. وماذا عن «ماتا موا»؟

- لقد تسلَّمها «جارديني».

- و«زهور الخشخاش»؟

- هل ستُصدقني؟

- بالطبع.

- أنا شخصيًا لا أعرف أين استقرَّت، لقد كنتُ أتعامل طوال الوقت مع وكيل فني لمجموعة من أشهر الجامعين في العالم. وهو رفض منذ البداية الإفصاح عن اسم مشتري اللوحة. قد يكون مَلِكًا أو وزيرًا أو أميرًا. من الأفضل ألا نعلم!

- هل سنعثر يومًا ما على كل تلك القِطَع المسروقة حول العالم؟

- هناك قوانين في بعض الدول تقضي بأنه مَن يُثبِت مِلكيته لإحدى القِطَع الفنية لمدة ثلاثين عامًا تُصبح مِلكه قانونًا، حتى ولو كانت مسروقة قبل ذلك التاريخ. أعتقد أنه بعد عشرات السنوات وبعد وفاة جيل كامل من جامعي القِطَع الأصلية ستظهر للعالم كنوز عظيمة كانت مخفية أو مسروقة.. ولكن ذلك سيكون بعد أن نموت. الآن لنبدأ حياتنا معًا. هناك الآلاف من القِطَع الجميلة التي سنراها أو سنصنعها معًا.

- أنا معكِ من الآن وحتى خروج آخر أنفاسي.

- قبل أن أصطحبكَ لأي فندق، لقد دعاني «ماركو» للاحتفال بعيد ميلاد العجوز «جارديني»، وستكون مُفاجأة جميلة أن تأتيَ معي.

- بأية صفة؟

ابتسمَت «داريا» وهي تخلعُ الخاتم من إصبعها. فتحت أحد أدراج مكتبها الفخم وأخرجت العلبة حيث أعادت الخاتم وهي ترد على آدم:

- أمام «جارديني» ستكون أنتَ زميلي الجديد في العمل الآن. سيتغير ذلك لاحقًا بالطبع، ولكن لفترة لا بد أن نبدو كزميلين فقط أمام «جارديني». وعمومًا.. هو لن يَفتح معكَ موضوع اللوحة مرة أخرى.

- وأين هو ذلك الاحتفال؟

- على بُعد ربع ساعة من هنا، في أشهر بقعة بالبندقية، في ميدان «سان ماركو»، في «مقهى فلوريان».

29

لم ينتظر «جارديني» حتى الواحدة. ارتدى ملابسه بسرعة شديدة وخرج قاصدًا مقهاه المفضل. لقد وعد «ماركو» بأن يتمالك أعصابه ولكنه لا يستطيع. في مثل سِنه فهو يحتاج لنصف ساعة في المتوسط ليصل للمقهى، ولكن مع شدة توتره وغضبه فقد وصل في ربع ساعة فقط. نظر حوله في الميدان الفسيح فلم يجد أثرًا لـ«ماركو». لو رآه في تلك اللحظة لفتك به فتكًا وأمام أعين المئات من مُرتادي الميدان والمقاهي المنتشرة فيه.

أقبَل مُدير المقهى مُرحِّبًا بـ«جارديني» الذي ظل واقفًا في توتر واضح:

- سنيور «جارديني»، صباح الخير. صباح الخير. سنيور «جارديني»! هل أُعِدُّ لك الإفطار المُعتاد؟

- لا.. أريد فقط قدحًا من الاسبرسو، كم الساعة الآن؟

- الثانية عشرة والنصف سنيور «جارديني».

جلس «جارديني» وقد ظهر على وجهه التوتر الواضح. ظل ينقل بصره حوله في كل اتجاه. حاول مرارًا أن يُهاتف «ماركو» عبر هاتفه المحمول، لكن هاتف الأخير ظل مُغلَقًا. عندما جاءه النادل بقدح الاسبرسو تجرَّعه كله في جرعة واحدة بمنتهى العصبية. راح ينظر للساعة الكبيرة في برج الجرس ثم ينظر لساعته. ظل على هذه الحالة حتى تحول عقرب الدقائق في ساعة الميدان ليشير إلى عشر دقائق قبل الواحدة. في نفس اللحظة وقبل أن ينظر «جارديني» في أي اتجاه فُوجِئ بمَن يربت على كتفه من خلفه. التفت بعصبية فوجد «ماركو». همَّ «جارديني» بِنَعْتِه بأفظع الشتائم والسِّبَاب إلا أن «ماركو» باغته قبل أن يفتح فمه:

- أبي «جارديني».. أرجوكَ لحظة واحدة، قبل أن تَسُبَّني اسمعني.

ظهرت علامات السخط والغضب الشديدَيْن على «جارديني» الذي أشاح بوجهه عن وجه «ماركو»، وقام واقفًا في عصبية:

- أولًا، ها هي «ماتا موا».

قالها وهو يناوله علبة أسطوانية كتلك التي تُستخدم في حفظ اللوحات. التقطها «جارديني» بعصبية شديدة و قبض عليها بيديه.

- ثانيًا، أنا لستُ بالغباء الذي تظن لأخونَ أبي وأسرقه. أنت

بالفعل أبي وأنا أُحبك ولا أستطيع أن أؤذيكَ ولا للحظة واحدة.

- فلِمَ فعلتَ ذلك إذًا؟ (وقد زال توتره قليلًا).
- أبي «جارديني».. منذ متى وأنا أعمل معك؟
- أرجوكَ أجبني لِمَ فعلتَ ذلك؟
- سأُجيبك عن كل شيء. «جارديني»، «جارديني».. ذكِّرني منذ متى أعمل معك؟
- «ماركو»...
- «جارديني»، أرجوك أجبني مرة واحدة فقط.
- منذ ما يقرب من عشرة أعوام «ماركو».
- لا، اليوم أكملتُ معكَ عشرة أعوام بالفعل، لو فرضنا أن هناك شيئًا واحدًا فقط تعلمته جيدًا منك في تلك الأعوام العشرة، أتعلمُ ما هو هذا الشيء؟

ظهر على وجه «جارديني» الملل والغضب ولم يُجب.. فأكمل «ماركو»:

- أن هذا الفرض خاطئ، لقد تعلمت منك الكثير يا أبي، أنا أَدِينُ لك بكل شيء. تعلمت منكَ أنه لا يوجد مكان في العالم غير

قابل للاختراق، كل مكان وله طريقة. تعلمتُ منكَ التفاصيل سنيور «جارديني».. التفاصيل. تعلمتُ منكَ أن أعتمد على عقلي أنا وليس على عقل أي شخص آخر. تعلمتُ منكَ أنه لا يوجد في عملنا مجال للعواطف ولكني استثنيتكَ أنت، فأنت أبي وأنا أحببتك. تعلمتُ ألا أتعجَّل الأشياء، ولذلك صبرتُ حتى حانت لي اللحظة المناسبة لأقول لكَ إنني جاهز. كنتُ أراكَ تَدْخُل معرضك عشرات المرات، راقبتكَ لثوانٍ قليلة كل مرة، بعد سنوات من السهل عليَّ أن أعرف كلماتك السرية وأسلوب تأمين المكان كله. لقد تعلمتُ من الأفضل.. تعلمتُ منك.

- سكت «جارديني» تمامًا وقد ظهرت عليه علامات التأثر فاحتضن «ماركو» بحنان الأب.

- هل تعلمُ ماذا تعلمتُ منكَ أيضًا؟

- ماذا؟

- تعلمتُ فن اختيار الهدية. ألم أقل لكَ إن هديتكَ مع «ماتا موا»؟ أنا هديتك. سأكون من الآن يدك اليُمنى واليُسرى سنيور «جارديني». سنظل نعمل معًا كفريق.. فقط أردتُ أن أقول لك إنه حان الوقت لتعتمد عليَّ وتثقَ فيَّ.

لم يُعلق «جارديني» الذي بدا مُتأثرًا بشدة من كلام «ماركو» الرقيق. لقـد أيقن لحظتها أن ابنـه قد كبر أخيرًا وعليه أن يثق بـه فعلًا. فجأة بدأ «جارديـنـي» يعـود للعالم حوله. لاحظ فجأة أن «مقهـى فلوريان» يكاد يخلو من مُرتادي المقهى وحتى من العاملين. الفرقة الموسيقية لم تكن تعمـل. و«ماركـو» كان يرتدي حلة أنيقة للغاية ولا تتناسـب مع الوقت ولا المـكان. قبـل أن يسـأل «جارديـنـي» «ماركـو» عن أي شـيء دقَّت أجـراس كاتدرائية «سـان ماركو» من أعلى برج السـاعة معلنةً الواحدة ظهرًا. صَمْـت كبير ورهبة ملأتا الميدان. أجـراس الكاتدرائية مُصمَّمة علـى هيئـة تمثالين مـن البرونز، أحدهما شـاب والآخر عجـوز ليرمزا للزمـن. كل سـاعة يَطـرُق أحدهما الجـرس الكبير بمِطرقـة ليُعلن عن مرور ساعة. يعود تاريخ ذلك البرج والتماثيل للقرن الخامس عشر.

بعـد لحظةِ السـكون التي اكتسـى بها الميدان. فجـأة وقفت الفرقة الموسيقية الأوركسترالية بكامل هيئتها وبدأت تعزف لحن عيد الميلاد لـ«جارديني» الذي فُوجئ. خرج كل العاملين بـ«مقهى فلوريان» وهم يُصفقـون لـ«جارديـنـي» ومعهـم كعكة كبيـرة من الشـوكولاتة الداكنة التي يعشـقها. فـي نفس اللحظة بـدأ توافد أصدقـاء «جارديني» الذين دعاهم «ماركو» لحفل عيد ميلاد «جارديني» السـادس والسـتين. ظل الجميـع يصفق بينمـا دمعت عينا «جارديـنـي» من التأثـر. كان يصافح

الجميع ويُقبِّلهم ويحتضنهم وهو قابض بيده على «ماتا موا». مال عليه «ماركو» وهمس في أذنه:

- «جارديني».. اترُكْ الأسطوانة التي في يدك وسلِّم على الناس ولا تخف. هل ستقضي الحفلة كلها وأنت ممسكٌ بها هكذا؟!

- وهل سأترك لوحة تساوي الملايين مثل هذه في الميدان ببساطة؟!

- أي لوحة؟ ما في يدكَ أسطوانة فارغة.. اللوحة أعدتها مكانها قبل أن آتي إليك!

- يا لكَ من وغد!

ابتسم «ماركو» وهو يُحيي الضيوف. وألقى «جارديني» الأسطوانة جانبًا.

في تلك اللحظات كان آدم و«داريا» يمشيان بين أزقة وحارات البندقية الجميلة عابرَيْن بعض كباري المُشاة حتى وصلا لميدان «سان ماركو» الواسع. وهنا رأى آدم البرج. نفس البرج الذي رآه في لوحة «داريا».

- هذا هو إذًا.. ها هو الميدان وها هو البرج .. لوحتك!

- بالطبع، هذا الميدان شهير للغاية، كيف لفنان مثلكَ ألا يأتي

إلى البندقية من قبل؟

- الآن فهمتُ لماذا جذبَتني لوحتكِ الكبيرة في المعرض بدبي. يا لَهُ من ميدان رائع.

- والآن هيا بنا إلى «مقهى فلوريان» في وسط الميدان.

قالتهـا ووضعت له ذراعهـا فتأبطها واقتربا من المقهى حيث وجدا في استقبالهما «جارديني» و«ماركو». احتضن آدم كليهما وسلَّم عليهما بحـرارة. أخبرتهما «داريا» أن آدم سـيبدأ العمل مـن اليوم في «بينالي» البندقيـة الدولي. هنَّأ «ماركو» و«جارديني» آدم وجلسـوا جميعًا حول مائـدة كبيـرة. دارت بينهم أحاديث كثيرة لم يكن من بينها أي شـيء له علاقة بلوحة القاهرة المسروقة. وكأن كلًّا منهم آثر أن يترك الأمر وراء ظهره كأنه لم يكن. كانت الفرقة الموسيقية تعزف المعزوفات المُفضلة لـ«جارديـني». ظل «جارديني» يضحك كالأطفـال كلما عزفت الفرقة إحـدى القِطَـع الموسـيقية المُفضلـة لديه. وظـل يختبـر أصدقاءه عن أسـماء القِطَـع وتاريخها ومؤلفيهـا. معظم المقطوعات كانت شـهيرة والجميع يعرفها. حتى عزفت الفرقة موسيقى عذبة شهيرة:

- أيكم يعرف هذه المقطوعة؟

أشار آدم بثقة وفخر:

- هذه مقطوعة «تانجو»، شهيرة جدًّا. رقص عليها «آل باتشينو» رقصته الشهيرة في الفيلم العظيم «رائحة امرأة»، والتي نال عن دوره فيه جائزة الأوسكار أفضل مُمثل.

- نعم، بالطبع، ولكن ما هي هذه المقطوعة؟ مَن وراءها؟ مَن ألَّفها؟

- هنا صمت الجميع وراح ينظر بعضهم لبعض فتشجع آدم وقال بثقة:

«بور أونا كابيزا»، بالإسبانية تعني «بفارق رأس». وهي أغنية تانجو إسبانية لحَّنها وغنَّاها «كارلوس جارديل» عام 1935، وهي من أشهر أعماله. من سُخرية القَدَر أن «جارديل» تُوفي في حادث طائرة في العام نفسه. ورغم روعة الكلمات إلا أن هذه الموسيقى عاشت لعقود طويلة بعد وفاة «جارديل». هذه الأغنية تُمثل الكثير بالنسبة لي.

نظر الجميعُ لآدم بانبهار شديد. سأله «جارديني»:

- كيف عرفتَ كلَّ هذا؟ هل أنتَ رسَّام أم موسيقار؟

- أنا فنان.. هي كلها قصة واحدة.. دائرة واحدة: أستمع لموسيقى رائعة عَذْبَة تُعبر عما أشعر به، أحمل فُرشاتي وأغمسها في الألوان وأرسم هذه الموسيقى.. ثم يأتي كاتب

ينقل مشاعره عندما يرى اللوحة في كلمات جميلة مؤثرة.. توحي هذه الكلمات لفنان آخر بقصة أو فيلم أو قصيدة أو قطعة موسيقية أخرى. وهكذا ندور كلنا في نفس الدائرة، تلك الدائرة التي إن فقدناها ماتت مشاعرنا ببطء وتحولنا لحيوانات تأكل وتشرب وتتزاوج وتنام. حيوانات لا تعرف الرحمة، تتقاتل فيما بينها من أجل لا شيء. أما عن نفسي فقد قررت أن أبقى داخل هذه الدائرة. أعيش فيها وأموت فيها.

تبسم «جارديني» وجذب آدم برفق واقترب منه هامسًا:

- ألا تخافُ أن تقتلكَ تلكَ الدائرة كما فتكت بالعشرات من الفنانين من قبل، مثل «فان جوخ» و«جوجان»؟

- «فان جوخ» للأسف عاش في مُجتمع لم يفهمه أو يُقدّره، عاش في تلك الدائرة وحده تمامًا فلم يحتمل فانتحر. أما «جوجان»، فقد ترك عمله وأسرته واختار حريته. أغلب الناس اعتبروا تَرْكَ أُسرته وعمله والاتجاه للفن دربًا من الجُنون، لكنه كان يَهرب «إلى» هذه الدائرة.

- ولكن «جوجان» مات حزينًا وحيدًا في بلاد بعيدة...

- أعتقد أنه أصبح أسعد هناك. سأدلل لك على هذا. أنا أعلم منذ كنا في المتحف كم تحب «جوجان»، دعني أسألك سؤالاً

واحـدًا: لقد عاش هذا الفنان العظيم متنقلاً بين مدنٍ كثيرة في أوروبـا وجزر كثيـرة في أمريكا اللاتينية، أيـن أبدع «جوجان» أعظم أعماله الخالدة؟

تأنى «جارديني» قبل أن يجيب مع أنه يعرف الإجابة بلا أدنى شك. صمت للحظة ليستوعب ما يعنيه آدم. بعد لحظة الصمت السريعة تلك تبسم «جارديني» مرة أخرى ثم أومأ برأسه موافقًا:

- بلا شك في «تاهيتي»!

30

شـهور وسـنوات مرَّت وأحداث كثيرة تتابعت على الشـخصيات. نهايات سعيدة وأخرى حزينة شهدتها الأحداث.

ظـل جميـع المُتهمين قيـد الحجز منذ اكتشـاف واقعة السـرقة في أغسطس وحتى الحكم عليهم بالإدانة مع إيقاف التنفيذ في أكتوبر من العام نفسه. خلال هذين الشهرين تبادل وزير الثقافة فؤاد حسين، ومدير عـام قطاع المتاحف بالـوزارة الفنان منير شـعبان الاتهامات بالإهمال والتسبب في ضياع اللوحة. بعد الإفراج عن شعبان، وبمبادرة من أحد الإعلاميين المصريين، تم تنسـيق لقاء صُلح بيـن الرجلَيْن. في البداية تبـادل الرجلان اللـوم الرقيق ثم انتصرت قلـوب الفنانين الرقيقة فقاما وتبـادلا الأحضان وانتهى اللقاء بتعيين شـعبان مُستشـارًا للوزير. عام 2011 خرج فؤاد حسـين من الوزارة وتفرغ هو أيضًا للفن حيث اسـتمر يرسم ويبيع لوحاته بين القاهرة ودبي وابتعد تمامًا عن السياسة.

وبعد أن هدَأَت الدنيا ونسي الجميع أمر اللوحة مع تتابُع الأحداث السياسـية بالبلاد، أعـادت محكمة مصرية أخرى محاكمـة المُتهمين.

وفـي مايـو 2012 قضـت محكمة مصرية بتأييد حبس شـعبان سـنة مع الشـغل، كمـا أيَّدت نفس المحكمة حبس عبد القادر سـتة أشـهر مع الشـغل، لاتهامهمـا بالتقصيـر والإهمـال. في السـجن انعزل شـعبان تمامًا وتفرغ لهوايته وعِشـقه الأول: الرسـم. فأبدع خمسين لوحة تُعبر عمـا شَـعر به من ظُلم وأسـى أثناء السـجن: رسـم لوحة وهـي تَزُجُّ به في السـجن، رسـم «فان جوخ» حزينًا لسـجن فنان بسبب فنه، عبَّر عن اعتراضه على الحكم بسـجنه باسـتخدام الفن. وحرص على أن يرسم قطًّا أسود في أغلب لوحاته أثناء فترة السجن.

في فبراير 2013، وبعد خروج شـعبان من محبسـه أقام معرضًا فنيًّا ضم كل اللوحات التي رسـمها أثناء محنة السـجن. أحسن فنانو مصر استقبال المعرض ونال نجاحًا جيدًا في محيط الفنانين التشكيليين في مصر. بعدها بعام، وفي فبراير 2014 تُوفِّي شـعبان بشكل مفاجئ تاركًا وراءه مئات اللوحات التي خلَّدت قصته بين الإبداع والسجن.

وبشـكل مُماثـل فقـد قضـى عبـد القادر شـهور السـجن، ثـم عاد بعدها لأسـرته. كان قد انفصل عن زوجته الثانية وسـكرتيرته السـابقة سـعاد وعـاد لأم أولاده. لم يعد عبد القادر للعمـل بالوزارة بعدها أبدًا وانقطعت أخباره ولم يظهر إلا سريعًا خلال عزاء شعبان.

شـارك آدم بعلمـه وفنـه فـي «بينالـي» البندقيـة عـام 2011 ونالـت

مُشـاركته الثناء من إدارة الـ«بينالي». نجاح مُشاركة آدم في الـ«بينالي» أثمـر العديد من النجاحـات التالية. وما زال يتنقل يوميًّا بين المعارض الفنية ودور الأوبرا العالمية حيث كرَّس حياته للفن فقط. على الصعيد الشخصي، ففي 2012 تزوَّج آدم و«داريا» وسرعان ما أنجبا فتاة جميلة تُشبه أمها، أسـماها آدمُ على اسـم والدته الراحلة. عـاد آدم للتواصل مـع عبد القادر عقب خروجه من السـجن. أقـام آدم مع زوجته «داريا» وابنتـه بالبندقيـة الجميلة، ومما أسـعده أنه لـم يَحْتَجْ يومًـا لتعلم قيادة السـيارات في تلك المدينة السـاحرة. منذ رحلة القاهرة نشأت صداقة قويـة بيـن «جارديني» وآدم. لـم يعلم «جارديني» أبـدًا أن «داريا» وآدم كانا وراء سرقة اللوحة. ظل يظن أنه هو مَن استغل آدم وليس العكس! تعـدَّدت لقاءات آدم و«جارديني» للحديث عن المعارض واللوحات، وللاستمتاع بالموسيقى خاصة في «مقهى فلوريان».

أثبتـت تحقيقـات النيابة العامـة أن متحف «محمـد محمود خليل وحرمـه» بالجيـزة كان به 43 كاميـرا مراقبة إلكترونيـة، كان يعمل منها سـبع فقـط، كما ثبت بمـا لا يدع مجالًا للشـك عدم قيام أي شـخص باقتحـام مبنى المتحف ليلًا أو نهارًا، وأن سـرقة اللوحة حدثت خلال دقائـق قليلة أثنـاء فترة عمل المتحـف في عز الظهر! بعـد الحادث تم إغـلاق المتحـف تمامًا بحجة تجديد وتطوير قاعـات العرض وترميم المبنـى بالكامـل. ظل القصـر مغلقًا بعد الحادث لسـنوات طويلة. أما

لوحة «آنية وزهور» أو «زهور الخشخاش» للفنان العظيم «فان جوخ» فقد اختفت تمامًا ولم تظهر بعدها أبدًا إلى اليوم.

***

أكتوبر 2015

دا مفيش في الدنيا غرام.. بيعيش كده ع الأوهام

والحُب الصادق عُمره.. عُمره ما يحتاج لكلام

انتشى آدم وهو يستمع لأم كلثوم وهي تُغني رائعتها «للصبر حدود». استرخى في مقعده الوثير والمُفضل بتلك الشرفة بالبناية القديمة في حي الزمالك بالقاهرة. مرَّت خمس سنوات منذ دخل هذه الشرفة. ما زالت الشرفة كما هي. ولا يزال الشارع كما هو. سنوات طويلة مرَّت ولم يتغير شيء. لا يزال يذكر ليلته الأخيرة هنا. كم اشتاق لهذا المكان. في هذه الشرفة قضى طفولته. هنا داعبت أنامله الصغيرة الألوان الخشبية وهو يرسم لأول مرة. هنا جلس مع أبيه وأمه. بعدها صار يجلس مع أمه فقط، ثم مع نفسه فيأنس بالمكان. لا يزال يرى أمه أمامه في كُرسيها الخالي.

ولقيتني وأنا بَهْوَاك.. خلَّصت الصبر معاك

وبأملي باعيش ولو إنه.. ضيَّع لي سنين في هواك

سـمع طرقات سـريعة على باب البيت، جرى سـريعًا ليفتح الباب فوجد عبد القادر أمامه مباشـرةً. احتضنه بشوق شديد. دعاه للدخول. أعـدًا معًـا كوبَي الشـاي اللذيذَيْـن وحمـل آدم الصينية للشـرفة حيث جلسـا معًا يستمتعان بأنغام أم كلثوم وهما يسترجعان ذكريات سنوات مَضَت. سنوات الكلية والأحلام الجميلة، وسنوات السجن والمعاناة لعبد القادر. سـأل آدم عبد القادر عن حياته. عرف أنه استقر ببيته وبين أبنائه وعاد للرسـم مرة أخرى بعد سـنوات. عرف أن أُموره اسـتقرت. حكـى آدم لعبد القادر عن حياته هو بالبندقية وعن ابنته ذات السـنتين، وكيف أنه يُحدثها بالعربية وأمها تُحدثها بالإيطالية. ستُجن هذه الطفلة بالتأكيد. أغمض آدم عينيه. سَـرَت رعشـة داخل كيان آدم وهو يستمع «لِلسِّت» تُعيد في إصرار شديد:

وآهي غلطة ومش ح تعود.. ولو إن الشوق موجود

وحنيني إليك موجود.. إنما للصبر حدود يا حبيبي

شـعر آدم بدمعة دافئة تخترق خده الأيمن، تركها فارتاحت نفسـه. تبعتهـا عدة دمعات أخرى كلما أعادت الست نفـس الكلمات خاصة وهـي تُؤكد «ولو إن الشـوق موجـود.. وحنيني إليـك موجود» كانت كمَن يضغط على جرح ظن آدم أنه قد شُفي منه، ولكن ها هي «السِّت» تفتح الجرح بكلمات قليلة.

- ليتني أفهم ما تقوله حتى أشاركك هذا الشعور الرائع يا حبيبي.

فتح آدم عينيه فإذا هو في شرفة منزله هو و«داريا» بالبندقية. كانت «داريا» تنظر له بحُب وتمسح دموع التأثر التي غطت وجهه. يبدو أن أحلام اليقظة بدأت تُهاجمه بعنف مرة أخرى كلما هاتف عبد القادر، أو كلما سمع أم كلثوم. ظل يشعر بحنين شديد لبيته في الزمالك ولتلك الشرفة التي قضى فيها سنوات صِباه وشبابه. كم شَعَر كالسجين الذي يحلم بالخروج من السجن والعودة لبيته. كأن العالم كله بشَرْقه وغَرْبه صار سجنًا كبيرًا وشُرفة بيت والدَيْه صارت هي العالم الذي يحلم به. لطالما ظنَّ أن كل الخيوط بينه وبين مصر تقطعت، ولكن دموعه الآن مع صوت أم كلثوم تؤكد أن هناك خيطًا أخيرًا لا يزال هناك، خيطًا سميكًا لا يقطعه حُب ولا زواج ولا بيت ولا عمل ولا مال. ابتسم آدم وربت على كتفَي حبيبته وهو يُتابع المشهد الرائع للمراكب في قناة البندقية. نظر لابنته ذات السنتَيْن وهي تعبثُ بالألوان تمامًا كما كان يفعل هو في مثل سنها. استسلم لذلك الخيط وهو يسمع «أم كلثوم». ربما استطاع أن يتبع ذلك الخيط الأخير ويعود لتلك الشرفة القديمة يومًا ما!

***

بعد شهر

في «مقهى فلوريان» استرخى «جارديني» على مقعده وهو يستمتع بنفس الألحان التي طالما أطربته وبعثت في روحه النشوة. سنوات أخرى مرَّت وما زال هذا المكان يحمل عَبَقًا من الأصالة والعَرَاقة لا يُقارن بأي مقهى آخر. عاد «جارديني» لروتينه اليومي بعد أن ازداد عُمره أعوامًا أخرى وقلَّت حركته وتنقلاته. وكعادته اصطحب ظله ويده اليمنى «ماركو». كان «جارديني» شابًّا صغيرًا حين جاء لهذا المقهى للمرة الأولى. الآن هو عجوز مُتقاعد. كَبر هو، وكذلك كل مَن يعمل بالمكان، حتى أن بعضهم تُوفِّي، والبعض الآخر صار لا يقوى على العمل. أتى البعض بأبنائهم للعمل بدلًا منهم فظهر جيل جديد من الشباب يعمل بجد وهمة وسرعة. وهكذا كَبر هو وظل المكان شابًّا لا يشيخ. هكذا ظل «مقهى فلوريان» يعمل طوال هذه السنوات الطويلة كمقهى شابٍّ وراقٍ يقصده الناس من كل أنحاء العالم. ومَن يزوره مرة يعود إليه مرات.

في «مقهى فلوريان» ظل «جارديني» يُقابل الفنانين، يَقضي الساعات مُتحدثًا عن تاريخه في الفن واللوحات التي يقتنيها. في «مقهى فلوريان» قضى «جارديني» عمره يأكل ويشرب ويعمل ويُقابل أصدقاءه.

صباح ذلك اليوم تقدَّم النادل الشاب من «جارديني» و«ماركو»:

- كيف حال أبيك؟

- بخير يا سنيور «جارديني».. نفس الإفطار لشخصَيْن؟

- نفس الإفطار!

- شكرًا سنيور «جارديني»، دقائق وسوف يكون الإفطار جاهزًا، كما سأخبر الفرقة الموسيقية لتعزف ألحانكَ المفضلة.

انصرف الشاب وعاد «جارديني» للاستمتاع بالألحان مرة أخرى حتى توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف وارتفع صوت الأجراس يُعلن الحادية عشرة تمامًا. نظر «جارديني» لساعته ليتأكد أنها مضبوطة بالثانية. عند اللحظة التي توقفت فيها الأجراس وعند استعداد الفرقة للعزف مرة أخرى رنَّ هاتف «جارديني».

نظر «جارديني» حوله فوجد نفس الشاب الرياضي الذي أشار لنفسه باسم «بيدرو» منذ سنوات. نفس المكان ونفس التوقيت ولكن بعد خمس سنوات كاملة. أشار له بيده. وتذكَّره «ماركو» كأنما رآه بالأمس. تقدم «بيدرو» نحو «جارديني» وللمرة الثانية سلَّم على «جارديني» بثقة شديدة وهو ينظر لعينَيْه في ندية شديدة. وسلَّم أيضًا على «ماركو» كصديق قديم.

- سنيور «جارديني»، سعيدٌ جدًّا بلقائك مرة أخرى. أعتقد الآن أنك تثق بي بعد أن أصبحنا شُركاء عمل الآن. لن آخذ من وقتك

أكثر مـن خمس دقائق فقـط. أرجوك اعتبر هـذه المقابلة دعوة بسـيطة كالمرة السـابقة. للأسـف هـذه الدعوة أيضًا كسـابقتها ليسـت مني، ولكنها ممَّن أرسلني. هل أسـتطيع أن أدعوكَ مرة أخرى على زجاجة نبيذ فاخرة على شَرف عملنا معًا؟

- لا داعـي، يمكنني أن أدعوكَ أنـا على الإفطار قبل أن تعود من حيث جئت.

جـاء مدير المقهـى ومعه أحـد العاملين يحمل صينيـة كبيرة عليها الإفطار. سـكت «بيدرو» تمامًـا عندما جاء المديـر. وطلب منه بعض القهـوة وانتظـر حتى انصـرف. نظر لـه «جارديني» نظـرة ريبة واضحة وأشـاح بنظـره عنه وتناول قِطعة من الكعكة. بعدها رَشـف رشـفة من قهوته وأغمض عينَيْه ليستمتع بالموسيقى.

- سـنيور «جارديني»، الموضوع هذه المرة سـهل وبسيط جدًّا. أبسط من المرة السابقة.

- حقًّا؟ كيف؟ وهل هناك أبسط من المرة السابقة؟

- في المرة السابقة طلبنا منك لوحة من متحف، هذه المرة نُريد لوحة من مخزن. لا حراسة ولا كاميرات ولا أي شيء.

- مخزن؟

- بعد عملية عـام 2010، أغلقت وزارة الثقافـة المصرية متحف «محمـد محمود خليل وحرمه» بغرض تطويره وترميمه، وهو مُغلـق إلى اليـوم. القِطَع الأصلية التي كانت فيه تكدَّسـت في أحد المخازن في قبو القصر نفسه، والذي لم يَعُدْ متحفًا حتى الآن. نحـن نريـد لوحة «الحيـاة والموت» لـ«جوجـان». لقد صنعنـا نُسـخة طبق الأصل منهـا. المطلـوب أن تبدل الأصل بالنسـخة. ولا أحد سـيعرف إلا بعد شهور وربما سنوات عند إعادة افتتاح المتحف.

- وقد لا يعرف أحد أبدًا.. وهذا هو الاحتمال الأكبر.

- بالضبـط.. سـنيور «جارديـني».. نحن لا نطلب منـك الكثير، الموضوع أبسط بكثير من المرة السابقة، لقد جرَّبت بنفسك.

- لقد كَبرتُ الآن وأصبحتُ لا أهتم بمثل هذه العمليات.

- سنيور «جارديني»، أنت تُخطط وفريقكَ يُنفذ.

- ليس لي فريق، بعد أن تتناول قهوتكَ سـأعتبر أن هذا اللقاء لم يتم.

تناول «بيدرو» قهوته وتجرَّعها سـريعًا. ثم اعتدل ووقف استعدادًا للرحيل. مال «بيدرو» على «جارديني» هامسًا بصوت سمعه «ماركو»:

- وماذا عن «يا أورانا ماريا»؟

لَمِعَت عينا «جارديني» فجأة ولم يرد. ظهرت علامات الثقة على وجه «بيدرو». ظهرت علامات عدم الفهم على وجه «ماركو» الذي سأل «بيدرو» في همس:

- ما هذه الـ«ماريا»؟

- هذه من أهم لوحات «جوجان» التي رسمها في نفس السنة والمكان مثل «ماتا موا» (تاهيتي، 1891). وجود هاتَيْن اللوحتَيْن معًا مع أحد جامعي القِطَع الفنية لا يُقدر بثمن.

ظل «جارديني» واجمًا لا يُبدي أيَّ رد فعل، فأضاف «بيدرو» لـ«ماركو» و«جارديني» هامسًا:

- هذه اللوحة كانت في المتحف العالمي للفنون بنيويورك. وهي الآن في صالة «كريستي» للمزادات في لندن تنتظر التوقيع الأخير لنُرسلها للبندقية باسم سنيور «باولو جارديني».. وبالطبع تستطيع أن تتأكد سنيور «جارديني». مع أنني أعرف أنكَ الآن تثق بي.

سكت «جارديني» تمامًا. سرح مع الموسيقى وهو مُغمض العينَيْن. جرت أمامه كلُّ أحداث عملية القاهرة. منذ خمس سنوات ولم يُعاود

السـؤال، لـم يعرف قط مَـن كان وراءها، وأين هي لوحـة «فان جوخ» الآن. ظـل «جارديني» مُغمض العينَيْن بينما تبـادل «بيدرو» و«ماركو» نظرة خاطفة سـريعة. ساد الصمت إلا من صوت الموسيقى العذبة في «مقهـى فلوريان». بعد حوالي نصف دقيقة فتح «جارديني» عينَيْه ونظر لـ«بيدرو» في صمت ثم نادى «جارديني» على مُدير المقهى الذي جاء مُهرولًا ما إن ارتفعت يد «جارديني».

اعتدل «جارديني» وهو يُداعب شُـعيرات لِحيته البيضاء بيده ونقل بصـره بيـن «ماركو» ثم «بيـدرو»، أشـار لـ«بيدرو» بالجلـوس ثم نظر لمُدير المقهى الواقف أمامه هاتفًا في حماس واضح:

- أُريـد أقـدم زجاجـة لديـك مـن نبيـذ «كوستاسـيرا أمـارون كلاسيك» الإيطالي الفاخر.. ولا تفتحها!

تَمَّتْ

***

القِطَع الموسيقية

- «بـور أونا كابيزا» أو «بفـارق رأس» – أغنية تانجو أرجنتينية – لحن وغنـاء «كارلوس جارديل» – كلمـات «ألفريدو لو بيرا» – 1935.

- إنـتَ عُمـري – أغنية مصرية – غناء أم كلثـوم – ألحان محمد عبد الوهاب – كلمات أحمد شفيق كامل – 1964.

- «كونشـرتو البيانـو رقـم 2 لـ«رحمانينـوف»» – موسـيقى كلاسيكية – ألحان «سيرجي رحمانينوف» – 1901.

- للصبـر حدود – أغنية مصرية – غناء أم كَلثوم – ألحان محمد الموجي – كلمات عبد الوهاب محمد – 1964.

اللوحات

- «الموناليزا»– لوحة زيتية – «ليوناردو دافنشـي» – رُسِـمَت ما بين عامَي 1503 إلى 1505.

- «ماتـا مـوا» أو «فـي الأيـام الخوالـي» – لوحـة زيتيـة – «بول جوجان» – رُسِمَت عام 1891.

- «آنية وزهور» أو «زهور الخشخاش» – لوحة زيتية – «فنسنت

فان جوخ» - رُسِمَت عام 1887. (اللوحة مسروقة من متحف محمد محمود خليل وحرمه بالقاهرة منذ عام 2010).

- «لا فيتا أي لا مورت» أو «الحياة والموت» - لوحة زيتية - «بول جوجان» - رُسِمَت عام 1889.(من مُقتنيات متحف محمد محمود خليل وحرمه بالقاهرة).

- «زنابق الماء»- لوحة زيتية - «كلود مونييه» - رُسِمَت عام 1906 («كلود مونييه» له مجموعة كبيرة من لوحات زنابق الماء تضم أكثر من 250 لوحة كبيرة. إحدى هذه اللوحات من مُقتنيات متحف محمد محمود خليل وحرمه بالقاهرة الذي يضم 4 لوحات أخرى لـ«مونييه»، أشهرها جسر فوق مُستنقع مائي).

- «يا أورانا ماريا» أو «السلام عليكِ يا مريم» - لوحة زيتية - «بول جوجان» - رُسِمَت عام 1891.

***

شكرٌ و امتنان

إلى أمي و أبي

إلى ياسين، يحيى، مصطفى، ومروان

وإلى كل من ساهم في خروج الرواية بهذا الشكل، و أخص بجزيل الشكر الروائيين الرائعين الصديقين أحمد مراد و أشرف العشماوي.

كلماتي تعجز عن التعبير عن شكري و تقديري العميق للصديقين أسامة أبو القاسم و ساندي أمين على ما أهدياني من وقت و فِكر مما ساعدني بشكل كبير في إتمام النص.

الشكر أيضًا لمحمد ناصف على موسيقاه الرائعة التي أهداها للرواية.

الشكر أيضًا موصول لكل من دعمني ووجهني منذ إصدار روايتي الأولى و قبلها إلى الآن و هم كُثرٌ للغاية أخص منهم الأصدقاء الأعزاء خالد دياب، أحمد سراج وشريف الليثي.

***

"- ولكن «جوجان» مات حزينًا وحيدًا في بلاد بعيدة...

- أعتقد أنه أصبح أسعد هناك. سأدلل لك على هذا. أنا أعلم منذ كنا في المتحف كم تحب «جوجان»، دعني أسألك سؤالًا واحدًا: لقد عاش هذا الفنان العظيم متنقلاً بين مدنٍ كثيرة في أوروبا وجزر كثيرة في أمريكا اللاتينية، أين أبدع «جوجان» أعظم أعماله الخالدة؟"

***

هي رواية يلعب فيها الخيال والواقع دورًا متبادلًا، بحيث يلتبس على القارئ بتداخل الصور وتبدل الأدوار، فحين ينظر القارئ وقائعها يكتشف أنها محض خيال، وعندما يسبح مع موجات أحداثها المتدافعة يصطدم بصخور الواقع!

هذه رواية مشوّقة تدور حول سرقة لوحة شهيرة نادرة من متحف، جرت من حولها المؤامرات والحيل والألاعيب... تُرى ماذا حدث؟!.. وكيف مضت حواراتها وانتهت؟!

عمرو حسين. مهندس ومدير مشروعات. عمل لمدة 15 سنة في إحدى شركات النفط العالمية. حاصل على بكالوريوس الهندسة من جامعة القاهرة عام 2000 وماجستير إدارة الأعمال من كلية ماسترخت الهولندية عام 2009. صدرت له رواية "الرهان" عام 2012، كما كتب سيناريوهات لبعض الأفلام القصيرة بالعربية والإنجليزية.

الدار المصرية اللبنانية